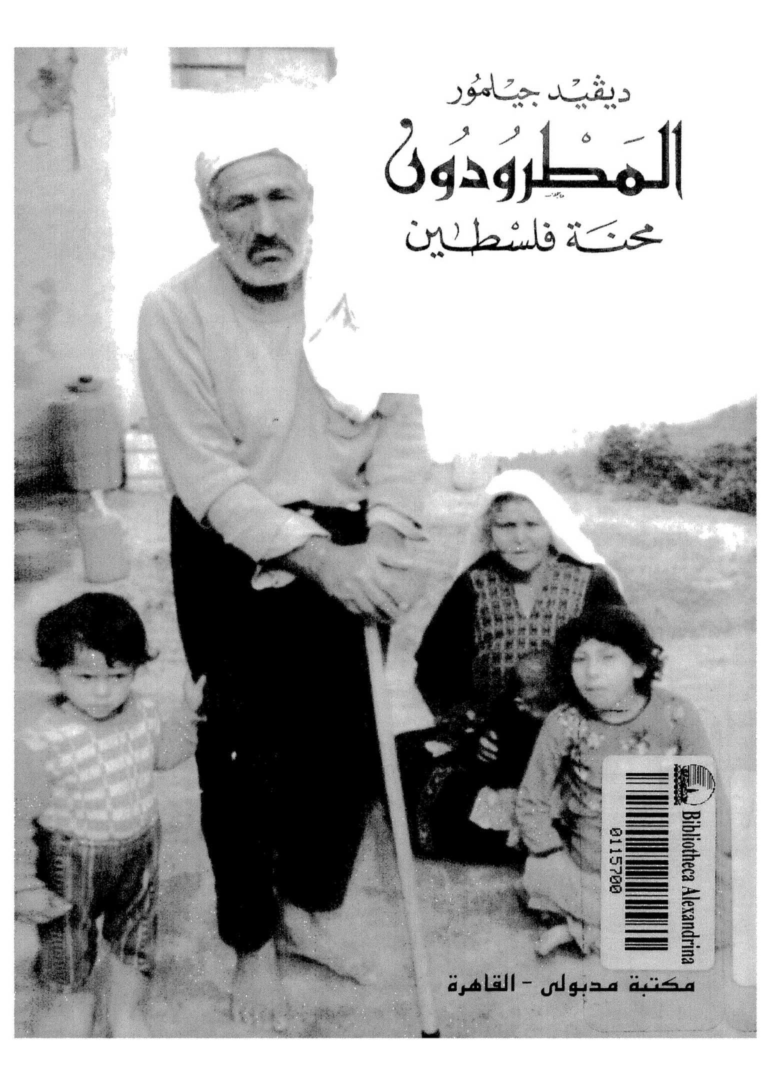
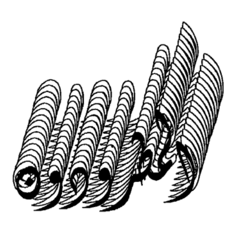
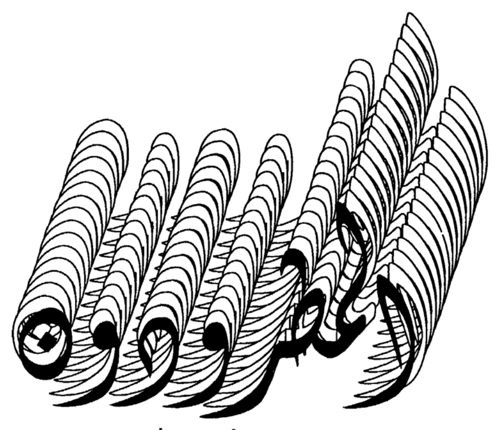

ديفيد جيلمور
المطرودون
محنة فلسطين
Bibliotheca Alexandrina
0115700
مكتبة مدبولى - القاهرة





محنة فلسطين

١٩١٧-١٩٨٠

تأليف : ديفيد جيلمور

ترجمة : شاكر إبراهيم

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

مكتبة مدبولى MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١ 6 Talat Harb SQ. Tel:756421

بسم الله الرحمن الرحيم

المطرودون

محنة الفلسطينيين ١٩١٧–١٩٨٠

ديفيد چيلمور

يصف هذا الكتاب التجربة التى عاشها الفلسطينيون فى القرن التاسع عشر... أى قبل استيلأ الحركة الصهيونية على فلسطين وما أعقب ذلك من طرد لسكانها العرب وسنى البؤس التى أمضاها الفلسطينيون فى بلاد أخرى أو تحت الحكم العسكرى الاسرائيلى، كما يصف مابذلوه من محاولات فى سبيل استرداد وطنهم .

زار المؤلف الدول التى يعيش فيها الفلسطينيون وتحدث معهم حول ذكرياتهم عن فلسطين وعن حياتهم فى المنفى وآمالهم فى المستقبل... تحدث إلى أطفال مخيمات اللأجئين وإلى أعيان القدس الطاعنين فى السن وإلى رجال الأعمال من الفلسطينيين فى الخليج وإلى قادة الفدائيين فى بيروت.... ومن رواياتهم استطاع الكاتب أن يرسم صورة لأمة تعيش فى المنفى ... صورة شعب يدرك أنه لاينتمى لغير البلد الذى أغلقت حدوده فى وجهه .

والفلسطينيون مشتتون فى جميع أنحاء العالم العربى حيث يحيون أساليب حياة متنوعة فى ظل ظروف متباينة، ومع ذلك فإن حياتهم فى المنفى هى العامل المشترك بينهم، ومن ثم فإن الأحساس بالاغتراب والحنين للعودة إلى الوطن جعلا القومية الفلسطينية من أقوى القوى السياسية فى العالم العربى... ولامناص، كما يرى المؤلف فى الفصل الختامى من هذا الكتاب، من اشباع هذا الحنين إذا ما أريد حل المسألة الفلسطينية وتحقيق العدالة لهذا الشعب .

كلمة شكر

لولا تعاون المئات من الفلسطينيين ممن التقيت بهم وتحدثت اليهم فى غضون السنوات الخمس الماضية لتعذر وضع هذا الكتاب. ويصعب هنا أن نورد كل أولئك الذين قدموا لى يد العون، ومن اذكرهم فيما يلى من فلسطينيين وغيرهم ليسوا سوى أولئك الذين قدموا إلى مساعدة خاصة وخصونى بكرم الضيافة أمثال موسى العليمى ومحمد جار الله واسرائيل اسحق وروحى الخطيب من القدس، وأحمد طوقان وانطون عطا الله من عمان، وحاتم أبو غزالة وعائلته من غزة، وتوفيق زايد وسليم جبران عطا الله منصور من الناصره، ويوسف رضا من نابلس، وعلى سعد من دمشق، وعبد المحسن قطان وخالد الحسن من الكويت، ونبيل حجازى وزكى نسيبه وابراهيم ابراهيم من اتحاد الإمارات العربية، وليلى البارودى ووليد جنبلاط وسامى العليمى وأفراد من عائلة السعيد والدمشقى وأبو الجبيان من بيروت .

كما أنى أشكر سيرجون جلوب لما قدمه لى من معلومات حول الأردن. وسير كريستوفر تشانسلور الذى سمح لى أن أنقل عن وثائق أبيه، وأخص بالشكر جون ويدوامى وروبرت سوان وفيليب مانسل والغى ماليس الذين قرأوا المخطوط وأسدوا لى نصيحة قيمة حول مضمونه، وكذلك فيليدا اشتون التى ساعدتنى فى نقل الأسماء العربية إلى الانجليزية وهيلارى متولى التى نسخت المخطوط مرتين .

د.ج

مارس ١٩٨٠م

الفهرس

المقدمة

تخيلات وخرافات

فى قلب فلسطين القديمة يرتفع جبل ايبال (EBAL) شاهقا فوق قباب نابلس ومآزنها بمنحدراته القاحلة الكئيبة التى لا يخفف من كآبة حجارتها، التى تبدو وكأنها لاتنتهى، سوى بعض الماعز والشجيرات الشوكية، ومن قمة الجبل تمتد أراضى فلسطين فى كل اتجاه: إلى الشمال الناصرة والملامح غير الواضحة للجليل، وإلى الشرق تمتد، عبر نهر الاردن، تلال موآب فى خط مستقيم إلى ما وراء البحر الميت، وإلى الجنوب تقع القدس، وإلى الغرب، عبر ضباب خفيف ينعطف السهل الساحلى حول جبل الكارميل ابتداء من عكا إلى غزة وعسقلان .

أسماء مألوفة ومعالم طبيعية من كثرة ما وصفت؛ شكى رجل انجليزى فى عام ١٨١٢ من أنه «قد يعتقد أن الذين كتبوا حول هذا الجزء من العالم قد استنزفوا هذا الموضوع ولم يتركوا ما يمكن أن يضيفه كاتب آخر»، يبدو أن تلك الشكوى لاتنطبق على السكان اذ ندر أن اهتم بهم الرحالة الذين كتبوا عن فلسطين فلم يكن يهتمون بهم كشعب، بل انصب اهتمامهم على الماضى. وبعد انسحاب الامبراطورية العثمانية من سوريا طمع الغرب فى فلسطين على أساس تاريخها اذ منذ أن اصطبغت بديانتان شرقيتان؛ اليهودية والمسيحية، بالصبغة الغربية وجد من طالب بضرورة فصل موطن هاتين الديانتين عن العالم الشرقى. فالصليبيون والمبشرون والصهاينة طالبوا بفلسطين لما كانت عليه فى الماضى دون إهتمام بواقعها الفعلى كدولة عربية بل وأساسا إسلامية– هكذا كانت مثل هذه المعاملة لسكانها .

أن مايتسم به هذا القرن من جهل لايقل سؤا عما كان عليه أجدادنا. وعلى الرغم مما تعرضت له فلسطين من غزوات وتغيير حكامها كان الاستقرار العرقى هو

الطابع المميز لسكانها عبر آلاف السنين، وظلوا طيلة الألف والثلاثمائة سنة الماضية لهم ثقافة عربية لا لبس ولا غموض فيها وإن كنا قد حاولنا أن ننساها أو نغفلها، بل زعمنا فى بعض الأحيان، أنه لا وجود لها. ففى إعلان بلفور عام ١٩١٧– تلك الوثيقة التى قررت بصورة فعالة مستقبل العرب الفلسطينيين وكانوا يشكلون آنذاك ٩٠ بالمائة من السكان لم يوصفوا الا بالجماعات غير اليهودية الموجودة بل أن بلفور نفسه، كوزير للخارجية البريطانية إعترف؛ أنه فى فلسطين لا نقترح حتى المرور بشكلية مراعاة رغبات السكان الحاليين «فكان إعتقاده ان الصهيونية أكثر أهمية من رغبات وأهداف ٧٠٠ ألف عربى يعيشون فى تلك البلاد القديمة» كما كان الصهاينة القدامى يتجاهلون بدورهم سكان البلاد الحقيقيين، وطبقا لما ذكره اليهودى الروسى، آشر جنسبرج فانهم كانوا يعتبرون الفلسطينيين اما همجاً يعيشون كالحيوانات أو أنه بكل بساطة لا وجود لهم.

وبعد سنوات عديدة أعلنت جولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل، أنه لم يكن لهم، فى الواقع أى وجود «لم يكن هناك ما يسمى بالفلسطينيين.... لم يكن فى فلسطين شعب يعتبر نفسه شعبا فلسطينيا ونحن جئنا وطردناه وانتزعنا منه بلاده أنه لم يكن موجودا» وترجم الوزير الإسرائيلى للتعليم هذه الرواية الخيالية إلى سياسة رسمية بقوله للمعلمين الإسرائيليين: «من الأهمية بمكان أن يعرف شبابنا أننا حين عدنا إلى هذه البلاد لم نجد بها أية أمة أخرى وأنه بالتأكيد لم تعش هنا أية أمة منذ مئات السنين». وأوضح أن العرب الذين إلتقوا بهم لم يكونوا سوى لاجئين مصريين حلوا بالبلاد فى منتصف القرن التاسع عشر .

لم يكن هذا اللون من الدعاية مقنعاً خارج حدود إسرائيل لأن الكثيرين من رحالة وتجار ومبشرين وجنود شاهدوا بأعينهم الفلسطينيين ويعرفون أنهم موجودون، وأن

كانوا يعرفون عنهم أكثر من ذلك .

لكن مواقف الغرب تجاه العرب إنما حدوها بصفة تكاد تكون دائمة، الجهل أو التعصب أو كلاهما، لقد تشكلت بعض هذه المواقف بدون وعى على أساس ما ورد فى التوراة؛ الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مترفى مصر وغيرها «كما تشكل بعضها بفعل التعصب الأوروبى ضد الإسلام الذى يرجع إلى غزوات العرب لأسبانيا وفرنسا فى القرن الثامن عشر والذى ينعكس فى الأدب الأوروبى ابتداء من« اغنية رولاند حتى ليبانتو لشسترتون» ، كما يعبر عن هذا التعصب تعبيرا صادقا عنوان كتاب لعميد نورويتش فى عام ١٦٩٧ : «الطبيعة الحقيقية للخداع البين فى حياة محمد» .

وفى القرن التاسع عشر عندما أخذت أعداد السائحين إلى الشرق الاوسط تتزايد شرع الأوروبيون فى تقسيم العرب إلى فئات: عرب المدينة ويصفونهم بالقذارة، والخمول، والفساد، ويرمونهم بالإحتيال والخديعة فيصفهم جورج ووكر فى قصص «ترولوبى» بأنهم جنس منحط ومزيف وجبان وفى الجانب الاخر يقف عربى الصحراء الذى ينعتونه بالجائل الطليق فى الافاق الواسعة، والنبيل ذو الدماء النقية الذى لايهتم بألوان الترف، فصورة الباشا بكرشه وحريمه تقابلها صورة البدوى بوجهه الشبيه بالصقر وهو يكابد مشاق الصحراء، ولعل هذا الافتتان الرومانتيكى القائم إلى حد كبير، على الجهل كان أسلوبا انجليزيا خالصا وإن أخذ به بعض الفرنسيين. وكان كلما حظى العرب الرحل بالإعجاب المطلق ازداد الإزدراء بأهل الحضر. ويفسح فى يوميات الأوروبيين، ومذكراتهم للتغنى بمحاسن البدو مساحات لاتقل عن تلك التى تخصص لوصف فساد وشرور المدن وأهلها، وليس أدل على ذلك النمط الرومانتيكى من رد فعل ارثر واتشوب، المندوب السامى البريطانى فى فلسطين حين قال عند لقائه بوفد عربى :

«لا يسع المرء إلا أن يشعر بأن الدماء النبيلة التى جرت فى عروق صلاح الدين

لا تزال تجرى فى عروق شيوخ هذا العصر» .

إن كتابات رجال أمثال دوفتى، وبيرتون، ومآثر لورانس، وجلوب- اولئك الذين عرفوا البدو وعاشوا معهم- هى التى نشرت الإعجاب بعرب الصحراء. ولم يبدأ هذا الافتتان يضعف إلا بإكتشاف النفط، وإدراك أن البدوى يمكن أن تفسده الثروة المادية بنفس السهولة التى تفسد أى شخص آخر، ومع ذلك لايزال إعجابنا بالبدوى قائما إلى حد ما، فالسائحون فى القدس تقلهم العربات المكيفة لالتقاط صور للبدو الحقيقيين وهم على ظهور إبلهم، وإذا كانت الصورة قد فقدت بريقها، فإنها أجمل من أن تضيع كلية وكثيرا ما يصور رسام الكاريكاتير فى الصحف الشعبية، العرب بثيابهم الفضفاضة وإنوفهم المعقوفة وهم فوق ظهور الإبل بهدف ترك الإنطباع بالقذارة .

ولامراء من أن مواقف الغرب تجاه العرب إنما تأثرت بالمحاولات الصهيونية الرامية إلى تصويرهم بالشعب الجاهل المتخلف الذى يحتاج إلى معونة أجنبية تمكنه من التطور. ومن ثم فإن باحثا يهوديا مثل روكليف- لامان يؤكد فى تعليقه على قذارة القرى العربية ونتانة ملابس الأطفال ونقص التعليم بأن « العربى عاجز تماما عن تطوير بلاده بمفرده»، وكان الزعيم الصهيونى حاييم وايزمان مغرماً بهذا التكتيك ولذا ففى رسالة بعث بها فى عام ١٩١٨- إلى بلفور- ولم يكن قد زار فلسطين اطلاقا-أراد أن يحاضره فيها عن السمات المميزة للعربى الفلسطينى قال:

«بالرغم من مهارته السطحية وسرعة بديهته فأنه خائن بطبيعته ويمارس الإبتزاز ماااستطاع إلى ذلك سبيلا فإن كان مسئولاً فهو فاسق وفاسد وغير كفء، يندم على الأيام الخوالى التى كان فيها «البقشيش» هو الوسيلة الوحيدة التى تنجز بها الأمور الإدارية، وإن كان فلاحاً فأنه متخلف عن عصره بما لا يقل عن أربعة قرون، وإن كان من الاعيان فهو أمى وغير أمين، شره، وغير وطنى، فضلا عن أنه غير كفء» .

وفى غضون الثلاثينيات من هذا القرن عندما بلغت الخيالة ذروة تقدمها، باتت تستخدم فى تأكيد مثل هذه الأفكار عن الفلسطينيين وقد عرض أحد هذه الأفلام فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٥ وقامت بتمويله المنظمة الصهيونية «صندوق مؤسسة فلسطين» وكان هدف الفيلم الوحيد وعنوانه «أرض الميعاد» هو عقد مقارنة بين المجتمع المتخلف فى فلسطين العربية والحماس المثالى للرواد الصهانية ويبدأ الفيلم بلقطات لشبة الجزيرة العربية ومصر (وأن كان الهدف هو إقناع الجمهور بأنها لقطات لفلسطين) يعقبها تعليق سريع: «هذه هى الأرض التى وعد الله بها ابراهيم، لقد عاش اليهود ذات يوم فى العالم الإسلامى حين كان مركزا لحضارة، عظيمة، وعندما طرد اليهود أخذت تلك البلاد فى الإنهيار وعادت الحياة البدائية» ويمضى الفيلم فى سرد كيف يعمل الصهاينة المجدون على القضاء على الحياة البدائية، فبينما كانت التربة منذ عشرين عاما أما مستنقعات أو ينبشها محراث ليس إلا. تغير اليوم كل شئ وبدأت حياة جديدة وكادت المحاصيل تزرع على مدار السنة، بل هناك زعم بأن برتقال يافا ذاته الذى عرفه الصليبيون هو من نتاج النشاط اليهودى، فحقول البرتقال أو كما يسمونه بالعبرية «التفاح الذهبى» يغطى الأرض التى لم تكن تنبت حتى الشوك منذ سنوات عشر خلت .

ليست هذه المواقف تجاه الفلسطينيين قاصرة على الصهاينة فقد كانت، وربما لاتزال، واسعة الإنتشار بين المعاصرين من الصحفيين ومعلقى الإذاعة والتليفزيون مما جعل أدموند ويلسون وهو واحد من أبرز كتاب أمريكا فى هذا القرن من أن يكتب مثل هذا الهراء المقذذ فى عام ١٩٥٦ حين قال: هكذا فإن وضع العرب فى إسرائيل– كما يراهم المرء فى البلاد– شبيه بوضع «النافاهو» فى جنوب غرب أمريكا: إناس متخلفون على نحو يدعو إلى الشفقة، كان طابعهم فى يوم من الأيام، وأن كان لايزال صوريا، كما أنهم انفصلوا عن المجتمع الرئيسى وأن كانوا يثيرون مشكلة متكررة... ففى مدينة

كبيرة مثل عكا تثير قذارة الشوارع المكتظة فى نفس الإسرائيلى عين ما تثيره من استياء فى نفس أى زائر غربى، فمنظر مجموعات كبيرة من الأولاد الفقراء الأميين المرضى وهم يصببون ويشحذون فى الشوارع الضيقة القذرة يثير فى نفس اليهودى رعبا أخلاقيا .

كذلك سجل آرثر كوستلر عبارة اشد بشاعة فى علم ١٩٤٩ ، وإن كان من غير المحتمل أن يفعل ذلك الآن، فقى وصفه لمأساة ١٩٤٨ عندما تحول إلى المنفى أكثر من ثلاثة أرباع مليون فلسطينى، كتب يقول: أن المسنين يشدون على ظهر الحمار حشية ووعاء القهوة النحاسى، فالمرأة العجوز تقود الحمار الذى يمتطيه الرجل المسن وقد التف بكوفيته وغرق فى تفكير عميق فى ضياع فرصة إغتصاب حفيدته الصغرى .

وبينما ينظر الغرب بازدراء إلى العالم العربى، فإن إحدى الصور المعاصرة الأكثر إلحاحا التى ترسم للعربى الفلسطينى هى صورة جديدة تماما وباتت كلمة فلسطينى ترسم فى ذهن الملايين من البشر صورة الارهابى، وهى صورة شخص فظ مراوغ يحمل مدفعا ومستعد لأن يقتل البشر فى أى سن ومن أى جنس أو لون دون سبب واضح .

تلك هى الصورة التى تسعى االصهيونية إلى غرسها فى الأذهان لأنها تضعف، ولا شك، التعاطف الدولى مع الفلسطينيين. ولقد وصف مناحم بيجن، رئيس وزراء إسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية بأنها أشر المنظمات باستثناء منظمات القتل النازية، فى تاريخ البشرية .

ذلك على الرغم من أن ارجون زفاى ليوفى «وهى الجماعة الارهابية التى قادها بيجن نفسه فى الأربعينات قد قتلت بعد ظهر يومين إثنين قدر ما قتل الفلسطينيون خلال خمسة عشر عاما من النضال ضد إسرائيل، فلقد أدى نسف فندق الملك داود فى ٢٢ يوليو عام ١٩٤٨ ومذبحة دير ياسين يوم ١٠ أبريل عام١٩٤٨ على يد

جماعة ارجون إلى مقتل ٣٤٥ نسمة .

لكن صورة الفلسطينى كإرهابى أقل شيوعا فى العمل الادبى منه فى الرسوم الكاريكاتورية أو فى أعمدة الرسائل فى الصحف وأن ظهرت مثل هذه الصور من حين لآخر كما هو الحال فى رواية هارولد روبين المفزعة التى صدرت بعنوان «القرصان» ورواية الرعب «الشرقى» لاريك اميلر، فالوغد فى الرواية الاخيرة، وهو قائد حرب عصابات أسمه «غالد» (حقيقة أنه لا يوجد فلسطينى أو عربى بهذا الاسم تدل على جهل الكاتب بالموضوع الذى يتناوله)، هو شخص بغيض لا يطاق، الصق به اميلر جميع الصفات التى يرغب الصهاينة فى خلقها على الفلسطينيين، فهو دائم الحديث عن قتل المدنيين الإسرائيليين، وقصف تل أبيب بصواريخ الكاتيوشا أو الخوض فى بحر من الدماء، أما الشخصيات العربية الاخرى فى تلك الرواية فهى الأنماط القديمة التى توصف بأنها «نتنة» أو «كريهة» أو بها آثار الجدرى .

ومن بين الفلسطينيين فى العالم الذين يتراوح عددهم ما بين (٣,٥ أو ٤) مليون نسمة، فإن عدد المسلحين يقل عن واحد بالمائة، فبعض الفلسطينيين يعيشون أقلية فى الضفة الغربية لنهر الاردن وقطاع غزة، أما الغالبية فهم اللاجئون المنتشرون فى جميع أنحاء الشرق الأوسط ولم يندمج فى الدول المضيفة غير نفر قليل، ذلك لأن الوعى القومى الفلسطينى والشعور بالشخصية المستقلة أقوى من حملهم على الاندماج، إنه شعور طابعه القوة والاصرار، لايشعر به غير شعب سلب منه وطنه .

هناك فى جامعة بيرزيت بالقرب من رام الله لوحة معلقة على أحد الجدران فوقها نص منقول عن جورج برنارد شو يقول: «لو حطمت قومية أمة فإنها لا تفكر الا فى إعادتها إلى ما كانت عليه، ولن تصغى لأى مصلح أو فيلسوف أو واعظ حتى تحقق مطلبها القومى، ولن تهتم بأى عمل، مهما كان حيويا سوى وحدتها وحريتها .

الجزء الأول

فلسطين والفلسطينيون قبل عام ١٩٤٨

الفصل الأول

فلسطين العربية

فى عام ١٩٤٨ فقدت فلسطين اسمها وأراضيها، كما فقدت عددا كبيرا من شعبها، فقد استولت على ثلاثة ارباع الأراضى حركة ظل هذا الشعب يقاومها زهاء نصف قرن من الزمان، واستولت مملكة شرق الاردن على الجزء الأكبر من الربع الباقى، ولم يبق أرضا فلسطينية غير قطاع من الأرض هو غزة، وحتى هذا القطاع فرضت عليه مصر سيطرتها، لقد تحول أكثر من نصف سكان فلسطين إلى لاجئين فى ربوع العالم العربى: فى لبنان وسوريا وشرق الأردن ومصر والكويت كما اتجهت حفنة منهم إلى الغرب: إلى بريطانيا واستراليا والولايات المتحدة، وحالف بعضهم الحظ وتسنى له مواصلة الحياة فى مناطق لم يستول عليها الصهانية، وظل فى قراهم اقل من العشر ليصبحوا مواطنين إسرائيليين .

لقد تحطم المجتمع الفلسطينى وحملت الأمة، التى ناضلت فى سبيل استقلالها منذ انهيار الامبراطورية العثمانية، كفاحها معها إلى المنفى حيث تحلم بالعودة وتخطط لها، ولم ترض قط أن تكون وحدها بين جميع الشعوب العربية محرومة من حق تقرير مستقبلها فوق ارضها .

فأى نوع من الناس اولئك العرب الفلسطينيين الذين أصبحوا، مثل اليهود والأرمن، احد شعوب العالم المشتتين؟ وكيف يشكلون شعباً مستقلاً له شخصية متميزة؟

قبل أن تتسنى لنا الاجابة على أى من هذين السؤالين، علينا أن نعود إلى ما قبل عام ١٩٤٨ ، حين كان الفلسطينيون لا يزالون يعيشون فى أرضهم وأن نبحث فى ظروفهم الثقافية والاقتصادية، وفى عاداتهم والأسس التى يقوم عليها مجتمعهم .

لقد ترك الغزاة بصماتهم على سكان فلسطين منذ أيام الاموريين، ربما تحدثوا الآرامية وتقبلوا العادات الاغريقية لكنهم ظلوا كما هم، فالفلسطينيون والكنعانيون الذين عاشوا فى القرن العاشر قبل الميلاد لم يغادروا البلاد اطلاقا وبقوا فى فلسطين لتشكل سلالاتهم جوهر سكان البلاد الأصليين .

أما الحدث الذى غير بشكل حاسم الطابع المميز للبلاد، فهو الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى، فقد جاء العرب المسلمون ومعهم نظام حكمهم ولغتهم وعقيدتهم فتقبلتها غالبية السكان واصبحت فلسطين وشعبها عربا، وأن ظلوا نفس الشعب دون أن يحدث تغيير عرفى يذكر إذ كان الفاتحون العرب قلة. ويوضح البروفسير رودنسون ذلك يقول: «أن جماعة عربية صغيرة من شبه الجزيرة العربية فتحت البلاد فى القرن السابع الميلادى، وسرعان ما اصطبغ الشعب الفلسطينى بالصبغة العربية فى ظل الحكم العربى كما اصطبغ من قبل بالصبغة الآرامية بل وبالصبغة الهيلينية إلى حد ما. واصبح الشعب الفلسطينى عربيا على نحو يتعذر معه أن يصطبغ قط بالصبغة اللاتينية أو العثمانية ذلك لانه ذاب فى الفاتحين.

وعلى الرغم من أن فلسطين القديمة يمكن رؤيتها من فوق جبل ايبال، إلا أن تباين الأرض والشعب يدعو إلى العجب، فغزة تشبه احدى مدن دلتا النيل كما يشبه سكانها، ببشرتهم السمراء، المصريين، وفى الجليل عدد كبير من الشقر ذوى العينين الزرقاوين كما يوجد فى اريحة عدد من الزنوج الذين لاتربطهم أية صلة عرقية بالبدو الرحل الذين على بعد أميال قليلة فى الصحراء، ولعل تلك هى الفروق الصارخة التى يشاهدها من يزور الأماكن القديمة حيث يعيش فلسطينيون .

ويقدر عدد الفلسطينيين حاليا بما يتراوح بين ٣,٥، و ٤ مليون نسمة، مما يدل على الزيادة المهولة فى عدد السكان خلال السبعين سنة الماضية، لقد كان عدد

الفلسطينيين حسب التعداد التركى للسكان الذى اجرى عشية الحرب العالمية الأولى ٦٣٠,٠٠٠ نسمة أما فى التعداد البريطانى الذى اجرى فى عام ١٩٢٢ فقد بلغ عددهم ٦٧٠,٠٠٠نسمة وذلك باستبعاد البدو الذين بلغ عددهم ٧١,٠٠٠ نسمة. وكشف التعداد البريطانى الثانى الذى اجرى فى عام ١٩٣١ عن أن أجمالى السكان العرب قد تجاوز ٨٥٠,٠٠٠ نسمة، وحسب التقدير الرسمى الذى اجرى فى مارس ١٩٤٧ قفز عددهم مرة اخرى ليصل إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة. هكذا يتضح أن عدد الفلسطينين العرب قد تضاعف خلال الثلاثين عاماً ما بين إنهيار الإمبراطورية العثمانية وقيام دولة إسرائيل، كما أنه خلال الثلاثين عاما التالية بلغ عددهم ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه .

وابتداء من القرن السابع عشر أخذ السئيون، وهم أكبر طائفة إسلامية، يشكلون الغالبية الساحقة من السكان، لكن فلسطين تضم عادة مجموعة من الأقليات التى وفد بعضها نتيجة لحدث تاريخى بعينه، ففى الثمانينات من القرن التاسع عشر، وجد لورنس اوليفانت تسع جماعات عرقية أو دينية متميزة تشتغل بالأرض بالقرب من حيفا شملت العرب المسلمين من بوسبينا وهرزجوفيينا التى رفضت أن تعيش تحت الحكم النمساوى، والشراكسة من القوقاز ومستوطنة يهودية فى زيمارين وقبيلة بدوية من السلاحقة الاتراك ومستعمرة من التمبلرز الالمان فى حيفا. أما المهاجرون الآخرون فقد شملوا البهائيين من بلاد الفرس وبضعة آلاف من البربر من شمال افريقيا .

أما الشيعة، وهى طائفة إسلامية تشكل أقلية رئيسية، فلم تضم يوماً أكثر من بضعة آلاف نسمة، وتعتبر قراهم فى الشمال إمتداداً لطائفة الشيعة الكبيرة فى جنوب لبنان، شأنهم فى ذلك شأن الدروز الذين يتمركز إخوتهم فى العقيدة فى منطقة الشوف بجنوب لبنان وفى جبل الدروز بسوريا. وبلغ عدد الدروز فى فلسطين فى نهاية

الحرب العالمية الأولى نحو سبعة آلاف نسمة منتشرين فى عدد من قرى الجليل وجبل الكرمل؛ وفى القرن التاسع عشر كان الدروز يحظون بتقدير الاوروبيين ولاسيما السياح الانجليز. ومن بين ما وصفوا به «الصلابة» و «الشجاعة» و «الاستقلال»، فقد وصفهم ميجور كوندر، عالم الجغرافيا البريطانى، بأنهم «كفء» و «شجعان» وأكثر شعب سوريا جاذبية بعد السامريين (طائفة صغيرة فى نابلس) وأعرب عن أسفه لأن شخصيتهم المستقلة تجعلهم لايصلحون كخدم، وذكر لورنس أوليفانت أن الدروز هم السكان الوحيدون الذين يمكن الإعتماد عليهم وأن الحياة فى وسطهم أفضل منها بين الطبقات الأخرى.

وكان المسيحيون أكبر الأقليات وأهمها، وفى عام ١٩٤٤، قدرت السلطات البريطانية عددهم بحوالى ١٣٥,٠٠٠ نسمة، وهكذا كانت تشكل أكثر بقليل من عشر السكان الناطقين بالعربية؛ وبعض المسيحيين من سلالة الذين إعتنقوا المسيحية فى القرنين الثالث والرابع والذين ظلوا على عقيدتهم طيلة الحكم الإسلامى، فعائلة «عطا الله» مثلا، عاشت كعائلة مسيحية فوق نفس قطعة الأرض فى القدس زهاء ١٥٠٠ سنة، كما أن بعضهم ينتمى إلى القبائل المسيحية التى قاتلت إلى جانب الجيوش الإسلامية ضد الإمبراطورية البينزنطية فى القرن السابع. هذا بالإضافة إلى الذين ينتمون لأصول أكثر حداثة مثل أسلاف صليبيين أو من اعتنقوا مبادئ إحدى الطوائف المسيحية الغربية فى القرن التاسع عشر .

والمسيحيون، من الناحية التاريخية، هم مجتمع حضرى، فقد تركزوا باستثناء الجليل، حيث كان يوجد بعض القرى المسيحية، فى المناطق الغربية وفوق التل الرئيسى، ويوجد فى القدس، ويافا، وحيفا، عدد كبير من المسيحين، كما كانوا فى رام الله، والناصرة، وبيت لحم يشكلون الغالبية. وابتداء من منتصف القرن التاسع عشر،

عندما بدأت البعثات المسيحية الأجنبية فى فتح المدارس فى القدس ورام الله أساسا، اصبح المسيحيون يتمتعون بمستوى رفيع من التعليم، ففى الوقت الذى كان فيه المسلمون يتلقون تعليمهم فى المدارس الحكومية حيث كانت العلوم تدرس باللغة التركية، أو فى مدارس إسلامية خاصة ندر أن وفرت التعليم الثانوى، استفاد المسيحيون من مدارس ممتازة مثل «كوليج دى فرير» ومدرسة «سانت جورج» فى القدس «فرتوز جيرلز آند بويز» التى أنشأتها طائفة «الكويكرز» الأمريكية فى رام الله .

كانت الطائفة المسيحية مقسمة بالتساوى تقريبا بين الكنيسة الارثوذكسية الشرقية ومنافستها اللاتينية التى تضم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكاثوليك اليونانيين ومقرهم حيفا، ومجموعات أصغر مثل الموارنة (وهم فرع من الطائفة المارونية فى لبنان) والكاثوليك السوريين والارمن، كما كانت هناك بعض الجماعات الاصغر مثل الأقباط والانجليكان والارثوذكس السوريين المنتشرين حول القدس، ومع ذلك كانت طائفة الارثوذكس اليونانيين هى الطائفة الرئيسية منذ فشل الصليبيين، لكن هذه تعانى منذ القرن السادس عشر من إنقسام داخلى جعلها ضعيفة سياسياً فابتداء من عام ١٥١٧ ، عندما استولى الاتراك على القدس سيطر على الكنيسة الارثوذكسية فى فلسطين رجال من الطائفة اليونانية فى داخل الإمبراطورية العثمانية، ومنذ عام ١٥٤٣ ، جاء كل بطريرك من اليونانيين وبالتالى كانت من بينهم معظم الأثاقفة وكبار رجال الدين، لكن هذه السيطرة اليونانية ورفض الكثيرين منهم تعلم اللغة العربية أثار استياء صغار رجال الدين وجمهور الشعب الذى كانت غالبيته عربا حتى أن القوات التركية فى عدة مرات اضطرت إلى التدخل لحسم أعمال العنف (كما حدث فى عامى ١٨٧٢ و ١٩٠٨) .

لقد كانت الغالبية الساحقة من الشعب الفلسطينى، نحو ٨٥ بالمائة من السكان،

من المسلمين السنيين الذين ينتمى معظمهم إلى المذهب الشافعى، أما البقية الباقية فكانت مقسمة بين المذهبين الحنفى والحنبلى، وبالرغم من أن مدينتى القدس والجليل كانتا تمثلان المركزين الدينيين، فإن السنيين انتشروا فى جميع أنحاء فلسطين وسيطرت على الحياة السياسية، وبحكم أنهم مجتمع ريفى فى أساسه، بعكس اليهود أو المسيحيين، فإنهم كانوا يشكلون فى أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية، السواد الأعظم من مزارعى فلسطين .

ولم تكن فلسطين، على النقيض من سوريا فى الشمال، بلاد الضيعات الواسعة، كانت هناك، ولاشك، بعض الأسر التى تمتلك مساحة تتراوح ما بين عشرة وخمسة عشر ألف فدان، ويعتقد أن أسرة الشواف فى غزة تمتلك ما يقرب من خمسة وعشرين الف فدانا، ومع ذلك كانت معظم أراضى فلسطين مقسمة إلى ملكيات صغيرة، وكان نصف المزارعين يعيشون فى مستوى الكفاف ويزرعون مساحات تقل عن ثمانية افدنة. هذا فضلا عن ان ثلث الأسر الريفية لم تكن تمتلك أية أراضى مما اضطرهم إلى العمل لحساب جيرانهم، ومع نمو السكان (بمعدل اسرع بكثير من الزيادة فى المدن) انخفض متوسط مساحة ملكيات الأراضى من حوالى عشرين فدانا فى عام ١٩٣٠، إلى نحو عشرة افدنة فى عام ١٩٤٤ حسب الإحصائيات البريطانية (لقد تضخمت هذه الارقام اذ شملت الضيعات الكبيرة، ولولا ذلك لكان متوسط مساحة الملكيات أقل بكثير) .

وكانت هناك أنظمة عديدة لحيازة الأرض فى فلسطين فى ظل الحكم العثمانى، فإلى جانب إستئجار الأرض من كبار الاقطاعيين، أو المؤسسات الخيرية الدينية كان «الملك» أو «الميرى» هو أهم النظم المتبعة فى حيازة الأرض، فالملك هو نظام التملك الحر وإن كان من حق الأبناء، وفقا للشريعة الإسلامية، أن يرثوا ما لايقل

عن ثلثى ممتلكات ابيهم مقسمة بين البنين والبنات بنسبة ١ :٢ ، أما الميرى فهو النظام الذى كان متبعا فى معظم انحاء فلسطين، فكانت الاراضى تعتبر، من الناحية الفنية، ملكا للدولة وتؤجر للافراد، ومن الناحية الفعلية كان المستأجرون يتمتعون بحق الملكية إذا كان بوسعهم تركها لابنائهم من بعدهم رغم انها لم تكن مسجلة بأسمائهم .

وكان تنوع الإنتاج الزراعى فى فلسطين يرجع إلى المفارقات الحادة فى المناخ والتربة من منطقة إلى أخرى، فمناخ وادى الأردن شبه استوائى وينتج التمور وبرتقال اريحا الرائع، والى جوار البحر بالقرب من يافا يزرع البرتقال الشموتى، وبين السهل الساحلى ونهر الأردن، رقعة تمتد مسافة ثلاثين ميلا، تسودها أحوال مناخية شبيهة بأحوال مناخ جبال الألب، ومن أعالى نهر الأردن فى منتصف فصل الصيف يمكن رؤية ثلوج جبل الشيخ وأشجار صنوبر الجليل، كما أن المناطق التى تنمو بها الفاكهة فى غزة لاتبعد سوى اميال من صحراء النقب أو التلال الجرداء فى جنوب القدس، هكذا يتضح بجلاء السبب فى تنوع الزراعة الفلسطينية: النبيذ من النطرون وبيت لحم، والزيتون من نابلس والجوز من جنين والقمح من اسدراليون والسمسم من حيفا واللوز من رام الله والموز من يافا والبطيخ من طولكرم، لقد تركز النشاط على الزراعة لأن مستوى تربية الماشية كان ضعيفا، وغالبا ما كانت الحمير تستورد من قبرص أو سوريا ولم يكن صوف الاغنام يصلح لغير صناعة السجاد .

وبالرغم من تنوع الفواكه والخضراوات فإن فلسطين تعد أرضا زراعتها صعبة، والأرض الوحيدة الخصبة بطبيعتها فهى السهل الساحلى ووادى اسدراليون، اما البقية فهى أساسا تلال جيرية منحدرة. وتعتمد معظم فلسطين على مياه الأمطار، فإن لم يسقط المطر تعذر وجود مصدر بديل للمياه، وإمتداداً من جبل الزيتون حتى اريحا لاتوجد أية مياه طبيعية على الإطلاق، كما يعمل المناخ ضد السكان، فحرارة وادى

الأردن المرهقة التى تصل إلى ٤٨ درجة مئوية فى الصيف لا تساعد على العمل اليدوى، كما تتعرض البلاد من حين لآخر، إلى جانب الجفاف لكوارث طبيعية اخرى مثل الزلازل ووباء الجراد، ذلك الوباء الذى يقع بصفة تكاد تكون منتظمة كل ست سنوات، أو نحو ذلك. لقد دمر الجراد فى عام ١٨٨٦ معظم أشجار الزيتون فى فلسطين .

وهناك ايضا مشكلات هى من صنع الإنسان، وفى تعليق على الكساد الإقتصادى فى عام ١٨٧٩ كتب القنصل البريطانى فى القدس يقول: «أن استنزاف جميع القادرين من الرجال للحرب الأخيرة وندرة المحاصيل ونقص الأمطار وارتفاع الأسعار وما لحق بالمئات من خسارة مدمرة نتيجة لعدم سداد فوائد سندات الحكومة التركية..: هذه العوامل مجتمعة قد اسفرت عن فقر مدقع واسع النطاق وعن كساد تجارى وصناعى .

ومضى القنصل البريطانى ليزعم بأن فساد الادارة التركية زادت من سوء هذه الأوضاع. والواقع أن المسئولين العثمانيين كانوا فى الغالب فاسدين وانصبت الضرائب على الزراعة والتجنيد الاجبارى على سكان الريف ممن يعيشون فى فقر شديد، وإبان الحرب العالمية الأولى إزداد وضع الفلاحين سوء عندما قطعت معظم غابات فلسطين واستخدمت فى الوقود، وفى ظل الإنتداب البريطانى تحسنت أحوال المعيشة بإدخال الخدمات الصحية وبداية التدريب على الزراعة، ومع ذلك كانت صرامة الاساليب البريطانية فى تحصيل الضرائب على النقيض تماما من اساليب العثمانيين غير الكفء.

ولم يتسن للفلاح الفلسطينى من أن يرتفع بمستوى معيشته فوق حد الكفاف، فقد كانت الأرض والمناخ والعثمانيون يعملون جميعهم ضده، ومع ذلك كانت

الزراعة صناعة تتسم بقدر معقول من الكفاءة، وكما ذكرت لجنة سيرجون هوب سمبسون فى تقريرها فى عام ١٩٣٠م :

«الفلاح ليس كسولا ولا يفتقر إلى الذكاء، فهو ماهر وخبير زراعى كفء، ومن المؤكد أنه لواتيحت له الفرصة لتعلم أساليب أفضل، ولو توافر له رأس المال اللازم لاستخدام تلك الأساليب لسارع فى تحسين وضعه ..... أن حرث الفلاح للأرض يرقى فوق مستوى النقد، وإعداد حقله للغرس لايقل فى مستواه عن إعداده باية معدات أافضل، بل وفى بعض الاحيان يفوقها جميعا، لكن البطء هى نقطة الضعف الوحيدة.

كانت فلسطين قبل عام ١٩٤٨ تضم أكثر من ستمائة قرية وكان عدد كبير منها يشكل مجتمعات زراعية مستقلة يتركز نشاطها فى انتاج ما يكفيها بدلا من الاهتمام بأسواق المدينة، ولما كانت معظم هذه القرى فى مناطق نائية، لم يهتم الفلاح كثيرا بتصدير انتاجه، وانحصر اهتمامه فى سد حاجته وحاجة أسرته، ومن ثم كان يزرع العديد من المحاصيل فى مساحات صغيرة، كما كان يزرعها بترتيب معين فينضج محصول بعد الآخر فيوفر، بذلك، لنفسه الغذاء على مدار السنة. وكان يخدم هذا النمط من الزراعة وجود مساحات من الأرض على ارتفاع متباين يتناسب مع حاجة الفلاح إلى تنويع محاصيله، فالخضروات والموالح تزرع فى الوديان واشجار الزيتون والوز والتين فى المنحدرات المنخفضة، وفى مساحات اعلى تزرع الحبوب والكروم وأشجار التفاح. وكان الفلاح فى فصل الشتاء يزرع محاصيل مثل القمح والشعير والعدس، وفى فصل الصيف تتنوع مزروعاته بصورة أكبر لتشمل الطماطم والشمام والسمسم .

ولأسباب صحية ومناخية وأمنية، كانت القرى تقام فوق التلال، فقد آثر العرب الحياة فى الجبال حيث يكونون فى مأمن من الملاريا ومن غارات البدو، ولم ينزلوا إلى الوديان أو السهل الساحلى الا لغرس البذور وحصد المحصول. وفى القرن التاسع عشر

عندما تحسنت الأحوال الأمنية فى المنطقة، بدأ سكان جبال نابلس يبنون مستعمرات فى الساحل ناحية الغرب، وفى نهاية القرن أصبحت تلك المستعمرات قوى مستقرة حتى وأن احتفظ سكانها بروابط وثيقة مع قراهم الأصلية بالقرب من نابلس .

وكانت القرية عادة تتمتع بالإكتفاء الذاتى إقتصاديا وإجتماعيا، مما مكنها من أن تكون مستقلة ومتميزة، فقد تولد عن صعوبة الاتصال والفوارق الحادة فى البيئة سمات فردية متميزة، فيمكن لقريتين أن تعيشا متقابلتين ولايفصل بينهما سوى واد ضيق أن يتكلم سكانها لهجتين مختلفتين ويطهون وجبات مختلفة ويرتدون ملابس متباينة، وذلك نتيجة لتقاليدهم المحلية القوية وما جبلوا عليه، وقد يمكن التعرف على احدى القرى الفلسطينية من تطريز ثوب نسائها .

أما المنازل فكانت اقل تباينا ولم تختلف الا بإختلاف المنطقة، ففى وادى الأردن وعلى إمتداد السهل الساحلى كانت المنازل تشيد من اللبن بينما كانت الأغصان والطين تستخدم فى الجليل فى بناء الجدران، وتغطية العوارض الممتدة عبر السطح، وفى المناطق الجبلية وفى وسط البلاد كانت الحجارة تستخدم فى البناء، ولما كان الخشب نادراً فى جنوب الجليل اتخذت أسقف المنازل شكل قباب من الحجارة، ومع ذلك كان طراز البناء متماثلا، وعادة ما كان بيت الفلاح يتكون من غرفة كبيرة مقسمة إلى أجزاء مختلفة وفناء، وعندما يتزوج الأبناء ويكبر حجم الأسرة كانت تبنى غرف إضافية، وفى أيام الحصاد غالبا ما كان الفلاح يترك بيته ويعيش فى الحقل فى كوخ مصنوع من الأغصان .

وتدور حياة القرية حول العائلة أو العشيرة التى لعبت فى ريف فلسطين دورا حاسما من النواحى الإجتماعية والإقتصادية؛ ففى السياسات الداخلية للقرية كانت تمارس على أساس عائلى ولاينحاز سكان القرية إلى جانب دون الآخر على اساس

طبقى أو مصلحة إقتصادية بل تبعا لموقف رئيس العائلة، وكما هو الحال فى كافة المجتمعات العربية ومجتمعات البحر المتوسط فإن العائلة يسيطر عليها الرجال، ورغم أن الابناء يظلون بدون امتلاك أية اراضى حتى وفاة ابيهم فانهم يخلفونه فى معظم ممتلكاته، وعند زواج شقيقاتهم، أو بناتهم يحصل الرجال على كل «ثمن العروس» تقريبا وإذا كان الاختيار موفقا فانه ينتظر من الشاب أن يتزوج فتاة من اقارب ابيه وعادة ما كان يعطى حق الرفض، وأن كانت العروس من غير الاقرباء فعادة ماتجئ من القرية .

في مثل هذا المجتمع الذى يفتقر إلى أى نوع من التأمين، تقع مسئولية العائلة على رئيسها، وتتعدد المسئوليات وتتراوح بين رعاية علاقات الاناث غير المتزوجات فى الأسرة وتوفير العمل لأبناء العمومة وأبناء الأشقاء والشقيقات، أما دور المرأة فى هذا المجتمع فكان دور التابع وإن كان دورا هاما ومحددا، فإلى جانب رعاية البيت وتربية الأطفال كانت المرأة تقوم بنشاط زراعى بارز، فكانت تعمل فى الحقل وتجمع المحصول فضلا عما تضطلع به من إعداد الخبز وتخزين الحبوب وحفظ الفاكهة .

لقد كانت حدود القرية بالنسبة للكثيرين هى اقصى ما يسافرون اليه، وكان شيخ البلد هو السلطة الوحيدة التى يراها الكثيرون من القرويين إلى جانب فرق التجنيد العثمانية التى كانت تزور القرية من حين إلى آخر. وكان الوالى العثمانى قبل عام ١٨٦٤ ، يعين الشيخ لحفظ النظام وجمع الضرائب فى منطقة تتكون عادة من أربع أو خمس قرى. والواقع أن هذا التعيين كان شكليا، إذ كل ما كان الوالى يفعله هو الإعتراف بقوة الرجل الأقوى فى المنطقة التى لاسيطرة حقيقية تذكر عليها للوالى نفسه، وكان الشيخ عادة هو أكبر إقطاعى فى المنطقة ورث اللقب عن أبيه أو عن أخيه الأكبر، وفى معظم الأمور كان يتصرف باستقلالية تكاد تكون كاملة عن السلطات

العثمانية، إذ كان يجمع بين الهيمنة السياسية والسلطة القضائية والعسكرية، وفى الثلاثينات من القرن التاسع عشر قوض الإحتلال المصرى سلطة الشيخ، وعندما اغيدت من جديد فلسطين داخل حدود الامبراطورية اصدر العثمانيون سلسلة من القوانين الإدارية شملت الإصلاحات التنظيمية بهدف تدعيم نفوذ الحاكم فى المناطق الريفية، وبموجب تلك القوانين جرد الشيوخ من سلطاتهم القضائية والعسكرية، وحلت محل الشيوخ شخصية اقل منه قوة هو مختار القرية، ومع ذلك ظلت مكانة الشيوخ الاجتماعية أرفع بكثير من مكانة المختار لدرجة إنهم استطاعوا الاحتفاظ بقدر كبير من سلطتهم حتى وقوع الاحتلال البريطانى فى عام ١٩١٧م .

لقد أنشئت وظيفة المختار فى عام ١٨٦٤ ، ولم تكن هذه الوظيفة وراثية بعكس وظيفة الشيخ، فكان المختار مجرد موظف مكلف بعدد من الواجبات الدنيا ولايملك أية سلطة مستقلة. وبالرغم من أنه فى ظل الحكم العثمانى، كان يشترط فى المرشحين لهذه الوظيفة أن يجيدوا القراءة والكتابة وأن يكون لديهم بعض الأملاك، نادرا ما كان المختار أفضل المتعلمين أو أغنى أفراد القرية. وفى ظل الحكم البريطانى أسقط شرط الملكية ومنح المختار راتبا حكوميا، ومن ثم اصبح أكثر إرتباطا بالسلطة مما جعله يفقد ثقة أهل القرية .

فى أواخر القرن التاسع عشر، أخذت المنافسة بين الشيخ والمختار تفقد مغزاها وبدأت السلطة تنتقل من المناطق الريفية إلى العائلات الكبيرة فى المدن ولاسيما العائلات الأرستقراطية العريقة فى القدس، وشجع العثمانيون هذا التحول إذ كانت مراقبة الاعيان فى المدن أسهل من مراقبة شيوخ الريف، بل كانوا أكثر ميلا إلى التعاون مع السلطات . ولهذا تمت ترقيتهم إلى مناصب ارفع فى داخل فلسطين وفى ربوع الامبراطورية. فعمل الفلسطينيون فى سوريا والعراق واصبح أحدهم واليا على

اليمن، بل أضحى عدد منهم نوابا فى البرلمان العثمانى. كذلك استمرت هيمنة عائلات المدينة على الشئون السياسية خلال فترة الإنتداب البريطانى ومن بين أعضاء اللجنة العربية العليا الاثنين والثلاثين خلال الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٨ لم يكن من أصل ريفى سوى أربعة أعضاء .

لم تصبح القدس أبرز مدينة فى فلسطين الا فى القرن التاسع عشر حتى وأن كانت فى عام ١٨٥٨ لاتزال، وفقا لما ذكره ادوارد لير «اقذر وأبشع مكان على وجه الأرض» وقد ترجع زيادة أهمية القدس السياسية إلى القرار الإدارى العثمانى بجعل القدس تابعة مباشرة للباب العالى العثمانى بدلا من تبعيتها لولاة صيدا أو دمشق كسابق عهدها. فهذا التطور الذى رفع من مكانة القدس إلى مستوى دمشق نفسها أكد أن المدينة أرفع شأنا من المدن الفلسطينية: يافا، ونابلس ،وغزة، وهكذا ظل أعيان القدس، حتى إنهيار فلسطين، زعماء سكان البلاد، تلك الحقيقة التى كثيرا ما أثارت استياء سكان المناطق الأخرى .

وفى الخمسينات من القرن التاسع عشر وصف القنصل البريطانى الوضع فى القدس بقوله: «مما يجدر ذكره أن رابطة متماسكة من العائلات العربية، لايعترف بها القانون وان تكن ذى نفوذ بحكم مكانتها، قد إغتصبت فيما بينها جميع وظائف البلدية. وبالرغم من وجود عائلات مسيحية عريقة مثل عائلتى القطان وعطا الله، فإن العائلات السنية الكبيرة هى التى كان لها وزن سياسى حقيقى ومن ابرزها عائلات الحسينى والخالدى والعليمى والنشاشيبى وجار الله ونسيبه. ولم تكن قوة تلك العائلات تستند إلى الثروة والممتلكات (وان وجدت عائلات مثل عائلة عبد الحديث، كانت تمتلك سبعة عشر قرية بالقرب من نابلس) بقدر استنادها على المكانة المورثة. ولما كان المفتى ونقيب الأشراف (رئيس الأوقاف) أهم منصبين فى الإدارة العثمانية لم يتولاهما

غير واحد من العائلات الكبيرة حتى وإن كان المنصبان غير وراثيين. فمنذ القرن الثامن عشر تعاقبت عائلتى الحسينى والعليمى فى تولى المنصبين، كما كانت عائلة جار الله تشغل منصب مفتى القدس من حين لآخر .

وظلت تلك العائلات حتى أواخر القرن التاسع عشر تعيش معا فى المدينة القديمة، فكانت كدليل قوى على الاستمرارية التاريخية، تقطن نفس الأماكن التى عاش فيها أجدادهم وقاموا بما كانوا يقومون به من واجبات. فمنذ القرن السابع وتقوم عائلة نسيبه بالوصاية على القبر المقدس (فمن أجل تجنب المنافسة بين الكنائس اوكلت تلك المهمة إلى مسلم) كما أنها تخصصت فى التعليم وفى الأعمال الحكومية اما عائلة جار الله فكانت أسرة دينية تولت أمور الشريعة كما انصب اهتمام عائلة الخالدى، وهى الأسرة الليبيرالية البارزة، على التعليم والشئون السياسية، ومن عائلة الخطيب خرج وعاظ وخدام المسجد الأقصى لفترة ثمانى مائة عام .

وشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحولات سريعة فى أسلوب حياة تلك العائلات، لقد كانوا حتى ذلك الوقت يعيشون فى الأحياء القديمة داخل المدينة المسورة التى قسمت بين المناطق الإسلامية والأحياء المسيحية والأرمنية واليهودية الاصغر مساحة فما لبثوا أن بدأوا، بقيادة عائلة العليمى، يخرجون من المدينة إلى البساتين وجوانب التلال المحيطة بالقدس، وكانت المنازل التى شيدوها تتألف من حجارة نابلس الخفيفة، التى يعدها بناؤو الحجر من بيت لحم، وأسطح من القرميد الأحمر ونوافذ مرتفعة على الطراز الفينيسى. وفى عام ١٨٩٩ انتقلت عائلة عطا الله مسافة ميلين ناحية الجنوب وشيدت المنازل على امتداد الطريق إلى بيت لحم، وحذت حذوها العائلات المسيحية الاخرى. اما المسلمون، امثال عائلات العليمى والسعدى وجار الله فقد آثروا الجانب الشمالى من المدينة حيث أقاموا حى الموسرارا إلى الغرب من الطريق

إلى نابلس .

كان التعليم الغربى مسئولا عن بعض التغييرات، فلقد تركت المدارس الأمريكية والبريطانية تأثيرها، ولا شك، على أفكار تلاميذها وأخلاقهم، كما كان التغيير فى الزخرفة الداخلية هو أحد النتائج المتطورة لهذا التأثير. ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت عائلة العليمى قد تخلصت من الاثاث الدمشقى الثقيل والمطعم بعرق اللؤلؤ لتحل المقاعد ذو المساند والأرائك محل المتكآت. ولقد ذكر لورنس اوليفانت فى عام ١٨٨٤ ، أن أحد الأعيان «شرع فى الأخذ بالعادات المتحضر» ، فبدأ ينام فوق سرير بدلا من الحصير كما كان يفعل أسلافه وأضاف بأن النساء، حتى الطبقات الفقيرة، أخذن يرتدين قمصان النوم كما أن مائدة وأربعة مقاعد بدأت تضاف إلى أثاث المنزل بل تقدموا إلى حد النوم على ما يشبه الأسرة.

كان طبيعيا أن يترك هذا التغيير تاثيره على الملابس فإختفاء المتكآت كان، إلى حد بعيدٍ، نتيجة إلى إرتداء السراويل والفراك الذى جعل من الصعب جلوس القرفصاء، وأشار ميجور كوندر إلى أن الثورة الغربية قد بدأت فى عام ١٨٧٢ ، ولم يمض على ذلك عقد من الزمان حتى كان المسافرون فى بلاد الشرق يشاهدون الملابس الغربية والأفكار الغربية بل واللغات الغربية. كما زعم لورنس اوليفانت انه لم يبق من اللباس الشرقى غير الطربوش الذى احتفظ به أثرياء الفلسطينيين، وأعرب فرانسيس نبوتن، بعد ذلك بعقدين من الزمان، عن أسفه لأن حتى هذا الطربوش قد حلت القبعة محله. وبنهاية القرن أصبحت بيروت، المركز الرئيسى لتوزيع الملابس الغربية، كما أخذت الأقمشة المطبوعة والمظلات النسائية والشباشب المرتفعة تنقل إلى ساحل فلسطين .

لقد كان الاقتصاد الفلسطينى يعتمد أساسا على الزراعة لافتقار البلاد إلى المواد الخام، ومن ثم لم تكن هناك فرصة لظهور طبقة كبيرة من المقاولين، وأن وجدت دائما

طائفة صغيرة من التجار تعتمد على بعض الصناعات القليلة، وبالرغم من أن الطريق البحرى إلى الهند قد أضعفها فى القرن الخامس عشر، إلا أنها ظلت قائمة بصورة متواضعة وكانت نابلس، طبقا لما ذكره س.ف. قولنى، أكثر المدن رخاء خلال القرن الثامن عشر معتمدة فى ثروتها على القمح وزيت الزيتون وكان الصابون المصنوع من زيت الزيتون يمثل دائما الصناعة الرئيسية فى فلسطين وكانت نابلس مركزا لهذه الصناعة، وأن وجدت ايضا بعض مصانع الصابون فى غزة ورام الله والجليل. كما اشتهرت غزة بنسيج القطن حيث كان يوجد، وفقا لما ذكره قولنى، نحو خمسمائة نول ولاتزال مدينة الخليل مشهورة بصناعة الزجاج .

وبالاضافة إلى الزراعة كانت المناطق الداخلية فى فلسطين مركزا للصناعات الصغيرة وللحرف التى يقوم المسيحيون بالكثير منها، وطبقا للاحصاء السكانى الذى اجرى فى عام ١٩٣٨ كان اثنان من بين ثلاثة مسلمين يشتغلون بالزراعة، حين كان مسيحى من بين سبعة مسيحيين يعمل فى هذا المجال، فالمسيحيون المتعلمون يشتغلون بالتجارة والمهن الحرة: وكان الاطباء والمحامون والصياغ والبقالون والبناءون والحدادون مسيحيين أكثر منهم مسلمين، كما شملت بعض الحرف التقليدية الاخرى التى كان المسيحيون يزاولونها (النجارة والطحن وصناعة الخزف والدباغة، وكانت العائلات المسلمة تقبل على الأعمال الحكومية التى كان من النادر أن يقوم بها المسيحيون حتى وان كان هذا الوضع قد تغير فى ظل الانتداب البريطانى .

وفى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين أخذ الفلاحون يتركون الأرض بأعداد كبيرة، وذلك فى الوقت الذى اتفق فيه شراء اليهود للأراضى الزراعية الجيدة مع زيادة سكان الريف الفلسطينين، ومن لم يستطع الهجرة التى لم تكن فرصة متاحة للكثيرين منهم بدت موانى البحر المتوسط وكأنها توفر الفرصة الوحيدة للحياة الكريمة

وكانت يافا وحيفا هدفين رئيسيين، وبحلول عام ١٩٣٥ نشأت مدن كبيرة من الأكواخ خارج هاتين المدينتين. وأصبحت يافا ميناء هاما بعد عام ١٨٦٤ عندما زود الميناء بفنار ومكان انزال، وازدادت أهميتها فى عام ١٨٩٢ بافتتاح الخط الملاحى مع ليفربول، ومع ذلك ظل الميناء يفتقر إلى العمل بكفاءة، فقد كان مليئا بالصخور بالدرجة التى تحتم معها نقل الركاب فى قوارب صغيرة إلى الشاطئ. أما ميناء حيفا فكان المنافس الوحيد بعد أن تدهور ميناء عكا، وصار قلعة مهجورة، وإبان حكم السلطان عبد الحميد (١٨٧٦- ١٩٠٩) إزداد سكان كل من حيفا ويافا زيادة كبيرة، وتعززت مكانة حيفا بفضل مشروعات التنمية إبان فترة الانتداب. وكانت غزة ثالث ميناء من حيث الاهمية. فبينما ركزت يافا على تصدير الصابون والبرتقال والسمسم كانت غزة المنفذ الرئيسى لتصدير ما كان يزرع من حبوب حول الخليل وسبع فضلا عن أنها كانت من الموردين الرئيسيين للشعير لصناعة الجهة الالمانية فى القرن التاسع عشر .

كذلك أخذت وسائل المواصلات تتحسن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فشبكة الطرق التى مدها الرومان فى الأصل تم توسيعها، وفى عام ١٨٦٧ افتتح الطريق الذى يربط بين القدس ويافا لتتبعه طرق فى نابلس والجليل حتى أن لورنس اوليفانت الذى يصعب إرضاؤه كتب فى عام ١٨٨٥ يقول: «إننى أعتبر الطريق الممتد من القدس إلى اريحا فى الوقت الحالى آمنا كبرودواى فلا تقع به أية حوادث فى النهار »كذلك بدأوا فى انشاء خطوط السكك الحديدية، وفى عام ١٨٩١ أكمل الخط الحديدى الممتد من يافا إلى القدس، كما تم مد خطوط أخرى من حيفا فى سنوات لاحقة .

أما البدو فكانوا قبل عام ١٩٤٨ ، على هامش الحياة الإجتماعية والإقتصادية فى

فلسطين، ومع ذلك فهم عرب فلسطينيون «وبالرغم من أن الاوربيين كانوا يبجلون حياة البدو على حساب العرب المستقرين (فى الصحراء وحدها يعيش العربى الحقيقى) ملاحظة يرددها السافرون الانجليز. الا ان تلك الحياة كانت أقل رومانسية مما تصورته نساء عصر الملك ادوارد، فلم يكونوا على اتصال ببقية السكان، وتباينت أساليب حياتهم، وكانوا يعيشون اما فى كهوف أو فى خيام من شعر الماعز الأسود حيث يمضون حياتهم على حافة الصحراء، أما علاقتهم بغيرهم من الفلسطينيين فكانت ضعيفة، ولم تكن كما يرى الفلاحون علاقات طيبة، فكانت قرى الفلاحين تقام فوق قمم التلال وليس فى الوديان الخصيبة لسبب رئيسى هو سهولة حماية أنفسهم من البدو المغيرين بحثا عن الطعام. وكثيرا ما اضطر الفلاحون على أن يدفعوا لاحدى القبائل أجرا لحمايتهم من القبائل الأخرى. ومن أجمل الأغانى الفلسطينية رثاء فتاة ريفية اختطفها البدو .

وعاشت جماعات صغيرة من البدو عند أطراف الأراضى المزروعة فى شمال فلسطين، ولم تتركز حياة البدو فى الجليل على الجمال (كما هو الحال فى الجنوب) بل على الأغنام والماعز وبصورة أقل على الجاموس، وكانت هذه الجماعات الشمالية تتحدث لهجة عربية خاصة وكان بعضها من أصل كردى وتوركمانى، ولكن السواد الأعظم من بدو فلسيطن يتركز فى صحراء النقب الخفة بسيناء والأردن والبحر الاحمر، ويعرف هؤلاء بقبائل غزة وقدر عددهم ابان الانتداب البريطانى بما يتراوح بين ٦٠ و ٨٠ ألف نسمة. وبالرغم من وجود قبائل بدو فى صحراء النقب منذ القرن الخامس ظل حجمهم صغيرا وأهميتهم محدودة حتى وقوع هجرات جديدة أيام الغزو العثمانى لفلسطين بعد الف سنة. وحاول الاتراك توطين البدو فى المجتمعات الزراعية لكن دون جدوى، وواصلت القبائل الرئيسية -قبيلة «التياها» بفروعها الثمانية والعشرين «والتيرابين» بفروعها الخمسة والعشرين- حياة البدو حتى نشوب الحرب العالمية

الاولى، ثم حدث تغيير جذرى فى أسلوب حياتهم لا كنتيجة للحكم البريطانى بل نتيجة للتغييرات التقنية التى قللت من عدد البدو فى جميع انحاء العالم، فقد وجدت اعداد كبير من رجال القبائل نفسها مضطرة إلى ممارسة عمل زراعى دائم عندما انهارت دعائم الاقتصاد البدوى، فاستخدام العربة قض على اهم الانشطة البدوية وهى تربية الجمال والخيل، واشار مفوض بئر سبع ابان الانتداب البريطانى إلى أن الجمل الذى كان يتراوح ثمنه بين عشرين وثلاثين جنيها فى عام ١٩١٤م لم يزد سعره عن ثلاثة جنيهات بعد ذلك بعشرين عاما .

الفصل الثانى

ظهور الشخصية القومية

تساءل ليفى اشكول، رئيس وزراء إسرائيل فى أواخر الستينات، ماهى حقيقة الفلسطينيين!؟ «لم يكن سؤالا بريئا صادرا عن عقل يبحث عن الحقيقة، ولم يكن اشكول ينتظر فى لهفة ردا، لأن السؤال كان قد طرحه من قبل مرارا الزعماء الإسرائيليون فى محاولة منهم لرفض مطالب الشعب الفلسطينى. ولما أراد انشتين معرفة ما سوف يحدث للعرب إذا ما نجحت المخططات الصهيونية، أجاب وايزمان فى سخرية: أى عرب؟ ليست لهم أهمية تذكر[1]. أن الموقف الصهيونى الدائم هو: ليس للفلسطينيين أهمية وفى سبيل اقناع غيرهم بهذا الموقف تعين على جولدا مائير ورفاقها ان يزعموا بأنه لاوجود للفلسطينيين فى واقع الأمر، وحتى لو ارغم الإسرائيليون على الاعتراف بوجود الفلسطينيين كبشر، فانهم لايعترفون بهم كفلسطينيين بل كعرب، هذا هو السبب الذى حمل ابا ايبان فى سيرته الذاتية على أن يضع كلمة الفلسطينيين بين الاقواس ويصر الصهاينة على أن الفلسطينيين لايشكلون امة وانه لا يمكن فصلهم عن عرب الهلال الخصيب، كما يعلنون أن فلسطين كيان اصطناعى خلقه البريطانيون الذين «ابتدعوا» الفلسطينيين فى عام ١٩٢٥ عند اعادة تسمية سكان الامبراطورية العثمانية القديمة، ويردد الصهاينة بأن لفظ «سوريا» كان حتى الحرب العالمية الاولى، يشمل المناطق المعروفة الآن باسم لبنان والأردن وفلسطين، ويشيرون إلى أن معاهدة لندن فى عام ١٨٤٠ تشير إلى منطقة عكا (فى شمال فلسطين) بجنوب سوريا .

ويقيم الصهاينة مزاعمهم على أساس ما كان قائما فى سنوات انهيار الامبراطورية العثمانية حين كان أحد الأسس الهامة فى السياسة التركية هى عدم تشجيع الولاءات الأقليمية، لقد كان تفكك الامبراطورية العثمانية على المدى البعيد

حتميا لأن الدول الغربية لم تستطع كبح جماح أطماع كل منها الأخرى فى دول البلقان والشرق الاوسط، لكن السياسة الحكيمة التى انتهجها السلطان عبد الحميد فى المناطق الغربية الخاضعة له ابطأت عملية التفكك، وفى محاولة منه لتأكيد تطابق المصالح بين الاتراك والعرب أقام المساجد والمدارس فى جميع أنحاء سوريا والشرق، وامر بانشاء خط الحجاز الحديدى، وفى عام ١٨٨٧ ، انتخب المجلس النيابى الذى سرعان ما أغفل، ثم انتخب آخر فى عام ١٩٠٨ وثالث فى عام ١٩١٢ بعد خلع السلطان، وجاء النواب من جميع أنحاء الامبراطورية، نصفهم من الأتراك والربع تقريبا من العرب والبقية من الألبانيين واليونانيين والأرمن وعن طريق اظهار أنفسهم بمظهر حكام الامبراطورية المتعددة الجنسيات االذين يمنحون السيادة السياسية وحق التمثيل النيابى للأقليات الخاضعة لهم، استطاع عبد الحميد وخلفاؤه من تمديد عمر حكوماتهم ،بالرغم من أن فساد العثمانيون ومطالبهم الخاصة بالتجنيد ونظامهم الضرائبى أثار قدرا من الاستياء فى فلسطين، فإن الأتراك لم يواجهوا كراهية شعبية حتى نشوب الحرب لعالمية الاولى، ولاغرابة فى أن الكثيرين من الفلسطينيين الطاعنين فى السن ينظرون لى العهد العثمانى بحنين وخاصة فى ضوء ما مروا به فى عهود لاحقة. ويذكر موسى لعليمى، وهو من أبرز الشخصيات الفلسطينية فى جيله، أن العرب كانوا يعتبرون لأتراك شركاء وليسوا قاهرين. وكانت الحاميات العثمانية صغيرة والمعارضة الشديدة ادرة، وفوق هذا كله كان يحكم فلسطين إلى حد كبير مسئولون فلسطينيون ويزعم وسى العليمى «ان درجة الحرية والحكم الذاتى فى فلسطين كانت أعظم منها فى كثير من الاقليم التركية»(٤) .

أما حركة القومية العربية، التى قضت بالاشتراك مع الجيش البريطانى على لامبراطورية العثمانية فكانت فى بدايتها قوة ثقافية وإن كان هناك أى محتوى سياسى ى الشعور العربى القومى فى نهاية القرن التاسع عشر، فكان موجها ضد التدخل

الغربى فى العالم العربى وليس ضد الأتراك. وفى غضون العقد التاسع من القرن التاسع عشر قدم القنصل البريطانى فى القدس تقريرا حول الشعور القومى المعادى لبريطانيا اثناء الحملات ضد «عرابى فى مصر والمهدى فى السودان»، ومن ذلك لم تكن ثمة قلاقل سياسية تذكر ضد العثمانيين .

كانت القومية العربية، التى بدأت كحركة فكرية، تعمل على نشر الوعى العربى عن طريق احياء الثقافة العربية وخاصة اللغة العربية، وتجمع المفكرون فى جمعيات مثل الجمعية العلمية السورية وجمعية الفنون والعلوم، وعلى الرغم من أن تلك الجمعيات أدت إلى قيام المزيد من المنظمات السياسية انحصرت المعارضة للامبراطورية العثمانية حتى نشوب الحرب العالمية الاولى فى الدوائر الفكرية .

وكان عدد الفلسطينيين الأعضاء فى جمعيات تهدف إلى الاطاحة بالأتراك قبل عام ١٩١٤ يعد بالعشرات، ويتذكر احمد طوفان وهو فلسطينى من نابلس، وأصبح وزيرا لخارجية الأردن، العثمانيين بوضوح تام ويذكر انه لم تكن هناك أية حركة شعبية ضد الاتراك حتى بعد نشوب الحرب، ويعتقد انه لولا الاجراءات القمعية التى اتخذها الحاكم التركى ضد قادة الحركة الوطنية لما شهدت سوريا وفلسطين انتفاضة عربية، وحتى بعد إعدام عدد كبير من القوميين فى بيروت ودمشق أحجم الكثيرون من الفلسطينيين وخاصة من القدس عن تغيير ولائهم وبعد أن فرضت بريطانيا وفرنسا سيطرتهما على الشرق الاوسط فى أوائل العشرينات، طالبت جماعة كبيرة من الفلسطينيين، من بينهم أعضاء من معظم الأسر الكبيرة فى القدس بعودة الحكم التركى .

ولما بددت الحرب الأمل فى عودة الأتراك عاد الفلسطينيون للقومية العربية، وادراكا منهم بالخطر الذى يتهددهم من جانب القوى الغربية ولاسيما من الحركة

لصهيونية التى ربطت بريطانيا نفسها بها، طالبوا باستقلال العرب وبالوحدة مع سوريا، وفى تقرير للجنة الأمريكية التى بعث بها الرئيس ويلسون إلى الشرق الاوسط جاء: «أن العرب من مسلمين ومسيحين يرغبون فى الاحتفاظ بوحدة بلادهم مع سوريا فهم يعتبرون فلسطين من الناحيتين التاريخية والجغرافية جزء منها .

وبينما كان الفلسطينيون ينتظرون أن تفى بريطانيا بوعادها التى قطعتها لشريف مكة ابان الحرب، فانهم كانوا يتطلعون إلى الارتباط بالدولة العربية الموعودة، وعندما بات واضحا أن الشرق الاوسط سوف يقسم وأن فرنسا سوف تستولى على سوريا بأى حال، شرع الفلسطينيون يركزون نضالهم ضد بريطانيا والصهيونية، ولم يكن هناك حتى عام ١٩٢٠ شعور شعبى ازاء مصير فلسطين، فلم يكن الشعب الفلسطينى يعتبر نفسه منفصلا عن بقية العرب، اما اولئك الذين كانوا يعيشون فى سنجق القدس ويعتبرون القدس عاصمة لهم، ربما كان لديهم شعور بالكيان أو بالشخصية الثقافية والاقتصادية المستقلة إلى جانب الانتماء السياسى لاسطنبول، ومع ذلك كانت هناك روابط ربطت الفلسطينيين دوما وجعلت منهم كيانا متميزا إلى حد ما عن جيرانهم .

لقد وجد إسم فلسطين على سبيل المثال بصور متباينة منذ عهد الاغريق وكلمة (PALAESTINE) اليونانية اصبحت PALAESTINE فى اللاتينية ثم فلسطين فى العربية، فعبر كل هذه العصور وحتى الحقبة العثمانية كانت فلسطين وحدة ادارية مقسمة إلى مناطق اصغر، وفى ظل الهيمنة التركية ابقى على السنجقيات منفصلة بوجه عام حتى وان اصبحت مناطق نابلس وغزة لفترة وجيزة فى العقد السادس من القرن التاسع عشر جزء من سنجق القدس. وأسهمت عوامل اخرى فى بروز الشخصية الفلسطينية مثل الاحتفالات الدينية فى النبى موسى التى كان يحضرها المسلمون من كافة أنحاء فلسيطن والسلطة القضائية للجماعات المسيحية التى وضعت فى اعتبارها الحدود

التاريخية لفلسطين، هذا بالاضافة إلى جعل القدس فى عام ١٩١٠ مركزا قانونيا بوجود محكمة الاستئناف الخاصة بها وتأسيس صحيفة فلسطين فى يافا بعد ذلك بعام واحد. وزيادة على ذلك فان اوروبا وامريكا كانتا تعتبران فلسطين وسكانها بوجه عام كيانا متميزا عن جيرانه. وفى عام ١٨١٥، نشر ماكسيم ويكامب، رفيق فولبريت فى السفر، كتاب صدر تحت عنوان «مصر والنوبة وفلسطين وسوريا» وفى عام ١٨٧٦ صدر دليل بعنوان «فلسطين وسوريا» وفى وقت لاحق اثناء المراسلات الشهيرة بين تيودور هرتزل والسلطان عبد الحميد، اشار الرجلان بنوع الخصوص إلى فلسطين، ولم يكن لدى أى منهما، فيما يبدو، شك عما يتحدثان .

وكان واضحا عندما بدأت اوروبا فى تصفية الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى، انها تعتبر فلسطين كيانا متميزا من حقه أن ينال الاستقلال فى نهاية المطاف، وفى عام ١٩٢٢ منحت عصبة الامم بريطانيا حق الانتداب على فلسطين، وكما جاء فى المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم، فإن الانتداب يستند إلى مبدأ حق تقرير المصير والاعتراف المؤقت بالشعب الفلسطينى كأمة مستقلة، «أن بعض المجتمعات التى كانت تنتمى سابقا للامبراطورية التركية (أى سوريا والعراق ولبنان وشرق الاردن وفلسطين) قد بلغت مرحلة من التنمية يمكن من الاعتراف المؤقت بوجودها كأمم مستقلة فى حاجة إلى المشورة الادارية ومساعدة دولة انتداب حتى يأتى الوقت الذى تتمكن فيه من الوقوف بمفردها .

والقومية بين الفلسطينيين لم تبرز، شأنها شأن شعوب أخرى، الا بوجود تهديد خارجى. فالحركة الصهيونية التى نشطت فى فلسطين ابان السنوات الأخيرة للامبراطورية العثمانية كانت، تمثل بلاشك، هذا التهديد، ومن ثم كانت مسئولة جزئيا عن نمو القومية الفلسطينية، ففى بداية هذا القرن إتسع نطاق المعارضة للصهيونية

مع تطور الاحتكاك بين الفلاحين الفلسطينيين والمستعمرين الصهاينة الذين كانت تمولهم اسرتى روتشيلد والبارون دى هرستش، وازداد هذا الاحتكاك بزيادة الهجرة اليهودية، وبالرغم من أن جماعة اليهود الشرقيين الصغيرة فى فلسطين كانت دائما على علاقات طيبة مع العرب، فإن المهاجرين الجدد كانوا من يهود اوروبا الذين لم يحاولوا قط الاندماج فى المجتمع القائم، فرفضوا تعلم اللغة العربية، وقاطعوا، كمبدأ، المحال التجارية العربية والعمال العرب، فكان الصهاينة يهدفون إلى اقامة مجتمعهم الخاص، ولم يكن يعنيهم غير هذا الهدف واعرب مراسل الصحيفة الصهيونية الرئيسية فى فلسطين «هاعولام» عن اسفه فى وقت مبكر فى عام ١٩١١ حين قال: لقد نسينا تماما ان هناك عربا فى فلسطين ولم نكتشف وجودهم الا فى السنوات الاخيرة.. ولم نعرهم أى اهتمام، بل ولم نحاول قط ان نختار من بينهم اصدقاء .

لقد أصبحت الصهيونية بالنسبة للعرب قضية سياسية، قبل الحرب العالمية الاولى بوقت قصير، فقد ناقشها البرلمان العثمانى، وطرحت فى الصحافة، كما ان تأثيرها على الرأى العام العربى جعلها قضية انتخابية فى عام ١٩١٤ حين تعهد راغب النشاشيبى أحد المرشحين الفائزين فى القدس قائلا: لو اننى انتخبت نائبا لبذلت قصارى جهدى وعملت ليل نهار من أجل القضاء على الخطر الذى يتربص بنا من جانب الصهيونية والصهاينة، وخلال السنوات الاخيرة للامبراطورية ساد بين العرب الوعى بخطر الصهيونية وأدراك مطمعها النهائى. وذكر احد القوميين الفلسطينيين فى يومياته «لولا سعى الحركة الصهيونية لبناء وجودها على أنقاض شعب آخر، لما مقتها».

هكذا اصبحت اعداد متزايدة من الفلسطينيين واعية بالخطر الصهيونى، وفى العقد الثالث من القرن التاسع عشر، بات المخطط الصهيونى واضحا بجلاء للسواد الاعظم من الناس بالرغم مما قام به وايزمان ورفاقه من محاولات اخفاء اهدافهم، وعلى

أية حال كانت هذه الاهداف مسجلة ويمكن لمن اهتم بها الاطلاع عليها. ففى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ زعم هرتزل أنه أسس الدولة اليهودية حتى وان حاول واحد من خلفائه «أن يجد اسلوبا غامضا للتعبير عما نريد بشرط ان يكون بطريقة تساعد على تجنب اثارة الاتراك الذين يسيطرون على الارض التى نشتهيها». وفى وقت صدور اعلان بلفور، عندما كان الزعماء الصهاينة لايتحدثون جهارا الا عن الوطن القومى، كانوا يرسمون بشكل سافر حدود دولتهم المستقبلة، فكتب صهيونى امريكى بارز فى عام ١٩١٩ «أن دولة فلسطين اليهودية حقيقة واننا نقوم الآن بتحديد حدود الدولة .

وأعلن إسرائيل زانجويل، احد انبياء الصهيونية، فى نفس العام «لابد من ان يمتلك اليهود فلسطين، كما يمتلك العرب شبه الجزيرة العربية، او يمتلك البولنديون بولندا» .

وبالرغم من كلماته المعسولة لوزارة الخارجية البريطانية، فإن وايزمان نفسه لم يستطع الادعاء إلى اجل غير مسمى أن كل ما يهدف اليه هو اقامة وطن قومى بدون أى مغزى سياسى، ففى برقية بعث بها إلى زميل فى بداية عام ١٩١٩ أعرب وايزمان عن أمله فى أن تتشكل الادارة الفلسطينية بأكملها على النحو الذى يجعل فلسطين كومنولث يهودى تحت الوصاية البريطانية «وسؤ الحظ رأى لورد كرزون البرقية وتساءل» ما معنى كومنولث؟ لقد بحثت فى معاجمى فوجدت انها تعنى «دولة» «وجهاز سياسى» و «جماعة مستقلة» «وجمهورية».... إذا ما فائدة أن نغلق اعيننا عن حقيقة أن هذا هو ما يهدف اليه الصهاينة وان الوصاية البريطانية ليست سوى ستار يختفون وراءه لتحقيق هذه الغاية؟ وتصبح المسألة اشد سوءا عندما يقول وايزمان لصديقه شيئا ويعلن للرأى العام شيئا آخر» .

وفى نفس اليوم كتب كرزون إلى بلفور يقول «اننى على يقين تام من ان

وايزمان يقول شيئا لك او بينما انت تقصد شيئا معينا بالوطن القومى فانه يهدف إلى تحقيق شئ مغاير تماما، فهو يتطلع إلى اقامة درل «يهودية وامه يهودية وسكان تابعين من الغرب يخضعون لحكم اليهود، والى يهود يمتلكون اجود الاراضى ويتولون الادارة».

كان هذا استنتاجا شاركه فيه سياسيون ومسئولون آخرون، فالجنرال سير لويس بولز، كبير الاداريين فى بداية الانتداب، شكى من «انه يستحيل ارضاء الانصار الذين لايطالبون بأكثر من وطن قومى، لكنهم فى الحقيقة لايرضون بأقل من دولة يهودية وبكل ما تنطوى عليه سياسيا».

إذا كان هذا هو هدف الصهاينة فما هو الدور الذى تصوروه لسكان البلاد من الفلسطينيين؟ ومرة اخرى نقول انه بمجرد ازاحة قناع الخداع تبدو الاجابة على السؤال واضحة. حدث مرة ان اخبر وايزمان، فى لحظة فقد فيها سيطرته على عواطفه، جمهور من الانجليز ان الصهانية «سوف يقيمون فى فلسطين نوع المجتمع الذى يجعلها يهودية بقدر ما انجلترا انجليزية وأمريكا أمريكية» فما تأثير هذا على الفلسطينيين؟ لقد قدم هرتزل الجواب على هذا السؤال قبل ذلك بعشرين عاما أو يزيد حين قال: سوف يصادر الصهاينة فى هدوء الممتلكات العربية وسوف يعملون على تشجيع السكان الفقراء على عبور الحدود بتوفير عمل لهم فى الدول التى يعبرون إليها مع حرمانهم من أى عمل فى بلادنا .

وكان حمل السكان على ترك البلاد أو طردهم عبر الحدود يحتل مكان الصدارة فى جدول أعمال وايزمان، ففى عام ١٩٣١ ، أوضح للمندوب السامى فى القدس أنه يرغب فى توطين الفلسطينيين فى شرق الأردن. وبعد ذلك بسبع سنوات عندما أوصت لجنة بيل بتسليم الجليل بغالبيته العربية إلى الدولة اليهودية، ابلغ وايزمان سكرتير

الاستيطان أنه على إستعداد أن يعاون بريطانيا فى نقل العرب من الجليل عبر نهر الأردن .

بل كان بعض الصهاينة أكثر صراحة فيما بينهم على الأقل، فكتب جوزيف فيتز المكلف بمهام توطين اليهود فى عام ١٩٤٠ ، يقول:

ينبغى أن يكون واضحا فيما بيننا انه لامجال للشعبين ان يعيشا معا فى هذه البلاد... وسوف لانستطيع تحقيق هدفنا كدولة مستقلة مع وجود العرب فى هذه البلاد الصغيرة، والحل الوحيد هو قيام فلسطين على الاقل فلسطين الغربية (غرب نهر الاردن) بدون عرب.. وليس هناك من طريقة سوى نقل العرب من هنا إلى الدول المجاورة، نقل العرب جميعهم، دون ترك قرية واحدة أو قبيلة واحدة .

وأكد صهيونى بريطانى، رائد بحرى، ج.م كنورثى، عضو البرلمان هذه السياسة؛ ففى مناقشة أجراها المعهد الملكى للشئون الدولية فى شهر يناير عام ١٩٣١ ، دعت إلى توسع يهودى اكبر، وتساءل: «لماذا لا يسمح لليهود بالاستيطان فى شرق الأردن، وهى، منطقة خصبة مخلخلة السكان يجب السماح باستيطانها كما استوطن الأمريكيون الارض الواقعة غرب بنوانجلاند؟ «واذا واجهوا أى عدوان فانه بوسعهم الدفاع عن الهنود الحمر.ولا حاجة بنا الى القول بأن اهتمام كنورثى بمصير العرب الفلسطينيين قدر اهتمامه بمصير قبائل الهنود الحمر.

وبينما لم يدرك الفسطينيون إلى حد كبير تعقيدات الدبلوماسية الصهيونية فى الغرب، كان هناك ما يمكنهم من الالمام بما يجرى من الأدلة الكافية الدامغة، هذا فضلا عن أن القليلين من الصهاينة حاولوا إخفاء نواياهم، فهناك فقرة واسعة الانتشار كتبها سير الفريد مونت (لورد ملشات فى وقت لاحق) يقول: «ان اليوم الذى سوف يعاد فيه بناء الهيكل (هيكل سليمان) فى مكان المسجد الاقصى .

وحيث أن المسجد هو اقدس مكان اسلامى خارج شبه الجزيرة العربية، استبد القلق بالفلسطينيين، ولديهم ما يبرر قلقهم ازاء مصير أماكنهم المقدسة، ولقد زودوا طيلة فترة الإنتداب بمؤشرات عن المخطط الصهيونى ففى طبعة ١٩٢٦، لدائرة المعارف البريطانية جاء أن «اليهود يتطلعون إلى نداء إسرائيل.. واسترداد الدولة اليهودية». وفى طبعة سابقة (١٩١٩)، اوردت العلم الوطنى اليهودى على انه علم دولة فلسطين وعندما طلب تفسير لذلك اعترف المحرر بأن «استنتاجه كان سابقا لأوانه إلى حد ما». وفى عام ١٩٤٥، كادت أن تقوم المظاهرات فى مدرسة «فرندزاند بويز» فى رام الله عندما أهدى القنصل الأمريكانى إلى مكتبة المدرسة نسخة من دائرة معارف كومبتون التى اعتبرت نجمة داود هى العلم الفلسطينى .

أما أكثر المظاهر مدعاة للحيرة من وجهة النظر الفلسطينية فكانت الطريقة التى تمكن بها الصهاينة من تحقيق استقلالهم عن الحكومة وعن المجتمع الاصلى. فحتى فى ظل العثمانيين سجل الصهاينة مكاسب عديدة فقد بدأوا فى انشاء مدارسهم الخاصة واقاموا مصرفهم الخاص ومحاكمهم المدنية الخاصة، وما أن وضعت الحرب اوزارها حتى أسسوا حركة الكيبوتز، وانشأوا الجامعة العبرية واتحاد العمال العبرانيين، وبحلول عام ١٩٢٠، كان الصهاينة قد وضعوا اطارا لمجتمع منغلق على نفسه مما اثار غضب العرب وخيب آمالهم، لقد عدد سير لويس بولز اسباب استياء العرب فى رسالة بعث فى عام ١٩٢٠ قال: «أن ادخال اللغة العبرية كلغة رسمية، واقامة نظام قضائى يهودى وتكوين اللجنة الصهيونية التى كان العرب على بينة منها وامتيازات السفر الخاصة التى كان يتمتع بها اعضاء اللجنة الصهيونية الأمر الذى اقنع بشكل حاسم وقاطع العناصر غير اليهودية (أى العرب) بتحيزنا، وفى نفس الوقت ذكرت لجنة استطلاع بريطانية أوكل اليها مهمة التحقيق فى اضطرابات يافا التى وقعت فى العام السابق «أن السبب الرئيسى لاعمال الشغب فى يافا وما تبع ذلك من اعمال العنف

هو استياء العرب الممتزج بالعداء لليهود لأسباب سياسية واقتصادية والمرتبط بالهجرة اليهودية وبتصورهم للسياسة الصهيونية، ذلك التصور المستمد من المفسرين اليهود .

وبما أن العداء اليهودى – الفلسطينى يدور، فوق كل شئ، حول مسألة الأرض، كان طبيعيا أن تطغى هذه المسألة على ما عداها من مسائل. وكان بيع الاراضى لليهود قد بدأ قبل الحرب العالمية الاولى بتشجيع سرى من السلطات العثمانية التى كانت تأمل فى أن تجذب رأس المال اليهودى إلى اقتصادها المنهار. وتركزت تلك المبيعات أساسا فى الوديان الخصيبة فى الشمال وعلى امتداد السهل الساحلى، وفى غضون العشرينات من القرن العشرين واصل الصهاينة شراء الأراضى فى تلك المناطق آخذين فى التوسع حول خليج حيفا وكذلك فى الجليل، وكانت اكبر صفقاتهم مع عائلات سرسوك وطيان فى بيروت التى كانت تمتلك ضيعات واسعة فى وادى اسدرالون ووادى حواريث، وكان الاقطاعيون غير الفلسطينيين الذين يعيشون بعيدا عن الارض هم الذين باعوا مساحات كبيرة من أكثر الاراضى خصوبة فى فلسطين، وطبقا لما ذكره الدكتور روبين من الوكالة اليهودية فان ٩٠٪ من جميع الاراضى التى تم شراؤها قبل عام ١٩٢٩ كانت ملكا للاقطاعيين غير المتواجدين .

وبعد أن تم شراء اراضى تجار بيروت الذين كانوا قد اشتروها كعملية استثمارية عقب قانون الاراضى العثمانى لعام ١٨٥٨ ، تحول الصهاينة إلى مكان آخر وكان احد الاهداف المناسبة اراضى البطريركية الارثوذكسية الشرقية التى كانت تعانى من كارثة مالية عقب الثورة البولشيفية عام ١٩١٧ . فبعد أن جردت من ممتلكاتها فى داخل روسيا وحومت من الهبات التى كانت الكنيسة الروسية تبعث بها اليها واضطرت البطريركية إلى بيع الكثير من ممتلكاتها فى فلسطين لتستمر فى الوفاء بالتزاماتها، كذلك كانت الطبقة الارستقراطية الفلسطينية ذاتها هدفا آخر، وبينما كان افرادها

يلومون بشدة أى شخص يبيع أرضا للصهاينة بل وكونوا هيئات مثل «الشركة العربية لاستعادة الاراضى فى فلسطين» كان بعضهم يبيع سرا اجزاء من ممتلكاتهم الخاصة. وكما ذكر القنصل الالمانى فى القدس بطريقة جافة فى عام ١٩٣٣ ، فإن الزعماء العرب «كانوا يصرخون فى النهار ضد الهجرة اليهودية، وفى ظلام الليل يبيعون الارض لليهود .

وابتداء من مبيعات الأرض الأولى فى عام ١٨٧٨م وحتى نشوب الثورة الفلسطينية فى عام ١٩٣٦م، حصل الصهاينة على ما يزيد عن نصف اراضيهم من ملاك الأراضى غير المتواجدين والربع من الاقطاعيين الفلسطينيين ومعظم الباقى من الكنائس والشركات الاجنبية. وجزء صغير يقل عن العشر قد تم شراءه من الفلاحين الذين فرضت عليهم عمليات البيع فى معظم الحالات، فعندما اغلق البريطانيون المصرف الزراعى الخاضع لاشراف العثمانيين حالوا دون حصول الفلاح على أية قروض ومن ثم ارغم اما على بيع جزء من اراضيه لتنمية الجزء الباقى أو الالتجاء إلى المرابين الذين كان من المحتمل أن يطالبوا بفائدة تصل إلى حوالى ٣٠ فى المائة، وهو معدل للفائدة يستحيل على معظم الفلاحين الوفاء به. ومن ثم لم يكن امام الفلاحين فى حالات كثيرة، من اختيار سوى بيع اراضيهم وهذا ما اوضحه سير جون تشانسلور، المندب السامى، فى رسالة بعث بها إلى الملك جورج الخامس فى مايو عام ١٩٣٠ جاء فيها: «ليسوا (أى الفلاحين) احرارا فى هذا الأمر، فهم فقراء بصورة مؤلمة ومدينون بشدة للمرابين المستغلين، وعندما يضغط عليهم الدائنون ويظهر فى الافق سمسار الاراضى اليهودى وفى يده المال، لايجد العرب امامهم من بديل سوى بيع اراضيهم لتسديد ما عليهم من ديون .

لقد قام هدف الصهيونية ومبرراته (ويتلخص فى شعار زانجويل «ارض بلا شعب

وشعب بلا أرض» على مغالطة كبرى منذ البداية، فلم تكن الارض بلا شعب فى يوم من الايام، فحتى فى عام ١٨٩١م كتب اليهودى الروسى، آشر جنسبرج، انه كان من الصعب ايجاد أى اراضى غير مزروعة فى فلسطين. وبعد ذلك باربعين عام رفع سيرجون هوب سمبسون تقريرا إلى حكومته ذكر فيه أنه لاتوجد اراضى زراعية. حتى لسكان الريف العربى. وكما ابلغ سير جون تشانسلور الملك فإن «الحقائق الخاصة بوضع الأراضى هى أن جميع الأراضى المنزرعة فى فلسطين أصبحت اليوم محتلة، وليس هناك مزيد من الأرض يمكن بيعه لليهود بدون طرد المزارعين العرب وخلق طبقة من الفلاحين الذين لايملكون أية أراضى، وهى عملية قد بدأت فعلا .

ولم يمض على ذلك عام واحد حتى كتب بصورة أكثر الحاحا يقول: «لقد أضحت فلسطين الآن مليئة بالسكان وبدون انتهاك ذلك الجانب من الانتداب الذى يتطلب منا حماية حقوق الجماعات غير اليهودية المتواجدة لايمكن السماح لمزيد من اليهود أن يدخلوا البلاد. فلو سمح بهجرة اليهود على نطاق واسع، فاننا بذلك نفرض على البلاد بالقوة البريطانية سكانا أجانب يبغضهم سكان البلاد الاصليون .

وفى عام ١٩٣٠ ، أكد تشانسلور «الحاجة إلى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بضمان عدم طرد المزارعين العرب من أرضهم عن طريق بيعها لليهود» كان هذا، فى الواقع جوهر المشكلة لأنه فى حين كان الفلاحون يتمسكون بالأرض التى يمتلكونها لم تكن لهم أية سيطرة على الأرض التى كانوا يستأجرونها، ومن ثم كان الفلاحون هم الخاسرون فى الصفقات الضخمة التى كانت تعقد بين الصهاينة وملاك الاراضى، فاليهود استولوا على الأرض والاقطاعيون قبضوا المال ولم يعر أحد أى اهتمام بمضير المستأجرين. فعندما باعت عائلة سرسوق اللبنانية ٦٠ ألف فدان فى وادى اسدراليون فى الفترة ما بين ١٩١٢، و ١٩٢٥، حصلت على قرابة ثلاثة أرباع المليون من

الجنيهات وانطلقت فى غبطة إلى بيروت، وقد سويت بالارض احدى وعشرون قرية عربية وطرد سكانها البالغ عددهم ثمانية آلاف نسمة، ومع زيادة أوامر الطرد خلال السنوات التالية استخدمت الشرطة البريطانية للقيام بطرد القرويين من ديارهم، ولم يحدث قط أن أتيحت لهم الفرصة للبقاء كمستأجرين من الملاك الجدد، اذ حالت المنظمات الصهيونية دون ذلك بصورة سافرة، فعلى سبيل المثال أعلن «دستور الوكالة اليهودية» أن تشغيل العمال اليهود فى (أملاك الوكالة) سوف يعتبر مسألة مبدأ. وكان الصندوق القومى اليهودى يؤجر الأراضى شريطة ألا يزرعها غير العمال اليهود وأصر «صندوق تأسيس فلسطين» على ألا يستأجر مستوطنهم غير العمال اليهود «وحتى فى الأعمال اليهودية الخاصة كان العمال العرب عادة يقاطعون. وفى مارس من عام ١٩٤٩ أعلنت «جويش فرونتير» أن البطالة بين اليهود قد انخفضت إلى حد كبير فى اواخر عام ١٩٣٨م، نتيجة لأنهم حلوا محل العرب فى المزارع وإجراءات الأمن المتزايدة والأشغال العامة... ولأول مرة هذا العام يستخدم عمال يهود فى بساتين البرتقال التى يمتلكلها اليهود وكان المؤرخ ارنولد توينبى قد تنبأ بهذا قبل ذلك بسنين عديدة حين ذكر أمام جمهور فى المعهد الملكى للشئون الدولية عام ١٩٣١ «أن كل الأراضى الفلسطينية التى تم شراؤها بأموال يهودية بدأت تصبح وقفا على اليهود» ومضى يقول «ولا يمكن ما يعنيه ذلك خافيا عليكم، أنه يعنى مايسمى فى جنوب افريقيا بالتفرقة العنصرية» .

راح الفلاحون المطرودون، طيلة العقد الرابع من القرن العشرين يتجهون صوب الساحل بحثا عن عمل، فاستقروا فى أحياء من أكواخ الصفيح على مشارف يافا وحيفا، وفى الفترات القصيرة لازدهار أعمال البناء كانوا يجدون عملا بينما يظلون بقية الوقت عاطلين. وعندما رفضت الشركات اليهودية تشغيلهم قلت أمامهم فرص العمل. وفى عام ١٩٢٧م ،نشبت أعمال الشغب فى بتاح تكواه عندما منع العمال

العرب من جمع البرتقال الذى اشتراه تجار عرب .

وفى وقت لاحق تفجرت أزمة عنصرية فى يافا عندما رفض مقاول يهودى كان يشيد، على حساب الحكومة، ثلاث مدارس للعرب فى مدينة عربية تشغيل أى عامل عربى. والمثال البين على هذا الاتجاه الصهيونى يتمثل فى واقعة حدثت فى غابة زرعت تكريما لهرتزل بالقرب من اللد وهى أنه عندما علم أن الأشجار قد غرسها عرب سرعان ما اقتلعت ليعيد اليهود زراعتها.

كذلك تركت المنافسة اليهودية أثرها على قطاعات أخرى من السكان ولاسيما طبقات الحرفيين والتجاروأغلبهم من المسيحيين. لقد رفعت موجات الهجرة الضخمة من الأسعار وأسهمت الصناعات اليهودية الجديدة، التى منحت تعريفة جمركية خاصة لحمياتها والحفاظ على قدرتها على التنافس، فى رفع تكاليف المعيشة، ولما كانت أجور العمال اليهود أعلى بكيثر من تلك التى يتقاضاها العمال العرب –وفقا لما ورد بالدليل السياحى الحكومى كانت أجور عمال الزراعة تزيد بما لايقل عن ٦٠ بالمائة وعمال الصناعة غير المهرة تزيد بنسبة مائة بالمائة– فإنه يتضح بجلاء العبء الذى القته الصهيونية على كاهل الطبقات العربية الفقيرة .

وبغض النظر عما جلبه الصهاينة معهم من مشكلات اقتصادية فإن أشد ما بعث الاستياء فى نفوس العرب هو عدم مراعاة المشاعر، وهى سمة من سمات الصهانية تدعو إلى الغرابة.. ببساطة لم يراع الصهاينة مشاعر الفلسطينيين. لقد حلوا ببلد محافظ اسلامى أساسا، وبدوا كأنهم يتعمدون الخروج عن السلوك المألوف لاثارة سكان البلاد. ولقد وصف الكولونيل والترسترلنج، رئيس الأركان تحت قيادة لورانس بدمشق، كيف أن العرب صدموا عندما رأوا اليهود من االجنسين وهم يسبحون عراة... وفى صفد أشار لورانس اوليفانت أنه من الغرابة أن يرفض اليهود تغيير أى عادة من عاداتهم

الاشكنازية على الرغم من أنهم يعيشون فى مدينة السواد الأعظم من سكانها من المسلمين أن قلة من الصهاينة هى التى أبدت إستعدادا لاتخاذ موقف وسط، والاندماج فى المجتمع الفلسطينى القائم، وسجل «سترلنج» واقعتين لرفض المستوطنين الصهاينة تعليق لافتتين لادارة البريد الفلسطينية لا لسبب الا لأنها كتبت بالعربية إلى جانب الانجليزية والعبرية .

لقد لخص سيرجون تشانسلور هذا الموقف فى رسالة بعث بها إلى سكرتير الملك الخاص فى مايو من عام ١٩٣٠م، بقوله: «أن مايجعل التعامل معهم (الصهاينة) صعبا هو أنهم لا يعيرون أى اهتمام بحقوق الآخرين ومشاعرهم، كما أنهم شديدو الالحاح والضغط من أجل تحقيق مطالبهم وعلى الرغم من أن اليهود أقلية فى فلسطين فإن موقفهم من العرب يتسم بالتعالى والغطرسة، وهو موقف يستاء منه العرب بشدة لما جبلوا عليه من تقاليد المجاملة والأخلاق الطيبة.

كانت هذه الغطرسة وعدم الاختلاط بمن يحسبونهم أقل منهم منزلة هى التى -فوق كل شيئ آخر- أقنعت الفلسطينين بأن الصهاينة هم الأعداء. ولقد وصف فريا ستارك هذا الموقف بجلاء ابان الحرب العالمية الثانية حين قال :

«أن هذا الشعور بالنفور وعدم الرغبة فى الاختلاط يحس به المرء فى جميع مجالات النشاط الصهيونى فى فلسطين، أنه يفسد جو المستوطنات الزراعية حيث يحظر على العمال العرب العمل فيها، ويفسد الفنادق حيث لا يوافق على عمل العرب حتى فى غسل الملابس أو فى الحدائق، كما أنك تشعر بالضيق اذا كنت لاتحب النبيذ ليهودى وتطلب نبيذا كاثوليكيا ويتعذر حصولك عليه» .

ويتذكر أحد رواد الصهيونية الاشتراكيين البارزين، «ديفيد هاكوهين» فى خجل كيث أنه اضطر فى السنوات الأولى للانتداب: «إلى الدفاع (امام اصدقائى الانجليز وغيرهم) عن حقيقة انى لن اقبل عربا فى نقابة العمال، الهستدروت، التى أتزعمها، والدفاع عن دعوة ربات البيوت إلى عدم الشراء من المحال التجارية العربية، والدفاع عن أننا وضعنا حراسا للبسلتين للحيلولة دون عمل العمال العرب... والدفاع عن صب الكيروسين على الطماطم العربية وعن الهجوم على ربات البيوت اليهوديات فى الاسواق وتكسير ما قمن بشرائه من بيض عربى، والى الثناء المفرط على كيرين كايميت (الصندوق القومى اليهودى) الذى بعث بهانكين إلى بيروت لشراء الاراضى من «الافندية» غير المتواجدين وطرد الفلاحين من الأرض- فكان يسمح بشراء عشرات الدونمات من العربى ولكن- لاسمح الله- دونم واحد يهودى لأى عربى كان أمرا محظورا... وإلى اعتبار روتشيلد- تجسيد الرأسمالية- اشتراكيا ووصفه بالمحسن. لم يكن القيام بكل هذا أمرا هينا. وعلى الرغم من حقيقة أننا قمنا به- ربما لأنه لم يكن امامنا خيار- فاننى لم اكن سعيد بذلك».

فى بداية الامر استمع الفلسطينيين غير مصدقين لمطالبة الصهاينة بأرضهم، فقد كان الفلسطينيون يشكلون أكثر من ٩٠ بالمائة من عدد السكان، وعلى هذه الارض عاش أجدادهم آلاف السنين فضلا عن أن آخر الحضارات العظيمة التى ينتمون اليها، وهى الحضارة العربية، قد وجدت فى فلسطين بصفة تكاد تكون مستمرة زهاء الف وثلاثمائة سنة، لم يكن الفلسطينيون يتصورون أن أرضهم تنتزع منهم وتعطى لأجانب مطلبهم التاريخى أضعف بما لايقاس من مطلبهم. لقد تبين هـ. جـ. ويلز بدوره أن المخطط يدعو إلى الغرابة حين ذكر: «إذا كان من الصائب اعادة بناء دولة يهودية لم يكن لها وجود زهاء الف سنة، لماذا لانعود إلى الوراء ألف سنة أخرى ونعيد بناء الدولة الكنعانية؟ والكنعانيون، بعكس اليهود، لايزالون هناك .

وإلى جانب الحجج التاريخية والحقوق المستمرة من ملكيتهم الفعلية للارض فإن العرب يدفعون بأن بريطانيا وعدتهم بفلسطين فى عام ١٩١٥ مقابل مساعدتهم لها ضد الاتراك، وان ماجرى بين شريف مكة (الشريف حسن) وسير هنرى ماكماهون، بصفته نائبا عن الحكومة البريطانية، كان موضع تحليل وبحث مفصل خلال الستين سنة الماضية، وليس ثمة جدوى من وراء تكرار حجج الجانبين. لكن من المعروف جيدا أن ماكماهون، فى رسالته بتاريخ ٢٤ اكتوبر ١٩١٥، قد وعد بأن «بريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف وتؤيد استقلال العرب فى جميع المناطق الواقعة داخل نطاق الحدود التى طالب بها شريف مكة» مع بعض تعديلات معينة. وأشارت التعديلات إلى الأراضى «الواقعة إلى الغرب من مناطق دمشق وحمص وحط وحلب، وحيث أنه لايوجد أى جزء من فلسطين إلى الغرب من هذه المناطق وان ماكماهون لم يذكر أو يجادل الشريف حسين حول المطالبة بالمنطقة، اعتقد العرب أن المنطقة التى تعهدت بها بريطانيا بحكومة عربية مستقلة فيها لابد من انها تشمل فلسطين .

وهذا الرأى يدعمه أحد محاضر اجتماع لوزارة الخارجية البريطانية فى عام ١٩١٨ حيث جاء «أن فلسطين قد شملتها ضمنا المطالب الاصلية للملك حسين ولم تستبعدها صراحة رسالة سير هـ. ماكماهون بتاريخ ١٩١٥/١٠/٢٤، ومن ثم لم يفترض أننا بموجب هذه الرسالة قد تعهدنا للشريف حسين بأن فلسطين سوف تكون عربية ومستقلة» .

ظل العرب طيلةفترة الانتداب يدفعون بأن بريطانيا فى عام ١٩١٥ وعدتهم بفلسطين، وبالتالى رفضوا الاعتراف بوعد ثان قطعة آرثر بلفوره وزير خارجية بريطانية فى رسالة بعث بها إلى اللورد روتشيلد بعد ذلك بعامين، واعتقدوا، وهم فى ذلك على حق، بأن اقامة وطن قومى يهودى كما تصوره بلفور انما يتعارض مع هدفهم فى أن

تكون فلسطين عربية مستقلة، كما رأوا أن تعهد بلفور بعدم القيام بما من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية «للطوائف غير اليهودية (أى العربية) الموجودة فى فلسطين يتعذر الوفاء به اذا ما خرج المخطط الصهيونى إلى حيز التنفيذ. وكما صرح اللورد جراى، وزير الخارجية الليبرالى السابق، فى مجلس اللوردات فى مارس من عام ١٩٢٣ فإن «وعد بلفور قد تعهد بوطن صهيونى دون الاضرار بالحقوق المدنية والدينية لسكان فلسطين. ومما لاشك فيه، أيها اللوردات، أن وطناً صهيونيا يعنى أو ينطوى على حكومة صهيونية فى المنطقة التى يقام فيها الوطن وان كان ٩٣ بالمائة من سكان فلسطين هم عرب فاننى لا اتصور كيف يمكن اقامة اى حكومة عربية دون الاضرار بحقوقهم المدنية» .

وكان رد الفعل العربى الطبيعى لوعد بلفور ولغرض الانتداب هو التنديد بكليهما ورفض التعاون مع السلطات البريطانية. واعتقد الزعماء الفلسطينيون أن بوسعهم ارغام بريطانيا على أن تتنكر للوعد ولا تقر شرعيته وعلى الرغم من أنهم رفضوا العنف كوسيلة لتعزيز موقفهم ظلوا متشردين وتمسكوا فى اصرار على ثلاثة مطالب اساسية. وضع حد للهجرة والغاء وعد بلفور ومنح الاستقلال للعرب، بهذه الروح قاطعوا فى عام ١٩٢٣، انتخابات المجلس التشريعى المقترح، وعندما بات واضحا انهم لن يستطيعوا بهذه الاساليب تغيير السياسة البريطانية فضلا عن اضافة فرصة أن يكون لهم بعض التأثير فى تقرير مستقبلهم، غير الفلسطينيون أساليبهم، فى حين أنهم واصلوا اعلان رفضهم الكامل للصهيونية وللموقف البريطانى منها ،كانت النتيجة التى توصلوا اليها هى أنهم لن يحققوا أية مكاسب سياسية الا بالتعاون مع بريطانيا، لقد كان الكثيرون من أعضاء البرلمان لاسيما مجلس اللوردات يعطفون عليهم، ومن ثم راودهم الامل فى أن يرغم الرأى العام البريطانى الحكومة على اعادة النظر فى سياستها، والواقع أنه مع استمرار الانتداب توصل الكثيرون من الساسة والمسئولين البريطانيين فى فلسطنين

ولندن إلى نتيجة أن الانتداب غير ناجح، وتكهن سير جون تشانسلور، المندوب السامى فى الفترة ما بين ١٩١٨ و ١٩٣١ ، باستمرار الصراع ما لم تفى الحكومة بالتزاماتها تجاه العرب حين قال:

«حقيقة الموقف هى أن الحكومة البريطانية قد أعطت، فى ظل ظروف الحرب العالمية الاولى القاسية، وعودا للعرب، ووعودا لليهود، يتعارض كل منها مع الاخر ولايمكن الوفاء بها. والسياسة الامينة هى أن نعترف بمعضلتنا ونقول لليهود أنه وفقا لوعد بلفور أيدنا اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، وأن وطنا قوميا يهوديا فى فلسطين قد أقيم بالفعل وسوف يظل، وأنه بدون انتهاك الجزء الثانى من الوعد وبدون الاضرار بمصالح العرب لا نستطيع القيام باكثر مما فعلنا .

وابتداء من السنوات الاولى للانتداب انقسمت الزعامة الفلسطينية إلى فريقين يعرب كل منهما عن مشاعر الولاء لبريطانيا وتتزعمه احدى عائلات القدس الكبيرة. وكان الحاج أمين الحسينى هو الرجل الذى اختارته بريطانيا لتخلق منه الشخصية السياسية الرئيسية فى فلسطين. فما كان من سير هربرت صمويل الا أن اختاره فى عام ١٩٢١ ، لمنصب المفتى بعد أن قام البريطانيون بتزوير الانتخابات (الواقع أن الحاج أمين جاء ترتيبه الرابع فى الانتخابات) وبعد عام واحد منح سلطة جديدة بانشاء المجلس الاسلامى الأعلى برئاسته، وكان الحاج أمين الحسينى كقومى متشدد رجلا نابها شديد الطموح كما كان عنيدا ضيق الافق لايقبل النصيحة، فلم يحدث قط أن أخذ بنصيحة أحد وكان يفتقر بشدة إلى الحكم السديد على الامور السياسية. لكن بفضل مكانته الدينية المرموقة ولما لأسرته من مركز أدبى رفيع وبتأثير شخصيته القوية استطاع أن يجذب إلى جانبه القوميين الفلسطينيين الأشد مايكونون عزما وتصميما .

أما الحزب الآخر المعروف بالمعارضة الذى كان يتزعمه عمدة القدس، راغب

النشاشيبى، فكان تشكيلا اكثر تفككا لايدين بوحدته الضعيفة لانسان بعينه ولا لأية ايديولوجية خاصة، بل لكراهية الكثيرين من ملاك الاراضى الفلسطينية للمفتى وعدم ثقتهم به ولقد ذكر النشاشيبى لكلونيل كيش التابع للوكالة اليهودية أن معارضته للحاج أمين الحسينى أقوى بكثير من معارضة الصهاينة أنفسهم، فكانت المعارضة تمقت أساليب المفتى الاستبدادية وعناده ورفضه تقديم أية تنازلات، وكمجموعة، كانت أقل حماسا فى قوميتها من جماعة الحسينى واكثر استعدادا للتعاون مع سلطات الانتداب. لقد أدرك زعماء المعارضة أن الوطن القومى لليهود قد تأسس وكانوا يأملون فى الحد من توسعه وليس القضاء عليه كلية. وعلى الرغم من أن سياستهم بدت للبعض أنها سياسة واقعية فإن الكثيرين منهم قد اتهموا وبحق بالتعاون مع الصهاينة. فمن الواضح أنهم قبلوا عن طيب خاطر الأموال اليهودية لمساعدة صحفهم وما يقومون به من أنشطة سياسية هذا فضلا عن أن معظم ملاك الاراضى من الفلسطينيين ممن تورطوا فى صفقات بيع الاراضى لليهود كانوا من اتباع راغب النشاشيبى ومن بينهم أفراد من أسرته .

كانت القدس، بطبيعة الحال، مركزا للنشاط السياسى الا أن المنافسة بين الحسينى والنشاشيبى اتسعت لتشمل جميع أنحاء البلاد، فكان رجال الاعمال وملاك الاوراضى ينزعون إلى التحالف مع راغب النشاشيبى بينما انحاز المثقفون بوجه عام إلى المفتى، وعلى الرغم من أن العامة السياسية كانت فى أيدى المسلمين عادة فإن الطوائف المسيحية قد شاركت فى الشئون السياسية، وكان للكثيرين منهم، وخاصة من بين البروتستانت والارثوزوكس اليونانيين، دور نشيط فى النضال الوطنى كصحفيين وكتاب (كان المسيحيون يمتلكون معظم الصحف فى فلسطين) وكأعضاء فى الوفود التى أرسلت إلى بريطانيا وأوروبا لشرح وجهة النظر العربية. ومن نواحى معينة، كان المسيحيون يشعرون بأنهم أكثر عرضة لتهديد الصهيونية من المسلمين، فقد كانوا،

مثلهم مثل اليهود، ومن سكان المدن أساسا، ومن ثم كان من المرجح أن يعانوا من المنافسة اليهودية أضف إلى هذا أن المناطق التى كان الصهاينة متحمسين للحصول على الاراضى فيها- الجليل واسدراليون- كانت تضم نسبة كبيرة من السكان المسيحيين .

فى غضون العشرينات من القرن العشرين كانت عائلات القدس تتشاحن بين الحين والآخر، لكن خلافاتهم خلال تلك الفترة لم تكن عنيفة لا مع بعضهم البعض ولا مع البريطانيين. لقد احتفظوا بمواقفهم الاساسية ضد الصهيونية متبعين أما سياسة الحسينى أو النشاشيبى، لكنهم لم يتخذوا أية خطوات للتصدى بالقوة للحركة الصهيونية، لقد كان النزاع حول حائط المبكى وأعمال الشغب التى وقعت فى عام ١٩٢٩ عنيفة، لكنها كانت حوادث فردية لايجب النظر اليها كجزء مما وقع فى وقت لاحق من صراع مسلح .

لقد كان الفريقان فى سنوات ما قبل عام ١٩٣٥، يؤيدان الاعتدال وحاولا اقناع البريطانيين بمنحهم مؤسسات للحكم الذاتى، وقد قام هذا الاعتدال أساسا على الاعتقاد بأن المخطط الصهيونى أخذ يضعف، فبعد الحماس المبدئى الذى أعقب وعد بلفور واقامة الانتداب بدأ الصهاينة يفقدون القوة الدافعة، فأخذت التبرعات من يهود الشتات تنهار وارغمت الوكالة اليهودية على تخفيض ميزانيتها، وصاحب ذلك نقصا شديدا فى هجرة اليهود لدرجة أن عدد اليهود الراحلين فاق عدد القادمين. وبحلول عام ١٩٣٠ بلغت جملة المهاجرين سنويا أقل من خمسة آلاف شخص ومن المفهوم أن عددا كبيرا من الفلسطينيين كانوا، فى مثل هذه الظروف، يشعرون، ولاشك، بأن الصهيونية ليست بالخطر الذى يستحق القتال .

لقد تغير الموقف بشكل مثير بظهور العداء للسامية فى أوروبا وما تمخض عنه من

زيادة مهولة فى الهجررة اليهودية إلى فلسطين، ففى عام ١٩٣٤، دخل البلاد أكثر من ٤٥ك آلف يهودى، وازداد هذا الرقم حتى بلغ ٦٦ ألفا بعد ذلك بعام واحد، وعادت الصهونية تشكل خطرا يتهدد الفلسطينيين واشتد الضغط على صغار الملاك والمزارعين لبيع أراضيهم وأخذت تتكرر عملية الطرد من الارض هذا فضلا عن أنه تعذر على الفلاحين المطرودين أن يجدوا عملا فى مدن السهل الساحلى لأن النشاط الاقتصادى اليهودى أصر على تشغيل العمال اليهود فقط .

وحيث أن البريطانيين لم يتخذوا أية خطوة للحد من عدد المهاجرين لجأ الفلسطينيون إلى صور أكثر ايجابية من الاحتجاج، ففى خريف عام ١٩٣٣، وقعت مظاهرات ضخمة فى القدس ويافا قتل رجال الشرطة أثنائها عددا من العرب، وذكر سير ارتور ووتشوب، العندوب السامى، أن «شعورا وطنيا حقيقيا فى فلسطين يزداد قوة ومرارة ضد الحكومة البريطانية والسبب فى ذلك، حسب فهمه. هو أن الفلسطينيين أخذوا يبدون أكثر تطرفا فى مطالبهم حيث أنهم أصبحوا أكثر يأسا ازاء خطر الصهيونية، ولم يكن هذا الشعور قاصرا على الزعامة التقليدية بل شاركتهم فيه غالبية قطاعات الشعب، والواقع أن عرب قفلسطين قد بدأوا فى منتصف الثلاثينات من القرن العشرين يظهرون ما يدل بجلاء على خيبة أملهم فى زعامة عائلات القدس المتطاحنة وفشلها فى تحقيق أية مكاسب فى النضال ضد بريطانيا والصهيونية .

وفى بعض الاحيان بدت المنافسة بين الحسينى والنشاشيبى وكأنها تطغى على ما عداها من قضايا أخرى، واستغلت العائلتان واتباعهما معظم الانتخابات فى تشويه كل منهم الآخر، وذلك بتوجيه الاتهام ببيع الاراضى لليهود والتعاون مع السلطات البريطانية. ولما كان حق الانتخاب فى المدن الفلسطينية قاصرا على الرجال من ذوى الأملاك فإن فريق النشاشيبى فى معظم تلك الانتخابات، لكن فى عام ١٩٣٤م تخلت

عائلة الخالدى، وهى من أبرز العائلات فى القدس، عن فريق النشاشيبى، مما أدى إلى هزيمة راغب النشاشيبى الذى كان مرشحا عمدة للقدس، وكان هذا مؤشرا لأفول نجم المعارضة، فالمعتدلون العرب الذين ازدهروا قبل أن يعطى ظهور هتلر فى ألمانيا للحركة الصهيونية دفعة قوية، اضطروا إلى افساح المجال لغيرهم أن ثبت عدم جدوى سياسة التعاون التى كثيرا ما تبجحوا بها. وهكذا استطاع فريق الحسينى بموقفه السياسى لأكثر تشددا أن يسيطر على منافسه. بيد أن أساليب المفتى الاستبدادية وعدم الأخذ بمشورة أحد حولت الكثيرين ضده وساعدت فى تشكيل أحزاب سياسية جديدة عديدة، وسرعان ما أظهرت تلك الاحزاب، باستثناء حزب الاستقلال، أنها مجرد أدوات لدعم احدى الشخصيات البارزة وعائلته، ومن ثم لم تتمتع بتأييد شعبى يذكره وعندما بدأ الكفاح الفلسطينى يقوى خلال الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٦، اتضحت عدم كفاءة الزعامة التقليدية. وعلى الرغم من أن المفتى كان يقوم بشئ من التوجيه لكنه لم يكن نوع التوجيه الذى أراده الشعب. لقد عقد واتشوب مقارنة بينه وبين صلابة القرويين وعنادهم فى معارضتهم لبريطانيا وبين ضعف الشخصيات العربية البارزة وافتقارها إلى سمات الزعامة .

فالثورة الفلسطينية التى تحولت من سلسلة من الأحداث الصغيرة فى عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٦، إلى مجابهة عسكرية خطيرة فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨، لم يبدأها الزعماء العرب، لكنها كانت حربا شعبية حقيقية حاول زعماء القدس اللحاق بها وليس توجيهها: وجاء فى تقرير حول اجتماع عقد مع المندوب السامى فى شهر مايو من عام ١٩٣٦ أن «راغب النشاشيبى صرح بأن التوتر فى البلاد شديدا وان موقف الزعماء قد أملاه ضغط الشعب عليهم فالشعب حاليا هو الذى يحكم الزعماء وليس الزعماء هم الذين يحكمون الشعب» وعلى الرغم من أن فريق الحسينى الاتفاق مع الثورة والمشاركة فيها بصورة مباشرة منى فريق النشاشيبى بالفشل وانسحب من حلبة

النضال وتحالف مع الامير عبد الله فى شرق الاردن واذعن لتقسيم فلسطين ظنا منه أن ذلك سوف يفيده على حساب فريق الحسينى .

ويصعب حتى الآن أن نقطع بصحة أى من تلك الاساليب التى اتبعت آنذاك. فهناك من يرى أنه لو اتخذ الفلسطينيون موقفا أشد عنفا من الانتداب البريطانى عند اقراره فى بادئ الأمر، لما أتيحت للمخطط الصهيونى الفرصة لتدعيم موقفه ولتخلت عنه بريطانيا فى وقت قصير: وهناك من يزعم بأنه كان يجب على الفلسطينيين أن يتصرفوا عكس ذلك تماما، إذ لو أنهم تعاونوا مع بريطانيا وعرضوا قضيتهم على اللجان الملكية التى أرسلت للتحقيق فى الاضطرابات العديدة التى وقعت فى فلسطين. وشاركوا فى انتخابات المجلس التشريعى ربما نجحوا فى أن يكونوا فى وضع يمكنهم من التأثير على السياسة البريطانية، ولو أنهم ناضلوا فى سبيل الممكن لا من أجل المستحيل ربما أقرت بريطانيا موقفهم ووضعت حدا لنجاح الصهيونية الزاحف، فموسى العليم– الذى لا يؤمن بأن الوطن القومى لليهود حقيقة يجب التسليم بها فحسب بل أيضا أنه لو تم الاعتراف بهذه الحقيقة لامكن الحد من توسعه– يرى فى الثلاثينات من القرن العشرين سلسلة من الفرص الضائعة ويقول: «هناك أخطاء كثيرة ارتكبناها كما أتيحت لنا فرص عديدة كان يمكن أن تكون فيها الاوضاع مختلفة وافضل حالا لو أننا اتبعنا سياسة مغايرة وكنا أكثر واقعية، لكن قادتنا كانوا يعتقدون أن من واجبهم رفض كل اقتراح فرفضوا الحديث للجانالملكية، بل لا، لا، لا... أن يصبح عقيدة .

وبحلول عام ١٩٣٥ كانت الزعامة الفلسطينية التقليدية قد خسرت ولاء أنصارها. فالزيادة المهولة فى أعداد المهاجرين وما صاحب ذلك من صفقات بيع الاراضى خلق شعورا نضاليا جديدا عجز زعماء القدس من السيطرة عليه. كما أن رفض بريطانيا تقديم التنازلات سواء فيما يتعلق بالهجرة أو اقامة مؤسسات للحكم

الذاتى، واكتشاف، فى اكتوبر ١٩٣٥، أن اليهود يهربون الأسلحة عبر ميناء يافا أسهما فى خلق هذا الشعور واقناع الكثيرين من العرب بأنه لا أمل فى الاحتفاظ بوطنهم الا عن طريق العنف. وجاءت المناوشة الاولى فى شهر نوفمبر عندما أمسكت القوات البريطانية بمجموعة صغيرة من الوفدائيين العرب فى التلال المحيطة بجنين، وكان قائد الجماعة عز الدين القاسم شيخا متدينا متزمتا تتألف اتباعه من المطرودين من احياء حيفا القذرة والقرويين من الريف المجاور وعلى الرغم من مقتل القاسم فى هذه الواقعة الاولى فلا يزال الفدائيون الفلسطينيون يعتبرونه حتى اليوم مؤسسهم .

ولقد أعقب خطة القاسم التى لم تدم طويلا أضراب عام فى ربيع عام ١٩٣٦، لكنه جاء بالفشل نتيجة للدمار الذى الحقه باقتصاد الريف الفلسطينى ولاعتماد الطائفة اليهودية على نفسها بالقدر الذى جعلها إلى حد كبير محصنة ضد أى ضغط اقتصادى. وفى أوائل الصيف قرر العرب القتال فشكلوا وحدات عسكرية صغيرة فى المناطق الجبلية بوسط وشمال فلسطين، ومن هناك بدأت حملة التخريب ضد الطرق والجسور وخطوط الأنابيب. ودار قتال عنيف فى شمال الجليل وامتد حتى الجنوب وتلال نابلس، والى الجنوب حول القدس والخليل وبئر سبع وعلى امتداد الساحل بين غزة ويافا استطاعت القوات البريطانية احتواء الثورة بوجه عام .

وأصبحت الثورة، خلال العامين التاليين، أشد تهديدا وازداد حجم القوات العربية حتى بلغت ثلاثة آلاف مقاتل يفرزهم عدد اكبر من المقاتلين غير المتفرغين والمتعاطفين فى القرى. وفى صيف عام ١٩٣٨ بلغت هذه القوات ذروة قوتها اذ تمكنت من السيطرة على التلال وعلى مدينتى نابلس ورام الله، وفى اكتوبر احتلوا مدينة القدس القديمة لفترة وجيزة .

أما الذى ساعد على نمو الثورة فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨، فكانت توصية

اللجنة الملكية فى يوليو ١٩٣٧ بضرورة تقسيم فلسطين، على أن يسلم الجليل بغالبيته العربية للدولة اليهودية المقترحة وتظل القدس وبيت لحم ومصر إلى البحر تحت الانتداب، أما بقية فلسطين فتوحد مع شرق الاردن تحت حكم الامير عبد الله. ولم تبد استعدادا لقبول ضياع مدن عربية تاريخية مثل عكا وصفد غير قلة من الفلسطينيين، ودفعت تلك المقترحات عائلة الحسينى وانصارها إلى الانضمام الكامل للثورة، فى حين أن غالبية جماعة النشاشيبى ممن كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالامير عبد الله أبدت المشروع اذ بدا لهم أنه أفضل وسيلة للاطاحة بالمفتى ولتمكينهم من الهيمنة على الشئون السياسية الفلسطينية- الشرق أردنية. وهكذا انسحبوا من اللجنة العربية العليا التى كانت قد شكلت فى بداية الثورة لتكون بمثابة قناع لوحدة القيادة الفلسطينية وأعلنوا أنهم ينوون التعاون مع بريطانيا، ورد الثوار، الذين كانوا يحظون بمساندة المفتى بل أنه أصبح إلى حد ما زعيمهم، بارهاب عائلة النشاشيبى وحلفائها، وخلال العامين التاليين اغتيل الكثيرون ممن اتهموا بتأييد التقسيم أو عدم تأييد الثورة. كما هرب آخرون من البلاد، الأمر الذى خلق رد فعل يتزعمه فخرى النشاشيبى أين عم راغب، الذى أشرف على تنظيم عصابات مسلمة فى مختلف المناطق مهمتها حماية انصار النشاشيبى ومساعدة البريطانيين فى مطاردة الثوار .

لقد فقدت الثورة بعض قوتها الدافعه عندما عارضت لجنة وود هيد فى نوفمبر عام ١٩٣٨ مشروع التقسيم السابق، وانتهت فى العام التالى وقد قضت عليها الخلافات بين صفوفها وتصدى القوات البريطانية لها. ويقدر عدد الاصابات فى أول تجسيد لحركة المقاومة الفلسطينية بنحو ٢٠ آلف عربى، ومن بين الخمسة آلاف أو يزيد الذين لقوا مصرعهم قتل ثلاثة أرباعهم فى ميدان القتال، وربما بلغ ضحايا الارهاب اليهودى وضحايا العرب الآخرين حوالى ١٢٠٠ قتيل كما نفذ البريطانيون حكم الاعدام فى ١١٢ عربية، وكان معظم الضحايا من الفلاحين أو سكان الاحياء

القذرة الذين كانوا قد وصلوا للتو من الريف، فقد كانت تلك الحرب حربا غبية بمعنى الكلمة وليست حربا توجه من أعلى. وبتحليل الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لما يقرب من ٣٠٠ ضابط من الثوار اكتشف البروفسير بورات، المؤرخ اليهودى، أن الغالبية العظمى كان من القرويين المسلمين. وأشار إلى أن نسبة الريفيين إلى سكان الحضر كان يمكن أن تكون أكبر من ذلك بكثير لو أمكن فحص سجلات الفدائيين العاديين.

لذلك تكشف دراسته أن طائفة الدروز عارضت الثورة بوجه عام وأن المسيحين على الرغم من بروزهم بين المثقفين القوميين، لعبوا دورا في القتال كما كان الدور الذى لعبته العائلات التى تمتلك مساحات واسعة من الاراضى- باستثناء عائلة الحسينى- محدودا. وعلى الرغم من أن اللجنة العربية العليا كانت نشيطة بالقدر الذى حمل بريطانيا على اعتبارها لجنة غير شرعية ونفى بعض أعضائها إلى جزيرة سيشل وبات واضحا أن الدافع للثورة جاء من مصدر آخر .

كانت الثورة كارثة بالنسبة للفلسطينيين ذلك لانها أضعفتهم وفرقت بينهم، وظلت الانقسامات بينهم قائمة إلى أن جاء اليوم الذى اضطروا فيه إلى مقاتلة الصهاينة بعد ذلك بعشر سنوات. ولكن بعد أن أمتلأت بالمستوطنين الاجانب كما انتزعت منهم أراضيهم، ولما ناشدوا بريطانيا، الوصية عليهم، أن تحمى حقوقهم ما كان منها الا أن تجاهلتهم فحقيقة أن الغالبية فى بلادها ينكر عليها حق ممارسة أى سيطرة على مستقبلها هى التى دفعت إلى العنف وفى عام ١٩٣٨ صرح أحد النواب فى مجلس العموم البريطانى قائلا:

«ليس هناك نواب عرب فى البرلمان ولاتوجد دوائر انتخابية تمارس نفوذها على أعضاء البرلمان، كذلك ليست هناك سيطرة عربية على الصحف فى هذه البلاد حتى

يكاد يتعذر نشر رسالة مؤيدة للعرب فى صحيفة «التايمز» ولاتضم العاصمة بيوت مال عربية تتحكم فى رؤوس أموال ضخمة ولاتوجد سيطرة عربية على اعلانات الصحف فى هذه البلا، وليس ثمة وزراء مستعمرات سابقين من بين العرب.... أن العنف وحده هو الذى أثار اهتمامنا بمطالبهم» .

الجزء الثاني

الشتات الجديد

الفصل الأول

خروج ١٩٤٧- ١٩٤٨

احتفظت بريطانيا بانتدابها على فلسطين لمدة تسع سنوات بعد هزيمة الثورة العربية. وفى تلك الفترة هيمنت الحرب العالمية الثانية والهجوم المدمر الذى شنته الجماعات الارهابية اليهودية ضد البريطانيين فى فلسطين. وكان اغتيال اللورد موين فى القاهرة على يد عصابة شتيرن ونسف فندق الملك داوود، واعدام الجنود البريطانيين على يد أرجون زفاى ليومى التى كان يتزعمها مناحم بيجن، أسوأ ماحدث فى تلك الحملة. وفى وضع لم يكن يبشر بأى أمل فى التحسن قرر البريطانيون الذين أضعفتهم الحرب واستأسدت عليهم الولايات المتحدة، التى حال انحيازها السافر المستمر للصهيونية دون تنفيذ سياسة متوازنة فى فلسطين- قرروا التخلى عن الانتداب وأعلنوا عن نيتهم فى التخلى تاركين المشكلة بين أيدى الأمم المتحدة والواقع أن مصير فلسطين قرره عضو واحد بدلا من الأمم المتحدة ككل فالولايات المتحدة، التى كانت قد اختارت التقسيم وخلق دولة يهودية، عقدت العزم على فرض سياستها داخل الجمعية العامة. وعندما أصبح من غير المؤكد أن يجتذب المشروع أغلبية كافية، رد الامريكيون بعنف فأعطيت هايتى وليبيريا والفلبين والصين واثيوبيا واليونان وجميعها عارضت التقسيم جرعات مركزة من الضغط السياسى والاقتصادى وباستثناء اليونان، أمكن اقناعهم جميعا بتغيير موقفها حتى أن مندوب الفلبين وجد نفسه فى وضع مثير السخرية: فبعد أن ألقى خطبة خماسية ضد التقسيم، انتهت بلاده بالتصويت إلى جانبه .

لقد كان مشروع التقسيم الذى فرض على الجمعية العامة فى نوفمبر عام ١٩٤٧، مغايرا تماما للمشروع الذى طرحته اللجنة الملكية قبل ذلك بعشر سنوات، فبموجب المشروع الأخير، كان الفلسطينيون سيخسرون أراضيهم الأكثر خصوبة على

طول الساحل وفى الجليل، لكنهم كانوا سيحتفظون بمعظم وطنهم. أما فى مشروع الام المتحدة منح الصهاينة حوالى ستين بالمائة من مساحة البلاد بما فى ذلك الجليل الشرقى والسهل الساحلى الممتد من نقطة عند شمال اشدود مباشرة وحتى عكا تقريبا.ووادى سيراليون فى المزارع الغنية الممتدة على طول نهر الاردن من جنوبى بيسان إلى طبرية وتقريبا منطقة بئر سبع من البحر الميت إلى خليج العقبة. أما الحصة العربية فقد كانت تتألف من الجليل الغربى وجيب عند يافا وقطاع غزة والهضاب الوسطى الممتدة من جنين إلى بئر سبع على أن تستبعد القدس وبيت لحم من كل من الدولتين ووضعهما فى منطقة دولية .

وبالرغم من الهجرة الواسعة النطاق كان اليهود فى عام ١٩٤٧ لايزالون يشكلون أقل من ثلث سكان فلسطين، ولم يكونوا يشكلون الغالبية الا فى منطقة فرعية واحدة، هى منطقة يافا حيث تل أبيب كما أنهم لم يملكون فى أى منطقة فرعية أرضا أكثر منْ الحرب. ويمكن التدليل على عبث المشروع على أساس حقيقة أنه فى الدولة اليهودية المقترحة كان العرب أكثر من اليهود. ففى الجليل الشرقى، الذى يتألف من مناطق صفد وطبرية وبيسان لم يكن اليهود يشكلون غير ربع السكان، وفى منطقة بئر سبع كان ينتظر من ١٠٣,٨٢٠ عربيا أن يخضعوا لـ ١٠٢٠ يهوديا وهذا الامتداد الاخير من الارض وهو منطقة عربية يسكنها العرب وحدهم تقريبا، أعطى للصهاينة ليس لأنهم طالبوا به، بل لمجرد أنهم كانوا يريدون ميناء على البحر الاحمر.

ان البريطانيين، الذين كانوا يتخبطون خلال فترة الانتداب وهم يحاولون الوفاء بوعود اعترف واحد من مندوبيهم الساميين بأنها كانت متضاربة ولايمكن الوفاء بها، حاولوا على الاقل أن يكونوا غير متحيزين. أما الام المتحدة الخاضعة للهيمنة الامريكية فلم تبذل أية محاولة للانصاف على الاطلاق وكان نصيب مسائل الحقوق والمبادئ هو

النسيان واستبعد بالكامل المبدأ القائل بضرورة أن يكون لأى شعب رأى فى تقرير مستقبله. وكثيرا ما يقال أنه لو كان الفلسطينيون قد قبلوا التقسيم، لما خسروا اكثر مما خسروا من أراضيهم فى حرب ١٩٦٧م، الاجزاء الباقية القليلة من وطنهم. الا انه يتعين على كل انسان أن يعى حقيقة انه لم يكن يمكنتهم قط قبول التقسيم بادئ ذى بدء اذ كيف يمكن أن ينتظر من أى شعب أيا كان اعتداله وواقعيته أن يتخلى مختارا عن الجزء الأعظم من بلاده؟ لقد رأى ايمون دى فاليرا، رئيس أيرلندا، بوضوح أن ذلك مستحيل. فقد رد على زائر كان يرغب فى الحصول على تأييده للتقسيم قائلا: «قرأت العهد القديم (التوراه) منذ سنوات عديدة، وأخشى أن أكون نسيت أشياء كثيرة مما قرأت، لكننى اتذكر احدى القصص بوضوح. انها قصة النبى سليمان والحكم الذى أصدره بالنسبة للامرأتين الراغبتين فى نفس الطفل. اذكر كيف أنه عندما حكم سليمان باقتسام الطفل صرخت الأم الحقيقية قائلة: كلا.. كلا اعطوا الطفل للامرأة الاخرى ذلك هو ردى على التقسيم، ان الاصحاب الحقيقيين للأرض لن يوافقوا أبدا على التقسيم .

وهكذا رفض الفلسطينيون مشروع التقسيم على الفور. والواقع أن الصهاينة رفضوه بدورهم فبالرغم من أن الوكالةاليهودية قررت ظاهريا قبول القرار، فإن صهاينة عديدين لم يهتموا حتى بتأييده شفاها. وقد أعلن آنذاك مناحم بيجن، رئيس وزراء اسرائيل السابق: «أن التقسيم الوطنى عمل غير شرعى.. ولن يعترف به ابدا، أن توقيع مؤسسات وأفراد على اتفاق التقسيم هو توقيع باطل. وهى لن تكون إلى الابد عاصمتنا. وسوف ترد أرض اسرائيل إلى شعب اسرائيل. كلها والى الابد» .

أما الرجل الذى سرعان ما أصبح رئيسا للوزراء، ديفيد بن جوريون، فلم يكن هو الآخر مستعدا لقبول قرار الأمم المتحدة حول القدس: «أن عشرات الآلاف من سبيبتنا

على استعداد لأن يهبوا أرواحهم من أجل القدس. أن كل ماهو ممكن سوف يتم عمله من أجل القدس. انها تقع داخل حدود دولة اسرائيل شأنها فى ذلك شأن تل أبيب» كان هناك قادة آخرون أقل صياحا حول ذلك الموضوع الا أن مجرد نظرة عابرة إلى الخطط العسكرية الصهيونية فى ربيع عام ١٩٤٨، تشير إلى مدى ضآلة مراعاتهم لحدود التقسيم المقترحة. ومن الواضح أنهم لم يكونوا على استعداد للاعتراف بالوضع الدولى للقدس أو بالحكم العربى فى الجليل الغربى .

أن الرواية الاسرائيلية عن حرب ١٩٤٨م، الواردة فى مؤلف حكومى نشرته هيئة الاعلام الاسرائيلية فى عام ١٩٦٧، تقول: «لو لم تكن الدول العربية قد خاضت حربا سافرة ضد اسرائيل غداة قيامها فى مايو ١٩٤٨، لما نشأت قط مسألة اللاجئين العرب» ، وهذا الادعاء مثير للسخرية لدرجة أنه من الصعب أن تجد انسانا أمكن خداعه به. ففى نفس اليوم الذى أعلنت فيه اسرائيل استقلالها كان هناك بالفعل ٣٠٠٠٠٠ لاجئا فلسطينى، وكانت القوات الصهيونية قد احتلت اجزاء واسعة من الأراضى المخصصة للدولة العربية المقترحة وكذلك اجزاء من القدس التى كانت النية متجهة إلى اخضاعها لادارة دولية. وفى منتصف ليل ١٤ مايو، عند انسحاب آخر الجنود البريطانيين وعند اعلان الدولة الجديدة، كان الصهاينة قد استولوا على الاحياء العربية للقدس الغربية وتسللوا إلى المدينة القديمة كما استولوا على يافا وفتحوا ممرا بين الساحل والقدس ودمروا العشرات من القرى العربية. وفى أوائل أبريل اقترفوا أبشع جرائمهم: عندما ذبحوا ٢٥٤ مدنيا من قرية ديرياسين. ومع أن القتلة كانوا أعضاء فى عصابة الارجون التى كان يتزعمها بيجين، فإن العملية نفذت بتشجيع من قائد القوات النظامية الصهيونية (الهجانة) فى القدس، وكانت ديرياسين تقع على بعد ثمانية عشر ميلا من الحدود التى زعم القادة الصهاينة انهم قبلوها فى مشروع التقسيم .

ان المرحلة الأولى من حرب ١٩٤٨ وتتمثل فى الهجوم الصهيونى الذى انتهى فى ١٥ مايو، كشف الكثير عن نوايا مخططوها. ان الاستراتيجية الصهيونية، التى كانت تتألف من سلسلة من العمليات المرتبطة تحت اسم خطة داليت، قد وصفها وصفا جيدا كل من الليفتنانت- كولونيل نيتانيل لورتش، الذى عين مؤخرا مديرا للاعلام فى وزارة الخارجية الاسرائيلية ، وبيجال آلون، وهو وزير خرجية اسبق وقائد للهجانه فى عام ١٩٤٨.

لقد كان لتلك الاستراتيجية هدفان: تثبيت الاراضى المخصصة للدولة اليهودية وطرد سكانها العرب، والاستيلاء على مناطق محددة وعدت بها فلسطين العربية بقوله «ان الاعتبارات الاستراتيجية التى حددت خطة الاستيطان الصهيونى- قررت إلى حد كبير مصير الكثير من المناطق فى البلاد، بما فى ذلك مناطق يسكنها العرب أساسا أو وحدهم، مثل طبرية، وتسيماح، وبيت شيعان، وعكا، وحيفا، ويافا، وكلها تحيط بها قرى يهودية.

وكان يفترض أن تكون عكا ويافا ضمن الدولة العربية مع ذلك هوجمتا واحتلتا، وطرد معظم سكانهما، ليس لأن الدولة العربية خاضت حربا سافرة ضد اسرائيل«بل لأنهما، كما اعترف واحد من أكبر القادة الميدانيين الإسرائيليين، كانتا قرب مستوطنات يهودية. أما حقيقة أن الأمم المتحدة خططت لترك هاتين المدينتين تحت السيطرة العربية وان آلون وزملائه قالوا انهم سوف يقبلون تلك الخطة، فانها لم تكن، فيما يبدو، شيئا تلزم مراعاته. لقد كان الصهاينة يريدون يافا وعكا ولذا استولوا عليهما. وكان ذلك جزءا من خطة داليت مثل الاستيلاء على حيفا، واحتلال الجليل والهجوم على القدس. ولم تنجح كل العناصر فى الخطة وان تحقق الكثير فقرى اللطرون التى تسد الطريق الرئيسى بين يافا والقدس لم يتم الاستيلاء عليها قط كما لم يتم

الاستيلاء على المدينة القديمة. فبحلول ١٥ مايو، عندما شدت الدول العربية حربا سافرة ضد اسرائيل ومن ثم بناء على ما ذكرته هيئة الاعلام الاسرائيلية بدأت المشكلة برمتها، كان الصهاينة قد استولوا بالفعل على مناطق كبيرة مخصصة للدولة العربية المقترحة واقتلعوا اعداد غفيرة من اللاجئين من ديارهم .

وتكاد المرحلة الاولى من الحرب تكون من جانب واحد. فقد تمكنت الهاجاناه من حشد ٣٠٠٠٠ جندى على الخطوط الامامية تساندهم قوات حاميات قوامها ٣٢٠٠٠ رجل، وشرطة المستوطنات وقوامها ١٥٤١٠ رجل ،و ٣٢,٠٠٠ رجل من الحرس الداخلى. وكان إلى جانب هؤلاء الجماعتان الارهابيتان، الارجون، التى بلغ إجمالى اعضائها خمسة آلاف عضوا، وعصابة شتيرن، التى كانت تتألف من ألف مقاتل من أجل حرية اسرائيل وكانت القوة التى تصدت لهم فى الجولة الاولى هزيلة. ويبدو أن المفتى ومؤيديه فى الحكومات العربية لم يدركوا أن هناك حاجة إلى جيش، وفى ديسمبر ١٩٤٧م، قرروا تشكيل قوة غير نظامية من المتطوعين من مختلف البلدان العربية سموها على نحو غير موفق جيش التحرير العربى. ولما كان هذا الجيش يتألف من حوالى ٥,٠٠٠ رجل، جاء أداؤه طيلة الحرب فى فلسطين مخيبا للآمال: فلم يكسب معركة، وبعد سلسلة من الانتكاسات المبكرة، كان ينسحب قبل أن يضطر إلى المواجهة. وتشير الابحاث التى جرت مؤخرا حول عملياته فى الجليل إلى أن تأثيره على السكان المدنيين هو ذلك التأثير الذى أضعف بوجه عام من روحهم المعنوية والى جانب هذه القوة، قام بالدفاع عن فلسطين فى مرحلة ماقبل ١٥ مايو القرويون أنفسهم الذين دافعوا عن ديارهم بأقصى ما تتيحه لهم أسلحتهم العتيقة. ولم تكن هناك استراتيجية ولاتنسيق بينهم. وقد خذلهم قادتهم بصورة مخزية حيث كان معظمهم يعيشون فى بيروت، والقاهرة، ودمشق. ولم يبق خلال الحرب فى فلسطين من اللجنة العربية العليا غير عضوين هما: أحمد حلمى والدكتور حسين فخرى الخالدى، ولم

يشارك فى القتال غير واحد فقط من من أعيان القدس، هو عبد القادر الحسينى الذى قتل قبل ١٥ مايو بوقت طويل خلال هجوم صهيونى على القسطل .

وليست القيادة وحدها، كما كان الحال من قبل فى أغلب الأحيان هى التى خذلت الفلسطينيين، فرد الفعل من جانب الدول العربية لم يكن بدوره كافيا. وباستثناء شرق الأردن لم يكن لدى أية دولة منها، فيما يبدو، أى فكرة عما يعنيه خوض الحرب. فالجامعة العربية التى كانت قد تأسست لتوها وكانت تضم مصر والعراق وسوريا ولبنان والعربية السعودية وشرق الأردن واليمن، لم تشعر أن القتال الفعلى سوف يكون ضروريا. وتصورت لجنتها السياسية أن «حشد القوات العربية الحالية على الحدود سوف يكون كافيا لاقناع الدول الكبرى بالتدخل واجبار اسرائيل على الاذعان للمطالب العربية «وحتى عندما بات واضحا أنه سوف يتعين عليها القتال ظلت الدول العربية راضية عن نفسها بصورة تدعو إلى العجب، وقدمت سوريا لواء قوامه ١٨٧٦ رجلا، ولبنان كتيبة قوامها ٧٠٠ رجل وعندما أبلغ جلوب باشا، الذى كان يقود الفيلق العربى التابع لشرق الاردن، الأمين العام للجامعة العربية بأن لدى الصهاينة ٦٥٠٠٠ رجل تحت السلاح، أجاب الاخير «اننى أتوقع أن تسير الامور على ما يرام وعملت الترتيبات اللازمة للحصول على سبعمائة رجل من ليبيا.» وعندما سئل كيف سيجرى تسليحهم. أجاب لقد أرسلت رجلا لشراء سبعمائة بندقية من ايطاليا.

على أن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو وضع حدا للهجوم الصهيونى الأول. ومع أن المجموعة المتنافرة من الجنود السوريين واللبنانيين فى الشمال كانت عاجزة عن انقاذ بقايا الجليل، فان وجود لواء من الجنود المصريين فى الجنوب وما قام به الفيلق العربى حول القدس أزاح الضغط عن القرويين الفلسطينيين. وبعد قتال دام اسبوعين تمكنت كتيبة تابعة للفيلق العربى تطهير المدينة القديمة من

الهاجانا، بينما سيطرت كتيبة أخرى على الممر الضيق الحيوى عند اللطرون على بعد بضعة أميال غربى القدس. وكان ذلك أهم كسب استراتيجى فى فلسطين. كما اعترف الاسرائيليون عندما استولوا عليه فى سنة ١٩٦٧م، ودمروا القرى العربية المحيطة. لكن الفيلق العربى سيطر عليه فى عام ١٩٤٨، بالرغم من الهجمات المتكررة، ولو كان قد سقط لتغلغل الصهاينة فى منطقة رام الله إلى الشمال من القدس وقلب الموقف العربى كله .

لكن دخول القوات المسلحة العربية لم يوقف النجاح الاسرائيلى الا بصورة مؤقتة. فعندما جرت الهدنة الاولى فى ١١ يونيو استغل الاسرائيليون الفرصة لاعادة تنظيم قواتهم واحضار كميات ضخمة من الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا ولم يفعل العرب شيئا على الاطلاق. ولا كانوا يعتقدون، لسبب ما، أنه لن يكون هنالك مزيد من القتال، فانه لم تتخذ أى خطوات لزيادة حجم جيوشهم أوكفاتها. كما لم تبذل أى محاولة للاتصال فيما بينهم، وطوال فترة الحرب رفض المصريون اطلاع ميرانهم فى الجبهة، الفيلق العربى، عن أى تفاصيل لخططهم، تكتيكية كانت ام استراتيجية .

وخلال الجولة الثالثة، التى وقعت بين اهدنتين فى منتصف شهر يوليو ركز الاسرائيليون على أهداف مختارة فى المناطق العربية. وفى ١٢ يوليو تم الاستيلاء على على مدينتى اللد والرملة المتجاورتين على السهل الساحلى شرقى تل أبيب واخلاؤهما من سكانهما فى غضون ساعات قليلة. وتبع ذلك هجوم فاشل آخر ضد الفيلق العربى عند اللطرون. وبعد ذلك بأربعة أيام سقطت الناصرة، آخر مدينة عربية فى الشمال. وانتهت المقاومة الجادة فى الجليل. ووقعت المرحلة الاخيرة من الحرب فى اكتوبر عندما اخترق الاسرائيليون المواقع المصرية فى الجنوب واستولوا على بئر سبع. ورجعت القوات المصرية إلى غزة وتركت الجبهة الواقعة إلى جنوب القدس، ولولا قوة من الفيلق

العربى، لاستولى الاسرئليون، ولاشك، على الخليل ولم يمض على ذلك أيام قليلة حتى طورت فلول جيش التحرير العربى نهائيا عبر الحدود اللبنانية وانتهى القتال. وفى أواخر عام ١٩٤٨م، كانت سوريا ولبنان وجيش التحرير العربى وتركت القتال بينما كانت القوات المصرية التى فقدت جنوب فلسطين كله تقريبا، محصورة فى غزة، ولم يثبت فى مواقعه غير الفيلق العربى وقوة عراقية فى شماله لكنهما لم يكونا فى حالة تسمح لهما بمواجهة الجيش الاسرائيلى بأسره، وعندما أعلن العراقيون، بدورهم عن نيتهم فى الانسحاب، اضطر شرق الاردن إلى توقيع هدنة، رغم أن ذلك كان يعنى التخلى عن سلسلة من القرى على بعد أميال قليلة من الساحل. ولم يكن الاسرائيليون قد استولوا على أى من هذه القرى وكانت كلها مخصصة للدولة العربية. لكن الاسرائليين طالبوا بها كثمن للسلام ولم يكن شرق الاردن فى موقف يسمح له بأن يجادل .

أما الشئ الوحيد الذى يدعو للغرابة فى حرب ١٩٤٨م هو عدم استيلاء الاسرائيليين على البلاد بأسرها رغم أن ذلك كان هدفهم الواضح، لقد كشف بعد ذلك كاتبان صهيونيان أن العملية التى استهدفت الاستيلاء على فلسطين الشرقية كلها ثم التخلى عنها فى أواخر عام ١٩٤٨م اذعانا للرأى العام العالمى. ويبدو أن القادة الاسرائيليين لم يكونوا مستعدين للمجازفة بوضعهم فى سبيل «احتمالات غير مؤكدة لعملية عسكرية أخرى، من شأنها أن تؤدى إلى تفاقم مشكلة اللاجئين العرب بشدة ويبدو انهم ندموا فيما بعد على حذرهم ففى عام ١٩٦٤، ألمح بن جوريون، رئيس الوزراء المتقاعد، إلى أن ذلك كان خطأ القادة العسكريين: «فقد كان يمكن لأرض اسرائيل أن تكون أوسع لو أن الجنرال موشى دايان كان رئيسا للاركان خلال حرب ١٩٤٨». وأنحى الجنرال آللون باللائحة على بن جوريون: فقد زعم أنه عندما أمر رئيس الوزراء بوقف اطلاق النار «كنا فى ذروة الانتصار... من الليطانى (نهر فى

لبنان) شمالا إلى صحراء سيناء فى الجنوب- الغربى. وكانت أيام أخرى قليلة من القتال كفيلة بتمكيننا من تحرير البلاد كلها وبالنسبة للمراقبين لابد أن يبدو غريبا أن الاسرائيليين غير مكتفين بمكاسبهم فقد كانوا فى اواخر عام ١٩٤٨ يسيطرون على اكثر من ثلاثة أرباع فلسطين ويفكرونفى الاستيلاء على ما تبقى .

بالنسبة للفلسطينيين لم تكن الهزيمة العسكرية أهم سمة للكارثة لقد هزموا على أى حال فى عام ١٩٣٨ واستطاع معظمهم مواصلة حياتهم على غرار ما كانوا من قبل يفعلون. بيد أن هذه الحرب كانت مختلفة اذ أن أكثر من نصف الشعب قد اقتلعوا من أرضهم، وحولوا إلى لاجئين ولم تتح لهم فرصة العودة إلى وطنهم .... هذا التشتت، وهذا الخروج الجماعى إلى البلدان المجاورة، هو السلسلة المحورية للتاريخ الفلسطينى المعاصر. وما من أحد يقدر ان يضم الفلسطينيين اليوم او يعرف افكارهم أو تطلعاتهم أو سلوكهم دون فهم المأساة التى تكمن فى جذور المشكلة الفلسطينية والسبب فى وقوعها .

لماذا تركوا بلادهم؟ وما الذى يمكن أن يدفع أمة من المزارعين الفلاحين وحرفى المدن الصغيرة إلى هجر أرضها وديارها؟ لقد صدق الناس فى الغرب لسنوات عديدة الرواية الاسرائيلية الرسمية، التى تزعم أن الخروج أعقب أوامر صريحة اذاعها رئيس الهيئة العربية العليا (المفتى) ومازال كثيرون يصدقونها: بل أن كتاب الرسائل إلى صحيفتى الجارديان والايلى تلجراف كثيرا ما يستشهدون بهذه الرواية حتى يومنا هذا. وقد قال لى صهيونى انجليزى بارز فى عام ١٩٧٩ : «لقد أذاع القادة العرب إلى العرب فى مناطق حيفا والجليل أوامر تدعوهم الى ترك فلسطين، وانهم سوف يعودون مع الجيوش الفاتحة حين يكافأون بغنائم النصر أنه اتهام شاذ وثبت بطلانه المرة تلو الاخرى، ومن الصعب معرفة ما الذى يأمل الصهاينة فى تحقيقه من وراء تكراره دون

توقف. ويبدو أن منطقهم فى ذلك هو أنهم لو تمكنوا من اثبات أن الفلسطينيين غادروا البلاد بمحض اختيارهم فان ذلك يبطل بطريقة ما حقهم فى العودة إلى وطنهم. ومن الصعب أن نرى السبب فى ابطال ذلك الحق، الناس فى العالم كله يغادرون اوطانهم فى وقت الحرب لأسباب متباينة. ومع ذلك، وأيا كان سبب هروبهم، فانهم جميعا يملكون نفس الحق فى العودة إلى الوطن بعد ذلك. على أى حال، فإن أحدا لم يقم أى دليل يثبت المزاعم الخاصة بالاذاعات. وقد جرت محاولات مستقلة فى الخمسينات لاثبات الحقيقة من جانب اثنين من الباحثين هما: الدكتور وليد الخالدى، والدكتور ارسكين تشايلدرز. فقد ذهب تشايلدرز إلى اسرائيل فى عام ١٩٥٨ كضيف على الحكومة وحاول أن يجد الدليل على تلك الاذاعات. ولما عجز الاسرائيليون عن تقديم الدليل قرر فحص تسجيلات الاستماع الاميركى والبريطانى لكل اذاعات الشرق الاوسط طوال عام ١٩٤٨، وذكر أنه «لم يوجد امر واحد أو نداء أو اقتراح يتعلق بمغادرة فلسطين من أى اذاعة عربية، داخل أو خارج فلسطين، فى عام ١٩٤٨، وتوجد تسجيلات استماع متكررة لنداءات عربية، بل ولأوامر صريحة، إلى المدنيين الفلسطينيين الا يبرحوا اماكنهم.

وثمة دليل آخر على موقف القيادة العربية ورد ضمن رسالة من اللجنة العربية العليا، بتاريخ ٨ مارس ١٩٤٨، تطلب من الحكومات العربية بشكل محدد التعاون فى منع الفلسطينيين من مغادرة بلادهم. وجاء بالرسالة: «لقد قررت اللجنة العربية العليا أن من مصلحة فلسطين الا يسمح لأى فلسطينى بمغادرة البلاد الا لظروف خاصة، كالاسباب السياسية أو التجارية أو الصحية القهرية. وفى الوقت نفسه، ففى القدس نفسها، أصدر احمد حلمى وحسين الخالدى بالفعل أوامر تحظر على أى انسان مغادرة المدينة دون تصريح.

أن الامر لا يقتصر على عدم وجود برهان لاثبات الزعم القائل بأن العرب قد رحلوا نتيجة لأوامر اذاعها قادتهم : فهناك ادلة دامغة تشير إلى أن المسئولية الحقيقية عن مشكلة اللاجئين يتحمل وزرها الصهاينة، وكما قال الكونت برنادوت، الوسيط الذى أرسلته الأمم المتحدة إلى فلسطين، قبل وقت قصير من اغتياله على أيدى الارهابيين الصهاينة فإن: «خروج العرب الفلسطينيين نشأ عن الذعر الذى تولد عن القتال فى مجتمعاتهم والشائعات المتعلقة بأعمال ارهاب أو طرد فعلية أو مزعومة»

لقد كرمن الطرد هو الوسيلة الاكثر شيوعا التى استخدمت ضد سكان حيفا واللد والرملة، وعديد من القرى فى الجليل، وفى حيفا وفقا لما نشرته صحيفة باليستاين بوست (الآن جيروزاليم بوست) الصهيونية شبه الرسمية، فإن «قوات الهاجاناه قد ... سحقت فى معركة دامت ثلاثين ساعة كل مقاومة، واحتلت العديد من المبانى الرئيسية مجبرة آلاف العرب على الفرار عن طريق الهرب المفتوح الوحيد ألا وهو البحر». وقد وصف كاتبان صهيونيان، جون وديفيد كيمشى، ماحدث لسكان اللد والرملة:

«فى يوم الحادى عشر من يوليو تحرك دايان وقواته بأقصى سرعة إلى اللد، وقصفوا المدينة وخلقوا اضطرابا ودرجة من الذعر بين صفوف سكانها.... فما كان العرب الذين يتألفون من ٣٠,٠٠٠ نسمة الا انهم هربوا أو دفعوا دفعا إلى الطريق المقضى إلى رام الله. وفى اليوم التالى استلمت المرحلة أيضا ولقى سكانها العرب نفس المصير. وقد نهب الاسرائيليون المنتصرون كلا من المدينتيين .

لقد كان الارهاب وذبح المدنيين من الاساليب المتطورة الاخرى التى استخدمها الصهاينة. ووفقا لما يذكره الأخوان كيمش مرة أخرى، فإن قتل القرويين العزل من السلاح قد بدأ فى ديسمبر ١٩٤٧ ، فور انتهاء مناقشات الأمم المتحدة لقد كانت وسيلة

رئيسية استخدمت فى اجبار عرب الجليل على الهرب عبر الحدود اللبنانية أو السورية، وفى عين الزيتونة، جرى احتجاز سبعة وثلاثين صبيا كرهائن ولم يشاهدوا بعد ذلك أبدا، بينما أخذ السكان الآخرون إلى مشارف القرية وأمروا بالرحيل. وقد وصفت إحدى سكان صفصاف (واسمها الآن سيسفونة) ماحدث لقريتها عندما استولت عليها القوات الإسرائيلية فى اكتوبر ١٩٤٨ .

«بينما كنا مسطفين، أمر جنود قليلون من اليهود أربع فتيات بمرافقتهم لحمل الماء للجنود. وبدلا من ذلك أخذوهن إلى بيوتنا الخالية واغتصبوهن. كما عصبوا حوالى سبعين من رجالنا وقتلوهم رميا بالرصاص، واحدا بعد الآخر، أمام أعيننا. وأخذ الجنود جثثهم وألقوا بها على الأسمنت الذى يغطى بئر القرية وأهالوا الرمل عليه».

لقد حدثت فظائع مماثلة فى عشرات من قرى الجليل وأيضا بالقرب من الخليل. ووفقا لما يذكره جندى إسرائيلى، وهو عضو فى حزب اللايام، فإن القوات الإسرائيلية ارتكبت مذبحة رهيبة فى قرية دويمة السنية الواقعة بين الخليل والساحل .

لقد قتلوا حوالى ثمانين إلى مائة عربى، من النشاء والأطفال بتهشيم جماجمهم بالهراوات.... ومن بقى فى القرية من رجال ونساء تركوا فى البيوت دون غداء ثم جاء خبراء النسف ونسفوا البيوت. وأمر أحد الضباط خبيرا للألغام بوضع امرأتين عجوزتين فى البيت الذى كان على وشك نسفه. ورفض خبير الالغام قائلا أنه لن يطيع غير الأوامر الصادرة اليه من قائدة المباشر. فأمر الضابط جنوده بوضع الامرأتين العجوزتين فى البيت وتنفيذ العملية البشعة. وتفاخر جندى آخر بأنه إغتصب امرأة عربية ثم قتلها رميا بالرصاص. وامراة عربية لم يزد عمر رضيعها عن يوم واحد شغلت أعمال التنظيف فى الفناء لمدة يوم أو يومين ثم قتلت هى ورضيعها رميا بالرصاص، أن القادة المثقفين حسنى السلوك ممن كانوا يعتبرون طيبين تحولوا إلى قتلة منحطين، وقد حدث هذا ليس

فى معمعان المعركة والحماس الأعمى، وانما هو نتيجة المخطط المطرد والابادة. فلما كان الباقون من العرب أقل كلما كان ذلك أفضل.

لقد كان المقصود من وراء هذه المذابح هو دفع القرويين فى المناطق المجاورة إلى الهرب هلعا. وبعد أن «تم الذبح الوحشى المعتمد»، كما وصفه جاك دى رينيه، ممثل الصليب الاحمر، لـ ٢٥٤ مدنيا فى ديرياسين، جرى اقتياد الناجين التعساء علنا عبر شوارع القدس من أجل بث الرعب بين قطاعات السكان الأخرى، وقد وصف آرثر كيلر حمام ديرياسين بأنه «العامل السيكولوجى الحاسم فى هذا الخروج المثير»، وقد استغلة الصهاينة استغلالا حاذقا. ويتذكر مبشر مسيحى فى القدس أحد مكبرات الصوت وهو يذيع هذه الرسالة إلى السكان العرب: «مالم تغادروا دياركم، فإن مصير ديرياسين سوف يكون مصيركم»، ووفقا لما يذكره مناحيم بيجين، الذى كان مسئولا عن المذبحة، فإن عرب حيفا قد هرعوا إلى زوارقهم وهم يصرخون «ديرياسين».

وكتب جاك دى رنييه يقول: «كان لما حدث فى ديرياسين أصداء بالغة. فقد نشرت الصحف والاذاعة أخبارها فى كل مكان بين العرب واليهود على حد سواء. وبهذا الشكل تراكم الرعب العام بين صفوف العرب، وهو رعب أثاره اليهود بأسلوب خبيث، وتحت تأثير الخوف، ترك العرب ديارهم لكى يجدوا ملاذا بين أشقائهم، وفى البداية جرى اخلاء مزارع منعزلة، ثم قرى، وفى النهاية أخليت مدن بأكملها.

كان الضغط السيكولوجى عنصرا حيويا فى الهجوم الصهيونبى وغالبا ما كان أكثر تأثيرا من الإرهاب. وقد حبك المسئولون الإسرائيليون مثل هذا الضغط حبكة جيدة. وقد وصف هارى ليفين، وكان صحفيا مجريا عمل آنذاك فى هيئة الإذاعة اليهودية فى القدس أصبح أول سفير لإسرائيل لدى نيوزيلنده وأستراليا إحدى سمات

الحملة الصهيونية كان أحد مكبرات الصوت يجلجل باللغة العربية، حين كانت الهاجاناه تدعو المدنيين العرب إلى ترك المنطقة قبل الخامسة والربع صباحا مرددة «اشفقوا على زوجاتكم وأطفالكم واخرجوا من حمام الدم هذا. استسلموا لنا بأسلحتكم لن يلحق بكم أذى. أو اخرجوا إلى طريق أربحا، الذى مازال مفتوحا أمامكم. أما اذا بقيتم، فسوف تحل بكم الكارثة وقد كتب ليوهيمان، محارب إسرائيلى قديم فى حرب ١٩٤٨، عن أساليب أكثر تعقيدا:

«بينما ساد الرعب المنتشر فى ربوع الأحياء العربية، جاء الإسرائيليون بسيارات جيب أخذت تذيع «أصوات الفزع» التى سجلها والتى كان من بينها صرخات وعويل ونواح لنساء عربيات، وصفير صفارات الانذار ورنين أجراس انذار الحريق يتخللها صوت كئيب يناشد باللغة العربية «انقذوا أرواحكم أيها المؤمنون. فاليهود يستخدمون الغازات السامة والأسلحة الذرية. استحلفكم بالله أن تنجوا بأرواحكم» ، أما المفاجأة الأهم فمصدرها بيجال آللون، قائد قوات الهاجانا فى الجليل. وكان آللون عضوا فى المؤسسة السياسية والعسكرية الإسرائيلية لمدة ثلاثين عاما والفقرة التالية تعبر بجلاء عن مواقف القادة الإسرائيليين تجاه الفلسطينيين:

«لقد استبان لنا أن ثمة حاجة إلى تطهير الجليل الداخلى واقامة امتداد اقليمى يهودى فى منطقة الجليل الأعلى بأسرها، ولذا بحثنا عن وسائل لانضطر معها إلى استخدام القوة لندفع إلى الرحيل عشرات الآلاف من العرب الغاضبين الذين بقوا فى الجليل. لقد حولنا استخدام تكتيك استغل الانطباع الذى خلقه مصير صفد والهزيمة (العربية) فى المنطقة التى طهرتها عملية ميتاتية (العطية السابعة فى خطة داليت)— وهو التكتيك الذى نجح بصورة خارقة .

«لقد جمعت كل العمد اليهود ممن كانوا على اتصال بالعرب فى قرى مختلفة وطلبت اليهم أن يهموا فى آذان بعض العرب بأن تعزيزات يهودية ضخمة قد وصلت إلى الجليل وأنها سوف تحرق كل قرى الحوله. وأن عليهم أن ينصحوا هؤلاء العرب، بوصفهم أصدقاء لهم، بالفرار قبل فوات الاوان. وحقق ذلك التكتيك هدفه تماما. فقد سقط مبنى مركز الشرطة فى هلسا فى ايدينا دون طلقة واحدة. وتم تطهير المناطق الشاسعة»

كانت هذه الفقرة جديرة بأن ننقلها بالتفصيل لأن قائدا إسرائيليا، ووزير خارجية ونائب لرئيس الوزراء السابق، يعترف هنا بشئ لاتزال تنفيه الدعاية الإسرائيلية. فوفقا لرواية الدعاية، جاء هرب اللاجئين اثر تعليمات صريحة اذاعها «المفتى. وقد زعمت جولدا مائير طيلة حياتها بأن مشكلة اللاجئين ليست مسئولية إسرائيل ولايزال المبررون الصهاينة فى الصحف الغربية يرددون الخرافة التى تتحدث عن الاذاعات. لكن هنا سياسيا إسرائيليا بارزا يشرح بالتفصيل كيف أسهم هو شخصيا فى مشكلة اللاجئين. صحيح أنه لم يذكر المذابح، فذلك أكثر مما نتوقعه منه لكنه يكشف بوضوح أن العرب لم يرحلوا من تلقاء أنفسهم أو استجابة لرغبات المفتى فقد طردوا على نحو مؤكد عاما. وعلاوة على ذلك فإنه يكشف دافع الصهاينة من وراء الطرد، وربما يكشف، عن غير قصد، موقفهم الحقيقى تجاه الفلسطينيين. فهو يتحدث عن طرد العرب ثلاث مرات فى هاتين الفقرتين، لكنه بدلا من استخدام كلمات مثل «الطرد» أو «التخلص» يستخدم، فى كل مرة، الفعل «يطهر» كما لو كان العرب، سكان البلاد الأصليين يلوثونها بصورة ما. وعندما «طهر» آللون الجليل من العرب، فإنه كان، وكان يعلم ذلك، يعاملهم كقذارة بالمعنى الحرفى للكلمة. ظاهرة تبينها آشر جينسبرج قبل ذلك بخمسين عاما، ومازال الكثيرون من زوار إسرائيل يتبينونها اليوم .

وفى عام ١٩٧٩، أضاف اسحق رابين، نائب آللون آنذاك، دليلا آخر إلى رواية اللاجئين. فقد روى رابين، الذى أصبح فى وقت لاحق رئيسا للأركان ورئيسا للوزراء، فى مذكراته كيف أمر بن جوربون بطرد سكان اللد والرملة :

سرنا إلى الخارج يرافقنا بن جوريون. وكرر آللون سؤاله: ما العمل مع السكان؟ «ولوح بن جوريون بيده فى اشارة تقول» اطردوهم... أن سكان اللد لم يرحلوا طواعية. ولم يكن هناك سبيل لتجنب استخدام القوة وطلقات الانذار من أجل دفع السكان إلى السير مسافة عشرة إلى خمسة عشر ميلا إلى النقطة التى التقوا عندها بالفيلق العربى .

وهكذا بضربة واحدة نسف سياسى إسرائيلى الخرافة الإسرائيلية الرئيسية. وانزعج إسرائيليون آخرون وسارعت لجنة رقابة تابعة لمجلس الوزراء إلى ازالة هذه الفقرة. ولولا مترجم الكتاب الذى سرب الرواية إلى نيويورك تايمز، فلربما ظل هذا الاعتراف طى الكتمان إلى الابد.

كان هناك، بطبيعة الحال، بعض الإسرائيليين الذين رفضوا قبول الاكذوبة المتعلقة باللاجئين والذين فعلوا كل ما فى وسعهم لفضحها. وبعد أن قرأ ناتان تشوفش مقالا للحاخام مورد خاى كابلان اقتصر على ترديد الرواية الرسمية حول الخروج، كتب إلى صحيفة جويش نيوزليتر (٩ فبراير ١٩٥٩) قائلا :

إذا كان الحاخام كابلان يريد حقا معرفة ماحدث، فاتنا نحن المستوطنين اليهود القدامى فى فلسطين الذين شهدنا القتال يمكننا أن نبين له كيف، وبأى طريقة قمنا نحن، اليهود، باجبار العرب على ترك المدن والقرى التى لم يكونوا يريدون تركها باختيارهم. لقد طرد بعضهم بقوة السلاح، ودفع آخرون إلى الرحيل بالخديعة والكذب والوعود الزائفة. وتكفى الاشارة إلى مدن يافا، واللد، والرملة، وبئر سبع ،وعكا بين مدن أخرى لاحصر لها، لقد جئنا وحولنا العرب إلى لاجئين يحيون حياة مأساوية، ومع ذلك

نتجاسر على الافتراء عليهم والتشهير بهم، وتلويث أسمهم، وبدلا من أن نشعر بالخزى الشديد لما اقترفناه، وأن نحاول محو بعض الشر الذى ارتكبناه، نبرر اعمالنا البشعة بل نحاول تمجيدها .

أن العدد الدقيق للاجئين لم يحدد بدقة قط. فتقرير بعثة المسح الاقتصادى التابعة للأمم المتحدة فى عام ١٩٤٩م، قدر العدد الاجمالى بـ ٧٢٦,٠٠٠ لاجئ، أما مكتب اللاجئين التابع للجنة المساحة الفلسطينية التابعة للأمم المتحدة فقد قدر عددهم بـ ٩٠٠.٠٠٠ لاجئ. وربما كان الرقم الصحيح بين هذين التقديرين. هكذا بحلول شتاء ١٩٤٨ ، عندما انتهى القتال كان حوالى ٨٠٠.٠٠٠ فلسطينى قد اصبحوا مشردين، لقد وجد البعض ملاذا لدى اقربائهم فى بلدان أخرى، أما معظمهم فيسكن المخيمات فى لبنان وسوريا وشرق الأردن، أو فى الجزئين الصغيرين الباقيين من وطنهم، قطاع غزة والمنطقة الخلفية للقدس، التى عرفت بعد ذلك باسم الضفة الغربية لنهر الأردن ، كانوا يتوقعون أن يظلوا لاجئين لمدة أسابيع، وفى أسوأ الاحوال لمدة أشهر بعدها يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم.

والأمم المتحدة، التى كانت قد أسهمت اسهاما كبيرا فى قيام إسرائيل، قد طلبت من الصهاينة السماح بعودة اللاجئين. وقد كتب الكونت برنادوت، وسيط الأمم المتحدة فى فلسطين، إلى الأمين العام للأمم المتحدة : «سوف يكون انتهاكا لأبسط مبادئ العدالة إذا ما حرم ضحايا النزاع هؤلاء من حق العودة إلى ديارهم بينما يتدفق المهاجرون اليهود على فلسطين ويشكلون فى الواقع خطر أن يحلوا بصفة دائمة محل اللاجئين العرب الذين عاشوا فى الأرض قرونا عديدة»، واتفقت الجمعية العامة مع برنادوت وأوصى قرارها الصادر فى ديسمبر ١٩٤٨ بـ «ضرورة السماح للاجئين الراغبين فى العودة إلى ديارهم والعيش فى سلام مع جيرانهم بأن يتمكنوا من ذلك

فى أقرب وقت عملى مع دفع تعويضات عن ممتلكات أولئك الذين يؤثرون عدم العودة.

لكن الإسرائيليون الذين قاموا بطرد العرب لم يكن من الممكن تصور أنهم سوف يوافقون على عودتهم مرة أخرى. وقد بين موشى شيرتوك وزير الخارجية الجديد، أن الاقتراح كان مستحيلا: فقد كتب إلى برنادوت فى أول اغسطس، معلنا أن اعادة دمج العرب العائدين فى الحياة العادية بل وحتى مجرد اعاشتهم، سوف يخلق مشكلة لايمكن تذليلها، أما السبب فى تعذر تذليلها فليس واضحا، وعلى أى حال، فإن مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، والذى زعم القادة الإسرائيليون أنهم قبلوه كان يتضمن أن الدولة اليهودية سوف تضم عددا من السكان العرب يماثل السكان اليهود. وماكتبه شيرتوك، قد جاء بعد ثلاثة أسابيع فقط من طرد السكان من الرملة واللد. وبصرف النظر عن حقيقة أن هاتين المدينتين قد نهبتا، الأمر الذى ربما جعل الحياة غير مريحة بصورة مؤقتة، فقد كان من الممكن تماما للعرب العودة إلى ديارهم ومواصلة حياتهم كما فى السابق. وإذا كان اعادة الدمج بعنى مجر عودة إلى الوضع السابق، فمن الصعب أن تصور كيف يمكن لذلك أن يشكل معضلة يتعذر تذليلها. لكن الإسرائيليين مضوا فى عنادهم ولم يعد العرب. وكررت الجمعية العامة قرارها وكررت إسرائيل رفضها. وفيما بعد قال بن جوريون فى الكنيست «أن إسرائيل ترفض رفضا قطعيا الاقتراح الغادر الذى يدعو إلى منح اللاجئين حرية الاختيار، واليوم وبعد اثنين وثلاثين عاما لاتزال الامم المتحدة تعيد كل سنة تأكيد ذلك القرار ولا تزال إسرائيل كل سنة تتجاهله .

لقد زعم القادة الإسرائيليون أن الخروج العربى كان غير متوقع تماما. وكتب بن جوريون فى سنة ١٩٥٢ قائلا «أن الصهيونية السابقة لقيام الدولة لم تكن حتى تتصور حدوث مثل هذا الشئ ووصف وايزمان الخروج بأنه « تبسيط معجز لمهمات إسرائيل»

ولكن هل كان الخروج بحق معجزة وألم تتصور الصهونية حقا حدوث مثل هذا الشيء؟ ألم يرغب هيرتزل فى طرد السكان المفلسين عبر الحدود؟ الم يقترح وايزمان توطين العرب فى شرق الاردن؟ ألم يعرف صهاينة عديدون من زانجويل إلى بيجين دائما انه لابد من طرد العرب؟ كيف إذا كان سيمكن لوزايزمان أن يحقق هدفه فى جعل فلسطين يهودية مثلما انجلترا انجليزية؟ كلا أن ١٩٤٨، لم تكن معجزة لم يحلم بها أحد، بل كانت خطوة متعمدة ومنطقية فى تقدم الصهيونية. وقد اتخذت خطوة أخرى فى عام ١٩٦٧م، عندما تم الاستيلاء على المناطق الباقية من فلسطين وأصبحت مناطق أخرى قليلة «نظيفة» من العرب. وخلقت مشكلة لاجئين ثانية وكرر التاريخ نفسه. فهل سمح للاجئين بالعودة هذه المرة؟ كلا، كلا، لم يسمح لهم طبعا. ومن المؤكد أنك يجب أن تفهم؟ لقد كان من شأنهم أن يمثلوا مشكلة لايمكن تذليلها. أو كما قال دايان بشكل أكثر أمانة للاذاعة المرئية الامريكية عندما سئل عما اذا كانت اسرائل لاتستطيع استعيعاب اللاجئين وسكان الاراضى التى تم الاستيلاء عليها: «أن ذلك ممكن من الناحية الاقتصادية، لكننى أعتقد أن ذلك لايتمشى مع أهدافنا فى المستقبل».

الفصل الثانى

المنفيون

استمر الخروج الفلسطينى طيلة صيف ١٩٤٨، المفزع الشديد الحرارة كان بدون قيادة ودون تنظيم، حيث كان طوابير طويلة من الرجال والنساء من كل الأعمال تشق طريقها إلى أقرب ملاذ .

كانوا يحملون أطفالهم الصغار والقليل من المؤن وربما حزمة من الفراش ومفاتيح بيوتهم، فقد كانوا جميعا يعتقدون أنهم سوف يعودون بعد القتال سواء كسب جانبهم أم خسر. ولا تزال أسر عديدة تحتفظ بتلك المفاتيح .

لقد ذهب البعض على بعد أميال قليلة فقط داخل الحدود اللبنانية وانتظروا توقف القتال: ومع امتداد الأسابيع وامتداد حاجتهم إلى الغذاء والماء انطلقوا إلى صور وصيدا، ثم ذهب معظمهم إلى بيروت فى وقت لاحق. زوتوجه آخرون إلى سوريا، إلى دمشق فى العادة، وبقى قليلون فى مرتفعات الجولان، وقد حكم عليهم بالعيش على مرأى من ديارهم على الجانب الآخر من بحيرة طبرية. وهربت اعداد ضخمة إلى المناطق غير المحتلة من فلسطين وأن كان الكثيرون منهم قد نقلوا مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يسمح لهم بالاستقرار. أما سكان يافا، الذين كانوا قد هربوا من مدينتهم قبل الاستيلاء عليها فى شهر مايو، فقد لجأوا إلى اللد والرملة، وفى يوليو طردوا مرة أخرى مع ٦٠.٠٠٠ نسمة أخرى واجبروا على صعود التلا الوعرة إلى رام الله، وهى مدينة كانت قد امتلأت بالفعل باللاجئين من القدس الغربية. وعندما بدا أن الإسرائيليين يستعدون للاستيلاء على رام الله ايضا، رحل الكبيرون مرة اخرى وعبروا نهر الاردن. وفى جنوب فلسطين وصل أكثر من ٢٠٠.٠٠٠ لاجئ إلى قطاع غزة المكتظ بالسكان .

وهكذا بدأ النفى بكل ما انطوى عليه من بؤس وتشرد والفلسطينى دون سواه هو الذى يستطيع أن يصف ما مر به من يأس وقنوط نتيجة لكونه يعيش بغير دولة وبدون انتماء، ومن مهانة أن يكون لائجئا وغريبا فى كل بلد يسمح له بزيارته الاحساس بأنه لايمكن أن يكون الا حيث المعاناه، وبأنه يعيش على الاحسان وسوف يطرد اذا ما أساء التصرف، ومن مذلة كونه غريبا، ومن حمله على انتظار تصاريح العمل والتأشيرات إلى مالا نهاية لأنه لايملك جواز سفر خاص به، وفوق هذا كله الحنين إلى العودة إلى الوطن. لقد وصف فواز تركى، فى كتابة «المحرومون» بسخرية لاذعة كيف جرى ترحيله من لندن قبل أن يغادر المطار، وهو يحمل ورقة تعتبره «مشكوكا فى جنسيته» ومن ثم لايجوز السماح له «بدخول مملكة صاحبة الجلالة» وقد أضاف «أن مملكة صاحبة الجلالة لم تكن بحاجة إلى تصريح عندما دخلت بلادى وجردتنى من جنسيتى» .

لقد أصبح الفلسطينيون أمة من الهائمين الذين تجولوا دون استقرار فى ربوع العالم العربى وخارجه، يواجههم بشكل متعاقب الشك والتجاهل، ويبحثون دون جدوى عن سبيل لاشباع احساسهم القوى بالشخصية المتميزة. وقد حاول ثيو كنعان اعادة خلق فن القدس المعمارى فى لبنان. وظل جيرا أجيرا سنوات عديدة يكتب من منفاه فى بغداد قصصا قصيرة عن بيت لحم والقدس، ليتجه فى وقت لاحق إلى الروايات، ويكتب دون توقف عن محنة المنفى الفلسطينى فى العالم العربى. ومات توفيق صايغ فى كاليفورنيا وموضوع النفى يسيطر على الشعر الذى كرس له حياته.

وربما كان متأصلا فى دورهم أن يقضى المثقفون بقية حياتهم هائمين فى أرجاء العالم، باحثين عن شيء لن يجدونه أبدا، ولقد كان بحثا محكوما عليه بالفشل دائما، لأن أحد منهم لم يكن قادرا على التخلص من هويته وإكتساب هوية شعب آخر. ورحل وليد الخالدى، الذى عاشت عائلته فى القدس لأكثر من الف سنة، إلى لندن

وأصبح مدرسا فى اكسفورد. لقد كان يتحدث اللغة الانجليزية ويكتبها على نحو أفضل من معظم الأكاديميين البريطانيين لكنه ظل فلسطينيا عربيا. وعندما تواطأت بريطانيا مع الإسرائيليين فى غزو السويس فى عام ١٩٥٦، استقال من منصبه ورحل إلى بيروت.

ولعل الامر كان اسهل بالنسبة إلى رجال الاعمال والتجار، كان حنينهم إلى فلسطين، ولا شك، قويا وعاطفيا كحنين المثقفين، بيد أنهم لم يكونوا يبحثون عن دور، إذ كان لهم دور بالفعل حين أتاحت الأهمية المتزايدة للنفط والتوسع الاقتصادى للعالم العربى فرصا غير متوقعة للطبقات التجارية والمهنية الفلسطينية. وقد شارك أكثرهم فى الازدهار العظيم فى بيروت التى أصبحت فى الخمسينات، بعد انهيار الاسكندرية والاستيلاء على حيفا، أعظم ميناء فى شرقى البحر المتوسط. وبرز الفلسطينيون فى دنيا المصارف والتجارة اللبنانيية وتمكن قليل منهم من الاندماج فى المجتمع اللبنانى. فاشتغلوا بالأعمال التجارية وأنشأوا المصارف وأقاموا شركات الانشاءات الخاصة بهم. ويعتبر فؤاد السيد مثالا حسنا لرجل الاعمال الفلسطينى الذى تمكن من بناء حياة ثانية فى بيروت. ففى عام ١٩٤٨، غادر يافا مع أسرته الناشئة للإقامة مع أقارب زوجته فى لبنان، وقد توقع أن يعود إلى بلاده فى غضون اسبوعين، حيث يرجع إلى بيت الأسرة العتيق المحاط ببيارات البرتقال. لكن لم يسمح له بالعودة والى اليوم، بعد اثنين وثلاثين عاما، لم يربيته القديم. وقد خسر فى الكارثة كل ما كان يملك باستثناء محتويات حقيبتين. كانت الأسرة قد استقرت فى بيروت وأخذ ببطء يقوم بمشروع للإستيراد. وبالعمل الشاق أصبح شخصية ثرية ومرموقة للغاية فى بيروت. وفى الوقت نفسه، أصبحت زوجته واحدة من أبرز نساء لبنان الحديث، لقد عملت مع الصليب الأحمر، والجامعة الأمريكية، كما أشرفت على مهرجان بعلبك الدولى وقدم لها السفير البريطانى وسام الإستحقاق وأصبحت عائلة فؤاد السيد، من كافة الوجوه

أسرة لبنانية ومع ذلك لم ينسوا قط أن بيتهم كان فى فلسطين. وفؤاد السيد شأنه شأن الكثيرين من الفلسطينيين، لديه نزعة قوية تدعو إلى العجب باتت حاجة ملحة وهاجسا فى آن واحد هى أن يتحدث عن وطنه. وأن يصف باستفاضة جمال يافا وبيارات برتقالها كما أنه، مثل آخرين كثيرين، يتحدث دائما عن يافا كما لو أنها لا تزال ميناء الأربعينات القديم الساحر وليس ما صار اليه من مكان يدعو إلى الخجل حيث تحول إلى ضاحية مهجورة ومهملة من ضواحى تل أبيب، استؤصلت بيارات برتقالها وملئت بالأسمنت .

ومع ذلك كانت كل هذه الجماعات من مثقفين ورجال أعمال ومهنيين هى فى واقع الأمر الجماعات المحظوظة. فكان لديها ما تستطيع أن تقدمه من مهارات كما كانت قادرة على أن تعود نفسها، وعلى أية حال كان بوسعها أن تختار مكان نفيها الأمر الذى حرم منه أربعة أخماس الفلسطينيين الذين كانوا يشكلون العمود الفقرى للمجتمع الفلسطينى– الفلاحون ومن يعولونهم والعمال غير المهرة. الفلاحون الذين طردوا من أرضهم وأصبحوا يحيون فى مدن الاكواخ فى حيفا. لم يكن لدى هؤلاء ما يستطيعون تقديمه للبلدان المضيفة التى كان لديها ما يكفى من العمال الزراعيين والعمال غير المهرة المحليين. وهكذا عندما بدا واضحا أنه لن تكون هناك عودة سريعة إلى الوطن، ذهبوا إلى مخيمات اللاجئين حيث بقى معظمهم.

وقد أقيمت المخيمات على أى أرض متاحة، مساعدة وكالة الامم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين فى الشرق الأدنى، وتجمعت مخيمات عديدة حول المدن الكبرى عمان، بيروت، ودمشق حيث قد تتاح لهم فرصة للعثور على عمل. وفى الأردن أقيم بعضها فى الصحراء، وفى بلدان أخرى، على أرض وعرة جرداء أو على مجمعات قديمة كانت الجيوش الفرنسية والبريطانية استخدمتها فى وقت من الأوقات.

وفى البداية، سيق اللاجئون إلى ثكنات، حيث كانت أسر عديدة تسكن فى غرفة واحدة. أو تحشر فى خيام تبرع بها الصليب الأحمر وهيئات مماثلة. ويتذكر العليم ذلك الشتاء الرهيب فى عام ١٩٤٨- ١٩٤٩، أنه رأى اثنى عشر شخصا رؤوسهم فى خيمة وأرجلهم فى المطر خارجها. وبعد أربع سنوات كانت غالبية لاجئى المخيمات لاتزال تعيش فى الخيام. لقد كانت الاحوال فى تلك الاماكن دون استثناء، مقززة، وفى عام ١٩٥٥، قارنها حاخام أميركى بمخيمات اللاجئين اليهود فى المانيا، واعتبرها أسوأ من الأخيرة، وكانت حصص الغذاء بائسة، فهى كما وصفها تقرير لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين تكفى لتجنب الموت جوعا أو أكثر بقليل «ولم تكن هناك وسائل صحية تذكر إذا لم تكن هناك شبكة صرف صحى ولاخدمات طبية أولية ووفقا لاحصاءات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين بلغ معدل وفيات الأطفال فى مخيم قلندية خارج رام الله ١٧٢ من كل ١٠٠٠ رضيع فى ١٩٥٤- ١٩٥٥.

ويعد مخيم قلندية أحسن حالا اليوم، فقد أزيلت الخيام وكذلك المراحيض العامة. فتدريجيا خلال الخمسينات، انتشرت أكواخ وكالة غوث وتشغيل اللاجئين فى ربوع المخيمات. وأحجام هذه الاكواخ بالأمتار ٣× ٣و٣× ٣,٢ تبعا لحجم الأسرة، بالاضافة إلى بضعة أمتار مربعة تتألف منها «حظيرة» خلفية، حيث يمكن للاجئين تربية الماعز أو عدد قليل من الدجاج، أو حتى بناء غرفة أخرى. وبمرور السنين أدخلت تحسينات اضافية- فمعظم المخيمات بها كهرباء ومياه نقية عند نقاط المياه العامة- لكنها لا تقلل كثيرا من التعاسة واليأس. هذا فضلا عن أنه نتيجة لمعدل الانتاج المرتفع، أصبح العديد من المخيمات مكتظا بالسكان على نحو خطير: فمخيم الكم، الذى خصصته وكالة غوث وتشغيل اللاجئين لـ ٥,٠٠٠ شخص أصبح يضم ١٧,٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٥. وفى المخيم المتواجد عند الدهيشة، فى منتصف الطريق بين بيت لحم والخليل، توجد أسر عديدة بكل منها اثنى عشر طفلا ؛بل هناك

أسر بها سبعة عشر طفلا، وحتى أسر بهذا الحجم ينتظر منها أن تعيش فى كوخ وكالة غوث وتشغيل اللاجئين. ولايمكن لأى انسان حدث أن زار مخيم فلسطينى أن ينسى ما رآه أو اليأس الذى آحس بوجوده: فهناك الحظائر الحقيرة، بأسقفها المصنوعة من الصفيح أو الحديد المثبت بالأحجار لمنعه من السقوط، والجدران المصنوعة من علب البنزين، والنباتات القليلة التى تنمو فى الصفائح الصدئة وسحب الذباب، والرائحة الكريهة الصادرة عن الحيوانات والبراز، والطوابير الطويلة من النساء المصطفات للحصول على الارز أو الكيروسين أو كيلوات قليلة من الدقيق، وفوق كل شيئ الوجوه، وجوه النساء المكدودة، والخالية من التعبير، بعد أن انهتها سنوات من حمل الماء والاحمال الثقيلة، ووجوه الأطفال القذرة، ذوى العيون الواسعة ووجوه الرجال الذين يتدافعون فى حزن دون أن ينبثوا ببنت شفه .

ويقع مخيم ويفل فى وادى البقاع فى لبنان بالقرب من المعابد الرومانية العظيمة فى بعلبك. لقد كان تكنات جيش قديمة تحيط بها حظائر اللاجئين، وهى مكان مهمل ومقفر، ولم يطرأ تحسن يذكر على أحوال نزلائه منذ عام ١٩٤٨ . ففى عام ١٩٧٥ ، كان لايزال المبنى والمراحيض بدون أبواب وكان السقف يسرب المياه من أماكن عديدة، وكانت الغرف الضيقة قد قسمت بكتل من الاسمنت وبقطع من الورق المقوى، وفى كل غرفة تعيش أسرة بصرف النظر عن عدد افرادها. وفى بعض الحالات كان الناس يحشرون معا فى نفس الغرفة لمدة خمسة عشر يوما. وكانوا يحصلون على حصص أساسية من الدقيق والسكر والارز والسمن ولاشيئ غير ذلك .

وكان الاطفال يعانون من سوء التغذية كما كان كثيرون منهم يعانون من الانفلونزا، ولم يكن فى المخيم مكان للعب، أما بالنسبة للرجال فلم يجدوا عملا سواء هناك أو فى بعلبك، وكان الذهاب إلى أى مدينة كبيرة رحلة طويلة شاقة .

أن حياة اللاجئين تعنى، أولا وقبل كل شيئ؛ المهانة، تعنى أنه يتعين على المزارعين الذين كانوا ذات يوم يفلحون أراضيهم الخاصة أن يختاروا بين البطالة وبيع أوراق اليانصيب، وعلى النشاء الانتظار فى الطوابير من أجل حفنات من الأرز والسكر، أنها تعنى أن يقف الأطفال حفاة على طول طريق المطار فى بيروت، يحاولون بيع اللبان لسائقى السيارات وتعنى الخوف وعدم الأمان، أنها تعنى كذلك الاذلال الشديد الدائم من جراء التدخل المستمر من جانب قوه شرطة بلد آخر، انها تعنى التعرض لسخرية واستهزاء السكان المحليين، الذين لن يسمحوا للاجئين بنسبان أنهم غرباء، ويتذكر فواز تركى احد مهرجى الشوارع فى بيروت وهو يطلب من قرده أن يبين لجمهور المتفرجين كيف يلتقط الفلسطينى حصته من الغذاء، ويتذكر آخر من سكان المخيمات الأطفال اللبنانيين الهازئين الذين طلبوا منه أن يريهم ذيله، أما سكان جنوبى لبنان، الذين كانوا قبل عام ١٩٤٨م أكثر تخلفا بكثير من الفلسطينيين، فقد اطلقوا على مخيم عين الحلوة قرب صيدا اسم «حديقة الحيوان» .

ولعل أبرز سمة محطمة للمعنويات لحياة المخيم هى عدم توفر فرص العمل. وكثيرا ما يقال أن البلدان الضيفة كان يمكنها بل ومن واجبها أن تبذل جهدا أكبر لتوفير العمل للاجئين. لكن فلسطينى المخيمات يتألفون أساسا من مزارعين أو عمال غير مهرة وصلوا إلى الأردن، وسوريا، ولبنان عندما كان سكان هذه البلدان قد أخذوا يتركون الأرض فعلا بأعداد ضخمة ويبحثون عن عمل فى المدن. لقد زاد عدد سكان بيروت عشرة أضعاف منذ الثلاثينات، وبحلول عام ١٩٧٠ ، كانت المدينة واحدة من المدن الأربع أو الخمس الأكثر ازدحاما فى العالم وكانت تضم حوالى نصف سكان البلاد، كان ذلك أساسا نتيجة الكساد الزراعى فى الخمسينات والستينات الذى دفع عشرات الآلاف من صغار الفلاحين إلى البحث عن عملاً يسير فى العاصمة .

ولايختلف الوضع فى سوريا عن ذلك، ولقد دعا الكثيرون فى الغرب أمثال والترلاكور، مدير معهد التاريخ المعاصر فى لندن، إلى اعادة توطين الفلسطينيين فى المناطق القليلة السكان فى سوريا حيث يمكنهم بدء الإشتغال بالزراعة من جديد. لكن يبدو وأنهم ليسوا على دراية بحقيقة أن سوريا عاجزة عن مواجهة سكانها الريفيين .

أن سكان دمشق أكثر من مليونين ويتزايدون، ذلك أن مئات العمال الزراعيين العاجزين عن أن يجدوا عملا فى الريف أو فى مدن الاقاليم، يفدون إلى هناك كل اسبوع .

لقد كان طبيعيا فى مثل هذه الظروف أن يتعذر على اللاجئين مواصلة العمل فى الأرض. وأفضل ما كان بوسعهم أن يأملوا فيه هو العمل غير الماهر فى أعمال البناء، وهو القطاع الأكثر توسعا فى الاقتصاد اللبنانى حتى عام ١٩٧٥ ، وحتى هذا العمل لم يكن متوفرا بصورة مرضية، اذ كلما كان الكثيرون من اللاجئين عاجزين عن الحصول على تصريح عمل شعر أرباب العمل أن من حقهم دفع أجور منخفضة، وإلى جانب ذلك، فإن أكثر من ثلاثة أرباع اللاجئين الذين يستخدمهم أشخاص آخرون كانوا يعاملون على أساس الأجر اليومى وكان بالامكان فصلهم دون سابق انذار. وبالنسبة إلى الذين لم يستطيعوا العمل حرفيين، أو أصحاب حوانيت داخل المخيم، فإن النوع الآخر الوحيد من الأعمال الذى كان يمكن للاجئ غير المتعلم أن يصبوا اليه بصورة واقعية هو العمل كخفير ليل أو بواب أو بائع فاكهة وخضروات على عربة يد .

وهناك شيئ آخر يعجز دعاة اعادة التوطين عن تقديره، ألا وهو معارضة الفلسطينيين أنفسهم لكل المخططات الرامية إلى توطينهم بصفة دائمة خارج فلسطين. فاللاجئون لايريدون التوجه إلى أى مكان آخر غير وطنهم. وهو فخورون بهذه الحقيقة: وكثيرا ما يزعمون أنهم أول لاجئين فى التاريخ يرفضون قبول وضع اللاجئين واعادة

التوطين ويبدو أن هذا شيئ يعجز الأمريكيون والأوربيون عن فهمه، فهم يقولون أن على اللاجئين الآن بعد اثنين وثلاثين عاما أن يضعوا حدا لضياعهم ويذهبوا إلى شمال سوريا، أو إلى العراق ليبدأوا الحياة من جديد، فكل من يقول ذلك ربما لم يلتق قط بلاجئ ومن المؤكد أنه لم يقابل لاجئا يعيش فى مخيم. فالفلسطينى لايتصور أنه يذهب إلى أى مكان غير الوطن، كما أن فكرة العودة هى الشئ الرئيسى الذى ظل يحلم به ويفكر فيه. ويتحدث عنه أكثر من ثلاثة عقود، وهو يعترف بأنه شخصيا قد لايرى العودة ولهذا السبب يوصى أطفاله واحفاده بأن يعيدوا دفن رفاته فى فلسطين. وهذا هو السبب فى أن الطفل الفلسطينى، الذى لم ير فلسطين قط يعرف كل شيئ عن قريته أو مدينته. اذهب إلى مخيم قلندية واسأل الأطفال الذين لاتزيد أعمارهم عن خمسة أعوام: من أين هم وسوف يجيبونك بأنهم «من اللد» ،أو «الرملة»، أو أى قرية من قرى الساحل. انهم لم يروا اللد أو الرملة قط لكنهم قد قيل لهم منذ ولادتهم عما حدث فى ذلك اليوم من أيام يوليو عندما ساق موشى دايان أباءهم وأجدادهم على طول الطريق المؤدى إلى رلم الله .

وفى عام ١٩٥٤ قال جون فوستر دالاس لجمهور من المستمعين فى الجامعة الأمريكية فى بيروت أن المشكلة الفلسطينية سوف تحل عندما يحل محل جيل المنفيين أبناؤهم لأنهم سوف لايشعرون بارتباط بوطنهم، ربما كان يعتقد أن ذلك صحيح، ومما لاشك فيه أنه مثل الإسرائيليين كان يأمل فى أن يكون ذلك صحيحا. لكننا الآن أمام جيل ثالث من اللاجئين ولاينكر مراقب أمين دقيق أن ارتباط الفلسطينيين بأرضهم قد ازداد قوة خلال سنوات النفى. وكما يشيرون هم أنفسهم، فانه إذا كانت فلسطين تعنى الكثير بالنسبة إلى يهود الشتات الذين لم يروها طيلة ٢٠٠٠ سنة، فما الذى يمكن أن تعنيه بالنسبة لشعب يتذكرها فعلا ؟

وفى داخل المخيمات يتم تنظيم اللاجئين وفقا للمكان الذى قدموا منه فى فلسطين. فالأسر التى كانت متجاورة فى إحدى قرى الجليل أصبحت متجاورة فيما بعد فى المخيمات اللبنانية. وهناك يمكنهم مواصلة التحدث بنفس اللهجة، وطهى نفس الاكلات والقيام بنفس أشغال التطريز. لقد حافظوا بشدة على ثقافتهم ولم يقدموا أى تنازلات لأى ثقافة أخرى. وهذا هو السبب فى أن الاحساس بالشخصية الفلسطينية يقوى إلى هذا الحد كما أن هذا هو سبب رفضهم تخليهم عن وطنهم واعادة توطينهم فى سوريا أو أى مكان آخر .

كانت اعادة التوطين أحد مشروعات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين المبكرة. وكانت أنبل الدوافع هى التى تحرك مسئولى الوكالة فقد رأوا حياة الشقاء التى كان الناس يحيونها، وأرادوا تحسينها واخراجهم من الأحياء الفقيرة القذرة المقززة حيث كانوا يحيون واتاحة الفرصة لهم لكى يبدأوا حياة جديدة، ورد الفلسطينيون غاضبين واتهموا وكالة غوث وتشغيل اللاجئين بمحاولة اضعاف عزيمتهم وجعلهم ينسون فلسطين، كما اتهموا الوكالة بالتواطؤ مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ومحاولة جعل نفيهم دائما، وقالوا للمسئولين انهم عازمون على البقاء فى أحيائهم الفقيرة وانتظار العودة إلى الوطن. فما كان من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أن تخلت عن المشروع لكنها واجهت المشكلات فى مجالات أخرى. ففى احدى المناسبات، قررت الوكالة تجميل جزء من مخيم برج البراجنة خارج بيروت لغرس عدد قليل من الأشجار. فما كان من أطفال المخيم إلا أن اقتلعوا جميع الأشجار وحطموها فى اليوم التالى، أنهم لم يريدوا أشجارا فى المخيم لأن الاشجار كانت تعنى البقاء الدائم فى حين أن وجودهم هناك كما يقولون، مؤقت، لأنهم سرعان ما يعودون إلى الوطن .

لقد شب جيل لم يعرف غير حياة المخيمات، وولد جيل آخر. أن أكثر من نصف

اللاجئين تحت سن الثامنة عشر، تربوا فى هذا المناخ وترعرعوا على كراهية أولئك الذين أرغموهم على مثل هذا النوع من الحياة، والتعليم هو أفضل طريق للافلات -وحركة المقاومة هى الطريق الآخر- ويدرك آباؤهم ذلك. فالتعليم الناجح يعنى وظيفة لائقة وأجورا محترمة وتأمينا عاليا للأسرة كلها. كما أنه لاينطوى على اعادة الاستيطان الدائم خارج فلسطين. هذا من ناحية هو سبب فى كثرة أبناء اللاجئين: فهم يبررون ذلك بالقول أن أحدهم أما أنه سوف يحصل على منحة دراسية من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أو سوف يجد فرصة فى أحد مراكز التدريب المهنى. وهذا يعنى وظيفة فى الخليج أو العربية السعودية وتحويلات مالية إلى آبائهم الذين سوف تصبح حياتهم أكثر راحة نسبيا وهم ينتظرون العودة .

وادراكا منها لضرورة أن يحصل الفلسطينيون على عمل أينما وجدوا قررت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين جعل التعليم فى مقدمة أولوياتها .

وتشرف الوكالة على التعليم الابتدائى والمرحلة الثانوية الدنيا كما أنها تدعم المرحلة الثانوية العليا فى المدارس الحكومية الخاصة، وتساهم بعدد من المنح الدراسية الجامعية كل سنة. ولعل أهم جانب لعمل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين هو البرامج الدراسية التى تشرف عليها فى مراكز التدريب المهنى فى الأردن ولبنان وسوريا والضفة الغربية. وبعد عام ١٩٤٨، تحملت حكومات سوريا والأردن الكثير من أعباء تعليم اللاجئين، لكن فى لبنان، الذى قرر الحفاظ على وضع الفلسطينيين كغرباء لم يسمح للاجئين بالالتحاق بمدارس الدولة. وهكذا كان على وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أن تعلمهم بنفسها بالكامل، وكنتيجة لذلك، أصبحت مدارسها فى لبنان مكتظة وأصبحت مستويات التعليم أضعف منها فى البلدان الأخرى. أما فيما يتعلق بالتعليم الجامعى، فكانت سوريا والأردن ومصر هى البلدان المفتوحة أكثر من غيرها امام الطلبة

الفلسطينيين وهناك الآن حوالى ٤٠,٠٠٠ فلسطينى يدرسون فى جامعات فى مختلف أرجاء العالم. وبينما يوجد معظمهم فى مصر والأردن، فان حوالى ١٥,٠٠٠ يدرسون فى جامعات فى الغرب وينخرط هؤلاء الاخيرين فى الدراسات المتخصصة، كعلم الكومبيوتر والميكروبيولوجى التى ليست متاحة بعد فى العالم العربى .

وتقدم مختلف برامج وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التدريبية دورات دراسية مكثفة فى المجالات العملية التى يشتد عليها الاقبال. ويتقدم لمركز التدريب المهنى فى دمشق الفنى لاجئ للحصول سنويا على ٢٥٠ مكانا. وتركز هذه المراكز على اعداد طلابها بحيث يتسنى لهم فيما بعد العثور على أعمال وهكذا فإن مركز التدريب المهنى فى قلندية يقوم بدورات دراسية تستمر عامين فى اللحام والسمكرة ومعدات الآلات وميكانيكا السيارات ونشاطات اخرى يمكن ان توفر لهم عملا فى الخليج وفى أماكن أخرى، وقرب قلنديه مركز تدريب النساء فى رام الله، يجرى تدريب الطالبات لكى تصبحن ممرضات، وعاملات صيدليات وحائكات ملابس، وسكرتيرات، وهنا ايضا ينصب التركيز على المهارات العملية النافعة التى من شأنها أن تجعل المنفى أكثر احتمالا .

ووفقا لما يذكره مدير معهد التدريب المهنى فى دمشق فإن حوالى ثلثى طلابه يذهبون إلى دول الخليج، ويجد الثلث الباقى عملا فى سوريا وينضم نفر قليل منهم إلى المقاومة. ويشير إلى أن أفضل طلابه يجيئون دائما من المخيمات. لقد منحتهم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفرصة للهروب وقليلون هم الذين يضيعونها .

لقد برز الفلسطينيون خلال سنوات المنفى بوصفهم افضل جميع الشعوب العربية تعليما فنسبة الطلبة الجامعيين بينهم أعلى منها فى بريطانيا أو فرنسا .

هكذا كان التعليم هو الشيئ الوحيد الذى ترك لهم، والسبيل الوحيد الذى

يمكنهم من أن يثبتوا للشعوب التى تملك أوطانا أنها ليست أفضل من الفلسطينيين. ومن ثم تمسكوا به، كشارة افتخار وكذلك كاستثمار من أجل المستقبل، ولم يدعوا تلك الفرصة تفوتهم ويتولى الفلسطينيون الآن مواقع أكاديمية بارزة فى جميع الشرق الأوسط وفى الغرب كذلك، وقد وصفهم آرنولد توينبى ذات مرة بأنهم من رواد العالم العربى غير المعترف بهم «وقارن طردهم من بلادهم بطرد اليونانيين من بيزنطة فى عام ١٤٥٣.

لقد تباينت إلى حد كبير فرص العمل بالنسبة للاجئين فى كل من البلدان المضيفة الثلاثة. فشرق الأردن، الذى استوعب القدس الشرقية والضفة الغربية وأصبح يعرف بالأردن، انهى حرب ١٩٤٨ ، وبه أغلبية فلسطينية. وأصبح الفلسطينيون، من لاجئين وسكان الضفة الغربية على حد سواء، مواطنين فى المملكة الهاشمية وسرعان ما بدأوا فى المشاركة فى حكم البلاد وتجدد التحالف بين الملك عبد الله وعائلة النشاشيبى وأصبح معظم الأعيان الفلسطينيين مؤيدين للنظام ومع أنه كان هنالك عادة توتر بين اللاجئين وأنصار الملك البدو، فإن أعدادا ضخمة من الفلسطينيين وجدت عملا فى الأردن وانضم بعضها إلى الجيش والخدمة المدنية، أن عمان، التى كانت قرية كبيرة فى عام ١٩٤٨ ، قد بناها وسكنها الفلسطينيون وحدهم تقريبا .

ولم يعط اللاجئون حق المواطنة لا فى سوريا ولا فى لبنان، وأن كان قد سمح لهم فى سوريا بالانخراط فى صفوف الجيش ودخول الخدمة الحكومية. إن الفلسطينيين الذين يبلغ عددهم فى سوريا الآن نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ربما كان ثلثهم لاجئين من الحربين الأهليتين الأردنية واللبنانية، يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها السوريون فيما عدا انهم لا يملكون جواز سفر. وتنطبق عليهم نفس القوانين وتتاح لهم نفس الفرص ولا يحتاجون إلى تصاريح عمل. أما فى لبنان فالوضع دائما

أسوأ حيث لايعتبر الفلسطينيين رعايا وعليهم أن يحصلوا على تصاريح عمل لا تمنح فى غالب الاحيان، ويحظر عليهم دخول الجيش أو الحكومة. ومع ذلك فمن الغريب أن تكون بيروت هى المدينة التى كان الفلسطينيون أكثر نجاحا فيها. لقد كانت المدينة الوحيدة فى العالم العربى التى سمحت بحرية غير مقيدة للتعبير، ومن ثم أصبحت العاصمة الثقافية للمنطقة. لتجمع الأكاديميون الفلسطينيون هناك حيث عمل الكثيرون منهم كعلماء سياسيون، واقتصاديين، ومؤرخين فى الجامعة الأمريكية، وأنشئت أجهزة مثل معهد الدراسات الفلسطينية ومركز الأبحاث الفلسطينية والرابطة اللبنانية للاعلام حول فلسطين. وفى عالم الأعمال حقق عدد من الفلسطينيين نجاحا بارزا فى التشييد والمصارف، فمصرفان من أحسن المصارف التى عملت من لبنان؛ المصرف العربى، ومصرف انترا قد أسسهما ودارهما فلسطينيون. والأهم من ذلك كله، أن بيروت أصبحت عاصمة لحركة المقاومة ولمقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

ومع ذلك كان حتميا أن تكون فرص العمل فى البلدان المضيفة محدودة، ومنذ البداية أخذ الفلسطينيون يبحثون عن عمل فى أماكن أخرى ولعل ٦٠,٠٠٠ فلسطينى هاجروا إلى الغرب، حيث ذهب العدد الأكبر إلى الولايات المتحدة وذهب معظم البقية إلى بريطانيا أو استراليا أو كندا أو البرازيل. ويحيا عدة مئات من أهالى مدينة بيت جالا فى أمريكا اللاتينية موزعين بين شيلى وبوليفيا وبيرو واكوادور وهوندوراس ونيكاراجوا.

أن لبيت لحم وفقا لما ذكره عمدتها أكثر من مائة خريج يحملون شهادات الدكتوراه ويعملون فى الولايات المتحدة. ويعمل الفلسطينيون فى الغرب فى المهن أو كأكاديميين. لكن أعداد أكبر بكثير ذهبت إلى أجزاء أخرى من العالم العربى، إلى الخليج عادة. وإذا كانت بيروت المركز السياسى والثقافى للشتات، فإن الكويت قاعدته التجارية. وقد بدأ الفلسطينيون يصلون إلى الكويت عقب حرب ١٩٤٨ مباشرة فى

الوقت المناسب للمشاركة فى الازدهار النفطى العظيم. وقد حدد آخر احصاء للسكان نشر فى عام ١٩٧٥، عددهم ٢٠٤,٠٠٠ فلسطينى وزيد عددهم الأن من ربع مليون نسمة، ولما كانوا يشكلون عشرين بالمائة من السكان فانهم يشكلون بما لايقاس أكبر جالية غير كويتية، ويعترف الكويتيون أنفسهم بالدور البالغ الذى لعبه الفلسطينيون فى بناء الدولة .

ومع أن حفنة فقط هى التى منحت الجنسية الكويتية، فإن معظم الفلسطينيين قد ذهبوا إلى هناك بجواز سفر اردنى أو جواز مرور سورى أو لبنانى، على أمل البقاء هناك على الاقل حتى يتقرر مستقبلهم كشعب. وعلى النقيض من رفقائهم من دول الشرق فإن الفلسطينيين فى الكويت فى معظمهم مزدهرون (حيث يتألف العمال اليدويون فى الكويت من المصريين والايرانيين أو الباكستانيين أو الكوريين). فاكثر من نصفهم يعملون فى قطاع الاستثمار الخاص، عادة فى مشاركة مع الكويتيين ويسيطرون على مشروعات ضخمة كشركة المقاولين المتحدين التى تعمل الآن فى بلاد بعيدة كموريتانيا والسودان الا ان هناك ٢١,٠٠٠ فلسطينى فى الخدمة المدنية ويتجاوز عددهم فى المهن التعليمية والطبية عدد الرعايا الكويتين انهم لايصبحون وزراء ولا رؤساء ادارات، لكن الفلسطينيون هم فى الغالب العقول الانشط سواء فى الحكومة أو فى الاعمال التجارية، ومع ذلك فإن الجالية الفلسطينية ليست محل ترحيب كامل من جانب الكويتيين وذلك بسبب سياساتها التقدمية عادة. كما انها تعانى من قدر معين من التفرقة. وعلى سبيل المثال، فمع ارتفاع مستوى التعليم بين الفلسطينيين عنه بين الكويتيين اضطرت الحكومة إلى أن تصدر تشريعا يعطى الاولوية لتشغيل رعاياها فى مختلف المجالات .

وازداد عدد الجاليات الفلسطينية فى كل بلدان الخليج العربية باستناء عمان

التى تستبعدهم. واكبر هذه الجاليات وأسرعها نموا فى الامارات العربية المتحدة، ويعتقد أن حوالى ٦٠,٠٠٠ فلسطينى يعيشون فى أبوظبى ودبى، رغم أن الحكومة ترفض تقسيم سكانها البالغ عددهم ٨٢٦,٠٠٠ نسمة تبعا للمواطن الاصلى. وهى من الناحية الاجتماعية شبيهة بالجالية الموجودة فى الكويت: أطباء، وكتبة، ومقاولون، وعمال مهرة كالكهربائيين والميكانيكيين وما اليهم، وكثيرون منهم من كبار الموظفين (أن لم يكونو الاكبر) ابدا فى الوزارات والسفارات فى الخارج. وبصورة أكبر مما فى الكويت فانهم يطْغون على السكان الاصليين والتمايز بينهم ملحوظ. فالفلسطينيون بيض البشرة ويرتدون الملابس الغربية، كما أنهم اسرع حركة ويتحدثون بلهجة عربية تختلف عن لغة سكان شبه الجزيرة العربية السمر البشرة بملابسهم الفضفاضة الناصعة البياض. ويشعر الفلسطينيين انهم موضع استياء، وهذا ممكن عاما، إذ أن هناك نوعا من العلاقة الاستعمارية بينهم وبين مضيفيهم ومع ذلك فلم يواجهوا قط فى الخليج نوع المشاكل التى كان عليهم مواجهته فى الأردن أو لبنان والمرة الوحيدة التى تعرض فيها الفلسطينيون لنوع من أنواع الضغط البوليسى كان فى ابوظبى فى عام ١٩٧٧، عندما قتل مسلح فلسطينى وكيل وزارة خارجية الامارات العربية المتحدة، ربما عن طريق الخطا، فيكاد يكون من المؤكد أن الهدف الحقيقى كان وزير الخارجية السورى، عبد الحليم خدام، الذى كان إلى جواره .

والواقع أن كثيرين من الفلسطينيين ممن يعيشون فى الخليج واسعوا الثراء. ولاتوجد ضريبة على الدخل فى تلك البلاد ويكسب بعض رجال الاعمال ١٠٠,٠٠٠ جنيه استراينى سنويا، إلا أن تلك المعادلة المشكوك فيها والتى تلعب دورا عظيما فى السياسة الخارجية الامريكية– وهى كلما تزايدت الثروة المادية كما ضعفت الروح القومية– لاتنطبق هنا. فلا يزال رجال الاعمال هؤلاء يشعرون بجاذبية وطنهم ويبعثون بالمساهمات إلى الصندوق القومى الفلسطينى أو الهلال الاحمر الفلسطينى وبعضهم

أعضاء فى المجلس الوطنى الفلسطينى (وهو نوع من البرلمان فى المنفى). وهم يدركون بصورة جنونية انهم بلا دولة ويتوقون إلى بلد ينتمون إليه وحتى إذا ما واصلوا العيش فى أبوظبى أو قطر أو البحرين، فانهم سوف يظلون بحاجة إلى مكان يمكنهم الارتباط به. أن ارتباطهم بوطنهم لازال على ما كان عليه من قوة ويظهرون ذلك بالطريقة التى يربون بها اطفالهم الذين يعرفون، شانهم شأن الأطفال الفلسطينيين فى كل الشتات، من أين جاؤا فى فلسطين ويلتحق الكثيرون منهم فى الكويت بمدارس تشرف عليها منظمة التحرير الفلسطينية .

وهذا الشعور بالارتباط- وهو شعور يتعذر استئصاله بالدرجة التى فشلت معها كل المحاولات الرامية إلى اعادة التوطين- يصعب على غير الفلسطنيين وصفه وربما لايمكن فهمه فعليا الا عند الاستماع إلى فلسطينى وهو يتحدث عن وطنه. أن عبد الله هامان هو الآن مسئول وكالة غوث وتشغيل اللاجئين عن منطقة االخليل فى الضفة الغربية. وقبل عام ١٩٤٨، كان يعيش فى مساحة كبيرة من بيارات البرتقال قرب يافا، فبعدما طرد من بيته فى أولى عمليات خطة داليت، أصبح مواطنا أردنيا واقام فى الخليل. وفى عام ١٩٦٧، اكتسح الإسرائيليون داره الثانية، فى عملية فتحت الحدود التى كانت تفصله عن قريته القديمة. وبعد ذلك مباشرة ، وبذلك الدافع الالزامى المشترك بين عديدين من الفلسطينيين قام برحلة إلى بلده السابق. كانت داره مع تلك التى لاقاربه قد دمرت منذ وقت طويل لكن بيارات الحمضيات كانت ماتزال هناك ووقف يتأمل ثمارها ويصف التجربة بدموع وهو يقول «لاتتصور الالم الذى ينتابك عندما ترجع إلى موطن طفولتك، وترى بساتين برتقالك كما تتذكرها وهى محملة بالثمار الناضجة، كما لاتدرك عذاب أن ترى أناسا آخرين يتولون رعاية أشجارك وأن تعرف انك غريب هناك، ومحظور عليك أن تلمس ولو برتقالة واحدة .

وفى حانوت صغير قرب قصر العظم، فى قلب دمشق القديمة، كان فلسيطنى عجوز يعمل حتى عهد قريب، حيث كان يبيع القدور النحاسية والصناديق الخشبية المطعمة. لقد جاء من مكان قريب من روش بينا فى الجليل الشرقى واجبر على النفى عندما قرر بيجال آللون «تطهير» المنطقة من العرب. لكنه فى كل عام، فى ذكرى نفيه، كان يسافر إلى القنطرة ويصعد إلى مرتفعات الجولان، وفى مكان بين الجولة وبحيرة طبربة كان يتوقف وينظر إلى داره فى السهل-- عبارة عن نقطة صغيرة على بعد خمسة أو ستة أميال. عندئذ كان يدعو الله أنيساعده على العودة. لقد فعل ذلك طيلة تسع عشرة عاما إلى أن استولى الإسرائيليون فى عام ١٩٦٧، على الجولان ليحرم حتى من هذه السلوى، وظل حتى وفاته يشارك جميع الفلسطينيين نفس الآمال وهو أنه سيأتى اليوم الذى يسمحون له فيه بالعودة إلى الوطن .

كذلك يعبر الشعر الفلسطيينى عن هذا الشعور بالتعلق بالوطن، والواقع أن معظمه لايكاد يهتم بموضوع غيره. واللغة العربية، أكثر من معظم اللغات تتأثر بالترجمة، ولا فائدة تذكر من مناقشة مزايا هذا الشعر هنا، وأن كان من الاهمية بمكان لأنه يصور جيدا مواقف الفلسطينيين تجاه وطنهم، والشعر الفلسطينى الحديث الذى وصفه أحد النقاد بـ «شعر الاحتلال» يمكن أن يقال أنه قد نشأ مع أعمال توفيق زياد وسمح القاسم وسليم جبران وفوزان الاسمر، ومحمود درويش— وكلهم باستثناء الاسمر، أعضاء عرب فى الحزب الشيوعى الإسرائيلى— لقد كان تأثيرهم على الشعراء الفلسطينيين فى الشتات بالغا، ومنذ عام ١٩٦٧، نشأ جيل من الشعراء الشبان، الذين يكتبون بنفس الاسلوب، تحت الاحتلال الإسرائيلى فى الضفة الغربية وغزة .

والشعر الفلسطينى شعر غنائى غير مقفى، يركز على النخيل. ويتكرر ذكر القدس

وأرض فلسطين فى قصيدة بعد أخرى: فتصبح فلسطين معشوقة أو أم ، ويقارن مصيرها لاغتصاب امرأة وامتهان كرامتها. وفى بعض الاحيان كما فى قصائد فدوى طوقان وتوفيق زيادة، تصور مأساتها بالصلب. وتشبه أرض فلسطين بشجرة الزيتون مع رموز أخرى تشمل البساتين، واشجار البرتقال والسوسن، أن علاقة الفلسطينى بأرضه، بالتربة ذاتها– وهى علاقة عضوية خالدة– تجد تعبيرا جيدا عنها فى قصيدة لسليم جبران بعنوان «بشير الريح والمطر» :

تستطيعون اقتلاع الشجر

من جبل يعانق القمر

فى قريتى

تستطيعون حرث كل بيوت قريتى

فلا يبقى لها أثر،

تستطيعون سلب قيثارتى

وحرقها، وتمزيق الوتر،

تستطيعون...

لكنكم لاتقدرون على خنق لحنى

فأنا عاشق الأرض

مغنى الريح والمطر.

وتجد نفس الإشاره وصفا لها فى قصيدة فوزى الاستر بعنوان: «المستحيل» وقد كتبت وهو فى السجن فى إسرائيل فى عام ١٩٧٠م، وكان قد احتجز دون محاكمة

لمدة خمسة عشر شهرا وقيل له مرارا انه لن يفرج عنه الا إذا رحل عن البلاد. وهذا رده:

لا تطلبوا منى المستحيل

لاتطلبوا منى قنص النجوم، والسير إلى الشمس .

لاتطلبوا منى افراغ البحر، ومحو ضوء النهار

فأنا لست سوى انسان

لاتطلبوا منى هجر عينى وحبى

وذكريات طفولتى .

لقد ترعرعت فى ظل زيتونة

واكلت تين بستانى

وشربت عصيرا من كروم المنحدر

وتذوقت ثمرة الصبار فى الوديان

كثيرا، كثيرا

وشدا العند ليبقى اذنى

ولمستنى رياح الحقول والمدن الطليقة

ياصديقى

لاتطلب منى هجر وطنى.

الفصل الثالث

العرب في إسرائيل

فى مناقشة الكنيست حول قانون المواطنة عام ١٩٥٠ ، أشار وزير الداخلية الإسرائيلى إلى الفلسطينيين الذين كانوا لايزالون داخل حدود الدولة الجديدة «كأجانب» وكانت تلك طريقة غريبة فى وصف شعب عاش قرونا فى نفس المكان، لكن الفلسطينيين أنفسهم لابد وأن يشعروا فى سنوات ما بعد الحرب بأنهم اجانب فى بلادهم فلم يعد فى اسرائيل غير أقل من عشر عددهم وحتى بعض هؤلاء كانوا لاجئين هجروا ديارهم إلى مناطق استولى عليها الجيش الاسرائيلى فى وقت لاحق لقد حولتهم حرب ١٩٤٨ ، من كونهم جزء من أغلبية ضخمة إلى وضع يشكلون فيه أقلية .

وبعد الموجات الاولى للهجرة اليهودية فى اوائل الخمسينات باتوا بالكاد يشكلون عشرة بالمائة من السكان .

كان ١٥٠ ألف عربى يقيمون فى إسرائيل التى تمخضت الهدنة فى عام ١٩٤٩ وكان معظمهم فى الشمال، فى الجليل والمنطقة المعروفة بالمثلث، وظل بضعة آلاف من البدو اساسا، فى الجنوب لكن فى الوسط، حيث مدن يافا واللد والرملة لم يكد يوجد أى عرب أما الباقون فيرجع الفضل فى بقائهم إلى عدد من الأسباب. ففى اللد جرى السماح لبضع مئات من الاشخاص بالبقاء لأنهم كانوا يعملون فى السكك الحديدية، ومن ثم كان يمكن أن يستفيد منهم الإسرائيليون، وإلى الشطل، كان قروبو فريديس يحتفظون بصداقة تقليدية مع مستوطنى زيخرون يعقوب وهكذا تمت حمايتهم– شأنهم فى ذلك شأن الدروز من جبل الكرمل الذين كان الصهاينة قد تعهدوهم بالرعاية منذ أمد بعيد وأصبح فلسطينيو المثلث سكانا فى إسرائيل عندما سلمت منطقتهم إليها فى رودس، وفى الجليل بقى عدد من العرب لمجرد أن منطقتهم كانت أكبر من أن يطهرها .

أما الناصرة، فإن استسلام المدينة الكاثوليكية فى معظمها دون طلقة واحدة جعل من الصعب على الصهاينة معاملة سكانها بقسوة شديدة .

لقد تركت اتفاقية رودس العرب فى حالة من الذهول والارتباك إذ كان الكثيرون من اقربائهم قد انضموا إلى الخروج ولم تكن لديهم أى فكرة عن البلد الذى ذهبوا اليه أو حتى عما إذا كانوا لايزالون على قيد الحياة. وكان ثلاثون ألف عربى لاجئين داخل إسرائيل حين هرب الكثيرون إلى الناصرة ولم يسمح لهم بالعودة إلى قراهم. وفجأة وجد العرب أنفسهم وقد سيطرت عليهم الحركة الصهيونية التى كانوا يخشونها، وظلوا يعارضونها عشرات السنين. ووضعوا تحت الحكم العسكرى ومنعوا من التحرك خارج مناطقهم دون تصاريح، وفى اللد لم يكن يسمح لهم بالسير خارج حيهم على طول خط السكك الحديدية الذى سرعان ما صار يعرف «بالجيتو العربى» وباتت إسرائيل والحركة الصهيونية سادة لهم بل وأجبر اطفالهم على أن ينشدوا فى المدرسة النشيد الوطنى الإسرائيلى كل صباح وفى طول البلاد وعرضها كانت الطائفة الفلسطينية فى حالة من الفوضى، من قبائل النقب البدوى، التى فقدت ثمانين بالمائة من سكانها إلى الكاثوليك اليونانيين فى الجليل الذين فقدوا كل كهنتهم تقريبا .

وقبل أن يتسنى وصف تجربة العرب فى إسرائيل لابد من فهم المواقف الإسرائيلية تجاههم، فعندما تلا ديفيد بن جوريون، أول رئيس لوزراء إسرائيل، اعلان الاستقلال، تحدث عن الحرية لا المساواه لكل المواطنين وما إلى ذلك. لكنه كان كلاما منمقا لا معنى له وكان بن جوريون يدرك ذلك فلم يكن بن جوريون يحب العرب، وكان سعيدا برحيل مثل هذا العدد الكبير منهم. وعلى أى حال كان يفضل لو أنهم طردوا جميعا لأنه كان، مثل وايزمان، يريد دولة يهودية بقدر ما أن انجلترا انجليزية أو مثل دايان الذى أراد دولة يهودية بقدر ما أن للفرنسيين دولة فرنسية». وعندما طاف بسيارته حول الجليل

فى الخمسينات، كان مستاء من رؤية القرى العربية على بعد حتى أنه قال:«من يطوف بالجليل يشعر أنه ليس جزءا من إسرائيل». وفى عام ١٩٥٨، وفقا لما ذكرته صحيفة هاآريتز الإسرائيلية، «رفض تسلم البطاقة الشخصية الصادرة له لأنها كانت مكتوبة بالعربية إلى جانب العبرية». وتعليقا على هذا النبأ كتب اورى افنيرى، رئيس تحرير صحيفة هاءولام هازيه، وعضو الكنيست حاليا يقول:«يعتبر بن جوربون دائما رجعيا تماما فى معارضته لكل ما هو عربى، فرئيس الوزراء لم يزور قط مدينة أو قرية عربية منذ قيام الدولة. وعندما زار مدينة الناصرة العليا اليهودية، رفض زيارة الناصرة العربية، التى لا تبعد اكثر من بضع مئات من الامتار عن المدينة اليهودية. وفى السنوات العشر الاولى بعد قيام إسرائيل، لم يستقبل بن جوريون وفدا واحدا من المواطنين العرب.

قد يقال ان ذلك كان موقف رجل واحد وهو كذلك. لكنه كان أقوى زعيم فى التاريخ الإسرائيلى وكانت غالبية أعضاء المؤسسة الإسرائيلية تشاركه هذه الآراء. وذات مرة اعترفت جولدا مائير، فى العام التالى قام فعلا بزيارة قرية جليس الدرزية فى طائرة عمودية. لكن الدروز فى إسرائيل لا يعتبرون عربا.

ثانى أقوى شخصية فى البلاد منذ الاستقلال، بأنها لم تسطيع النوم ليلا اذ كان يؤرقها «التفكير فى كل الاطفال العرب الذين يولدون فى تلك اللحظة[٨]».

وفى اكتوبر عام١٩٧٣، تحدث روبين كاكسويل- هيسلوب، عضو مجلس العموم البريطانى عن موقف ديفيد هاكوهين، الرئيس ذو النفوذ وقتئذ للجنة الشئون الخارجية التابعة للكنيست قائلا:

«بعد ستة أسابيع من تلك الحرب (يونيو ١٩٦٧) ذهب ستة أعضاء موقرون من هذا المجلس، ثلاثة من كل جانب، بمن فيهم أنا، إلى إسرائيل والأردن ضيوفا على هذين البلدين، وقد واجهتنى شخصيا لحظة مروعة. فقد كنا جميعا ضيوفا على مائدة غداء

اقامتها لجنة الشئون الخارجية التابعة للكنيست الينا باسهاب واستفاضة عن العرب. وعندما توقف لالتقاط أنفاسه وجدت نفسى مضطرا للقول :

«يادكتور هاكوهيم، لقد صدمت بشدة اذ أجدك تتحدث عن غيركم من البشر بعبارات تماثل التى تحدث بها يوليوس سترايخر عن اليهود. ألم تتعلم شيئا؟» لقد ضرب المنضدة بقوة بكلتا يديه وقال «لكنهم ليسوا بشر.. ليسوا اناسا، أنهم عرب» وكان يتحدث عن اللاجئين العرب .

كثيرا مايقال أن المواقف الإسرائيلية تجاه السكان العرب تحكمها مشاعر عدم الأمان وعداء العالم العربى. وقد يكون الامر كذلك والحقيقة هى أن العداء والتعصب تجاه العرب، مهما كانت الأسباب، قد شكلا أساس نوقف إسرائيل تجاه الأقلية من سكانها بعد قيام الدولة مباشرة ولايمكن فهم مشكلات الفلسطينيين فى إسرائيل، كما وردت فى الصفحات التالية، فهما صحيحا، الا اذا تم الاعتراف بهذه الحقيقة .

فى ٢١ مايو من عام ١٩٤٨ ، بعد ستة أيام من اعلان الاستقلال، أعلنت إسرائيل حالة الطوارئ. وحيث أنها لاتزال سارية المفعول إلى اليوم، فإن بوسع الحكومة استخدام نظم الدفاع (الطوارئ) لعام ١٩٤٥ ، والتى ورثتها هى حكومة الانتداب. وبموجب هذه النظم فرض الحكم العسكرى على جميع مراكز السكان العربية ولم يلغ الا فى عام ١٩٦٦ . وكانت صلاحيات الحكام العسكريين واسعة واستخدمت على نطاق واسع فكانت حرية الانتقال بالنسبة للعرب مقيدة بالكامل تقريبا فى السنوات العشر الاولى، وكان على الرجل الذى يريد السفر من احدى قرى الجليل إلى حيفا المجاورة بحثا عن عمل أن يطلب تصريحا عسكريا قبل ذلك بأيام عديدة .

وبموجب تلك اللوائح كان يمكن نفى العرب، دون أبداء أسباب، إلى أجزاء نائية من البلاد واستدعائهم عدة مرات فى اليوم إلى أقرب نقطة شرطة للاستجواب. كما كان

يمكن القاء القبض عليهم واحتجازهم، لفترة غير محددة دون اتهام، لقد سجن الشاعر، فوزى الاسمر، دون محاكمة لمدة خمسة عشر شهرا ولم يفرج عنه الا بعد احتجاجات من الخارج. ومع ذلك حددت اقامته فى اللد سنة أخرى بينما قامت السلطات الإسرائيلية مرارا «بتشجيعه» على مغادرة البلاد .

وكما لو أن نظم الانتداب لم تكن سيئة بالقدر الكافى فقد جرى تدعيم سلطات الحكم العسكرى بقانون ومرسوم حكومى مكنا وزير الدفاع من أن يصرح باقامة «مناطق دفاع» و «مناطق أمن» متى شاء ذلك. وبموجب هذا المرسوم تمت معظم عمليات طرد القرويين ومصادرة اراضيهم. وكان كل ما على الوزير أن يفعله هو أن يعلن أن هذه المنطقة أو تلك «منطقة أمن» محظورة على الجميع فيما عدا العسكريين والشرطة، وأنه يمكن طرد سكان المنطقة. وقد حدث ذلك لقبائل عديدة من بدو النقب ولقرى متعددة فى الخليل، بما فيها اقربت وكفر بيريم والمجدل، وام الفلاح.

وهكذا وفرت تلك اللوائح الاطار القانونى لمعاملة إسرائيل لاقليتها العربية. بأى المقاييس، معاملة قمعية ومن المفيد أن نقرأ ما تعين على محام صهيونى، هو يعقوب شمشون شابيرو، قوله عن نظم الانتداب فى عام ١٩٤٦ : «أن النظام الذى أقيم فى فلسطين منذ صدور قوانين الدفاع لانظير له فى أى بلد متحضر، ولم توجد مثل هذه القوانين حتى فى المانيا النازية... ومن واجبنا أن نقول للعالم كله أن قوانين الدفاع التى اقرتها حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين تقوض اسس العدالة ذاتها فى هذا البلد. لقد اصبح شابيرو فيما بعد مدعيا عاما ووزير للعدل فى إسرائيل لكن مما لايدعو للغرابة حقا أنه لم يجد ضرورة لالغائها. فالقوانين التى تبدو وبغيضة بدرجة تعذر معها وجودها حتى فى المانيا النازية «أصبحت كما هو واضح بجلاء مقبولة تماما متى طبقت على العرب .

أن أى زائر لإسرائيل، شريطة ألا يرافقه مرشد من وزارة الاعلام، سوف يلاحظ أن عرب البلاد أقلية معدمة. فالتفرقة ضدهم صارخة ومرسومة. وكما قالت شولا ميت آلونى، عضو الكنيست وزعيمة حركة الحقوق المعدنية فى إسرائيل، فى الكنيست فى اكتوبر ١٩٧٥ : «أنه فى السنوات الثمانية والعشرين منذ قيام إسرائيل لم نتعلم حتى الآن أن على المرء أن يعامل العرب كمواطنين لهم نفس الحقوق والواجبات وأن يعالج مشكلاتهم كما يعالج مشكلات كل المواطنين بصورة مباشرة وبدون تفرقة» .

ويعتبر التعليم مصدر شكوى رئيسية، فمستويات التعليم منخفضة للغاية بين السكان العرب ويرجع ذلك فى جانب منه إلى عدم وجود ما يكفى من المدارس وفى جانب آخر إلى سوء تجهيز المدارس القائمة . ففى قرية دير الأسد فى الجليل هناك ١,٣٠٠ تلميذ بالمدرسة الابتدائية وهو عدد كاف فى تصورنا لتبرير وجود مدرسة ثانوية. إلا أنه لاتوجد مثل هذه المدرسة هناك أو فى أى مكان قريب- اللهم إلا مدرسة فى الكرميل لاتفتح أبوابها إلا لليهود- وعلى أى تلميذ يريد الذهاب إلى مدرسة ثانوية من دير الأسد أن يقطع يوميا مسافات طويلة ذهابا وايابا، أما إلى عكا أو إلى الناصرة مع تحمل نفقات كبيرة. فى مثل هذه الظروف ليس غريبا أن ثلثى الاطفال العرب لايتجاوزون ابدا المستوى الابتدائى. أما المدارس القائمة فعلا، فإن الكثير منها يدعو للرثاء، فهناك نقص فظيع فى الامكانيات فكل المدارس تقريبا ينقصها الملاعب والمكتبات والمعامل .

وفى الناصرة الفصول مؤقتة، فى مبانى مستأجرة وموزعة فى أرجاء المدينة .

ويمكن قياس اهمال إسرائيل لتعليم العرب بعدد طلبة الجامعات، فمع أن العرب يشكلون خمس عشرة بالمائة من سكان إسرائيل، فإن هؤلاء الطلبة يشكلون أقل من ثلاثة بالمائة من طلبة الجامعات فى البلاد . وهذا الاهمال مقصود: فإسرائيل لاتريد أقلية جيدة التعليم. وكما أوضح ذات مرة أورى لوبرانى، المستشار المساعد لرئيس الوزراء للشئون

العربية، قائلا: «ربما كان من الافضل ألا يكون هناك طلاب عرب فلو أنهم ظلوا يقطعون الاخشاب فربما كانت السيطر عليهم أيسر وبصرف النظر عن الحاجة إلى الابقاء على العرب فى حالة من الجهل كى يواصلوا تزويد إسرائيل برصيد كبير من العمال غير المهرة، فإن سياسة الحكومة التعليمية تستهدف بجلاء الحد من مشاعر الوعى القومى بين الفلسطينيين .

ولتحقيق هذا الهدف يجبر التلاميذ العرب ترديد النشيد الوطنى اليهودى. وتعزيزا لمحاولة تحقيق الهيمنة الثقافية، لم ينشر كتاب عربى واحد فى إسرائيل خلال السنوات العشر الاولى ويستعان بالمناهج الدراسية لتأكيد هذه السياسة فالأطفال العرب فى المدرسة الثانوية يتعلمون الادب العبرى والعربى، لكن بينما يفرض عليهم دراسة شعراء صهاينة أمثال بياليك، وشيمونى، وى.ل. بيرتيز، فإن القصائد العربية الوحيدة التى يسمح لهم بقراءتها تتناول الطبيعة والحب وماشابه ذلك وبالمثل، فانهم يقضون ٢٥٦ساعة فى دراسة التقاليد اليهودية المنقولة شفاها من جيل إلى جيل، والتوراه لربما لكى يتعلموا أن فلسطين ليست، فى الواقع، ملكا لهم، وثلاثين ساعة فقط فى دراسة القرآن. وعلاوة على ذلك يخصص للتاريخ اليهودى وقتا أطول من الوقت المخصص للتاريخ العربى، أما العصور العظيمة فى التاريخ العربى فتحذف من الكتب المدرسية. والشيئ الوحيد الذى يتعلمه التلميذ العربى عن صلاح الدين هو أنه كان له طبيب يهودى يدعى موسى بن نيمون .

كذلك فإن العمل مصدر آخر من مصادر شكوى العرب الأساسية. لقد كانت الزراعة دائما عماد الاقتصاد الفلسطينى، وحتى عام ١٩٤٨ ، كانت غالبية السكان العرب تشتغل بالزراعة. لكن مصادرة الاراضى، التى اعقبت الحرب والتى سوف نناقشها فيما بعد قوضت مصدر معيشة الكثيرين من العرب الذين ظلوا على قيد الحياة ودفعتهم إلى

المدن بحثا عن العمل وقد وصف الكاتب الإسرائيلى، أهارون كوهين، وضعهم قائلا:

«أن العامل العربى الذى تمكن من العثور على عمل فى السنوات العشر الأولى لم يجد سوى الأعمال البغيضة التى لايقبلها العمال اليهود كأعمال المجارى أو البناء ولم تتساو أجور العمال العرب قط مع تلك المدفوعة لليهود، حتى وأن أدى العربى نفس العمل. والواقع أن اعمالا كثيرة يحظر أن يقوم بها العمال والموظفين العرب .

والعامل العربى الذى كان يجد عملا مؤقتا فى مستعمرة يهودية نائية كان يمكن طرده بحجة أنه «غير منظم» .

و «غير منظم» تعنى أنه لا ينتمى إلى الهستدروت، الاتحاد العام للعمال فى إسرائيل– وما ليس غريبا هو أنه، حتى عام ١٩٦٢، لم يسمح لأى عربى بأن يصبح عضوا فى هذا الجهاز النقابى القوى. وحتى عندما سمح للعرب بالانضمام الى الهستدروت لم يتحسن وضعهم الابصورة هامشية، ولا يزال العرب إلى اليوم يؤدون معظم الاعمال الوضيعة فى إسرائيل مثل غسل الاطباق واصلاح الطرق، وجمع القمامة وما إلى ذلك .

ولايزال بعض العرب يعطون فى الزراعة، كمزارعين أو مستأجرين، بل كعمال فى المزارع اليهودية. ومن الناحية الرسمية، هنالك معارضة شديدة لذلك حيث أن اليهود هم وحدهم المسموح لهم بالعمل فى الأرض التى تملكها الدولة أو الصندوق القومى اليهودى (أى حوالى تسعين بالمائة من الارض) .

وفى ديسمبر ١٩٧٤م، أعلن وزير الزراعة الإسرائيلى أن «هيمنة العمال العرب على الزراعة اليهودية سرطان فى جسدنا». وبعد ذلك بأشهر قليلة، بدأت وزارته وادارة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية، وفقا لمانشرته صحيفة معاريف الإسرائيلية، «حملة

عنيفة لاستئصال طاعون تأجير الأراضى والبساتين للمزارعين البدو والعرب فى الجليل الغربى.» ومع ذلك فللآن من الممكن تشغيل العرب بأجور أقل بكثير من أجور اليهود وكذلك لأن من الممكن طردهم دون مشكلات، فلايزال كل من «السرطان»، و «الطاعون» مستمرا .

أن توسع الاقتصاد الإسرائيلى وانخفاض الهجرة اليهودية من الخارج اتاحا اعمالا لمعظم السكان العرب وأن كانت اعمال وضيعة إلى حد كبير، لكنهما لم يحسنا وضع المثقفين الفلسطينيين، الذين لا يجدون، فى الغالب عملاك أولا لأنهم عرب، وثانيا لأنهم يعتبرون «غير ساميين» من الناحية السياسية. وحتى اذا ما ما تغلبوا على العقبة الاولى، وهذا لم ينحج فيه كثيرون، فإن العقبة الثانية تثير عدة تعقيدات .

لقد فقد فوزى الامر وظيفته الاولى فى دار للطباعة يديرها الحزب الاشتراكى، المبابام لأنه رفض أن يصبح عضوا فى الحزب، وفيما بعد، عندما رفضه قال له مسئول فى فرع الشرطة الخاص انه لن يحصل أبدا على وظيفة مالم يغير خطه السياسى (وهو صورة معتدلة من القومية العربية) .

وعندما عين محمد الميزى محاضرا فى جامعة حيفا، حاولت وزارة الدفاع حثه على أن يصبح مخبرا. وعندما رفض، أبلغت الوزارة العميد فى حيفا بأنه خطر على الامن ولايجب قبوله كمحاضر. ولم يعد الميرى إلى وظيفته الا بعد أن أثار عاصفة من الاحتجاج .

أما صفحة الاعلان عن وظائف فى صحيفة يديعوت احرونوت بالعربية فهى تكشف عن اسلوب آخر للتفرقة ضد العرب فى الوظائف. ذلك أن حوالى تسعين بالمائة من الوظائف المعلن عنها تخصص للذين أدوا الخدمة العسكرية فقط» . وحيث أن العرب باستثناء الدروز، لايؤدون الخدمة العسكرية، فإن هذه وسيلة غير مهذبة بالمرة لضمان عدم

تقدمهم إلى معظم الوظائف .

والتفرقة ضد المناطق العربية، خاصة فى مجال الاسكان، هى سبب آخر للشكوى. فهنا تعتبر سياسة الحكومة المعادية للعرب أشد ما تكون وضوحا فليس محظورا على العرب أن يعيشوا على أرض يملكها الصندوق القومى اليهودى بل كان عليهم ايضا أن يعانوا من مصادرة أراضيهم الخاصة حتى يتسنى بناء مدن جديدة لايسكنها غير اليهود وأسوأ مثلين على هذا هما مدينتا الكرميل، والناصرة العليا. فالكرميل مدينة كئيبة بمبانيها البرجية المتماثلة المقامة دون ذوق على طبيعة الجليل الفاتنة لقد بناها العمال العرب فوق أرض مصادرة من ثلاث قرى عربية ومع ذلك لايسمح لأى عربى أن يسكن أو يبدأ عملا تجاريا هناك. عندما حاول اثنان من رجال الأعمال العرب، كل بمفرده، الحصول على تصريح ببناء مصانع فى الموقع الصناعى للمدينة فى عام ١٩٧٢ ، أثارا عاصفة احتجاج بين السكان .

فقد زعم هؤلاء أن الكرميل جزء من مشروع لـ«تهويد الجليل» وانهم قد وعدو بأنها سوف تظل مدينة يهودية صرفة، وأنها سوف لا تطاق لو سمح للعرب بالعيش فيها ، وقبلت الحكومة حججهم ورفض التصريح لرجلى الاعمال. ومرة اخرى عندما وافق رجل على تأجير داره لعربى من قرية مجاورة، وقع معظم السكان على التماس يطلبون فيه فسخ العقد كمبدأ .

أما مشاكل مدينة الناصرة العربية وعلاقتها مع جارتها اليهودية، الناصرة العليا، فتكشف المصاعب التى يواجهها العرب فى إسرائيل باستمرار فالناصرة اكبر مدينة عربية فى إسرائيل وسكانها مقسمون بالتساوى بين المسيحيين والمسلمين. وقد زاد حجم سكانها السابق على عام ١,٩٤٨ البالغ ١٤,٠٠٠ نسمة بـ ١٠,٠٠٠ لاجئ من ريف الجليل ومنذ ذلك الحين ارتفع العدد حتى بلغ ٤٥,٠٠٠ نسمة واليوم تعتبر مدينة قذرة مهملة

ومكتظة بالسكان ولأن مجلسها يسيطر عليه الحزب الشيوعى من ناحية ولكن أساسا لأنها عربية لاتهتم الحكومة بتطوير الناصرة. فالمدينة لاتحصل على اعتمادات للتنمية ولاتوجد بها صناعة، أما الصانع القليلة التى وجدت بها أيام الانتداب فقد أغلقت فى الخمسينات، الأمر الذى يدفع ثمانين بالمائة من القوة العاملة إلى البحث عن عمل خارج المدينة وعادة فى المصانع اليهودية فى حيفا. أما الاسكان العام فلا وجود له ووفقا لتقرير نشر فى صحفية هاآرتيز الإسرائيلية :

«أن وزارة الاسكان لم تبن مسكنا واحدا فى الناصرة منذ عام ١٩٦٦. وتحتاج الناصرة كل عام إلى مابين ٤٠٠و٥٠٠ وحدة سكنية اضافية للحفاظ على الاوضاع السكنية فى مستواها الحالى دون الاخذ فى الاعتبار الاحتياجات السكنية لاستيعاب الشبان المهاجرين إلى الناصرة من القرى المجاورة .

ويزيد من حدة الموقف وجود الناصرة العليا على تل يطل على المدينة القديمة. وخلال الخمسينات، صودرت الاراضى من قرى عديدة ومن الناصرة نفسها لبناء مدينة يهودية صرفة فى منطقة عربية. وقد بدئ العمل فى الموقع دون استشارة عمدة الناصرة أو حتى دعوته إلى الاطلاع على الرسومات وتضم الآن ١٦,٠٠٠ من السكان اليهود ومع ذلك فإن مخصصات ميزانيتها أعلى من مخصصات المدينة التى يبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة أضعاف سكان الاولى. وهناك فى الناصرة العليا مصانع عديدة، مصانع نسيج، وأغذاية، ومصنع لتجميع السيارات، ولاتوجد فيها بطالة. كما أن بها عشرات الشقق الشاغرة، ولكن، لأنها مبنية على أرض يملكها الصندوق القومى اليهودى يحظر على العرب شراؤها، حتى وأن كانت الارض قد انتزعت منهم فى بادئ الامر .

وعندما تجاهلت بعض الأسر العربية القانون فى عام ١٩٧٥ واشترت أو استأجرت عدة شقق ارتفعت اصوات الاحتجاج بين السكان اليهود. ووفقا لما نشرته صحيفة

معاريف الإسرائيلية، فإن «السكان يشكون من أن الموقف لايحتمل.... (و) يهددون بهجر المدينة جماعيا والانتقال إلى المدن المجاورة؛ مالم تتخذ الاجراءات الكفيلة بمنع تغلغل الاسر العربية فى ذلك الجزء من المدينة (أى، الناصرة العليا). وخاصة فى المجمعات السكنية حيث يسكنون .

وتعانى المناطق الريفية العربية ماتعانى منه الناصرة. ووفقا لما ذكره أحد أعضاء الكنيست فانه من الاموال المخصصة للتنمية المحلية ولايذهب إلى القطاع العربى أكثر من واحد بالمائة. وأعلن عضو آخر، هو شولا ميت آلونى، فى سنة ١٩٧٥ أن «تحيلا مقارنا لميزانية البلديات المحلية لسنة ١٩٧٤– ١٩٧٥، فى القطاعين اليهودى والعربى يبين بوضوح التفرقة الصارخة ضد القطاع العربى. ومضت إلى الاشارة إلى أنه بينما حصلت مدينة شفا عمرو العربية، التى يبلغ عدد سكانها ١٥,٠٠٠ نسمة ، على ميزانية بلغت ٣,٩ مليون جنيه إسرائيلى وحصلت قرية كفر قنة العربية البالغ عدد سكانها ٧,٠٠٠ نسمة ١,٢ مليون جنيه، فإن مدينة مجدل هايميك (١٢,٠٠٠نسمة) حصلت على ١٥ مليون جنية إسرائيلى وخصص بمستوطنة آزاتاه (التى تسمى الآن نيتيفوت)، والتى لايزيد عدد سكانها عن ٥,٠٠٠ نسمة ١٧ مليون جنيه إسرائيلى. وبعبارة أخرى، فانه فى مقابل كل جنيه اتفق على أحد سكان قرية كفر قنة العربية، انفق اثنان وعشرون على كل مستوطن يهودى فى آزاتاه .

أن هذه التفرقة واضحة لأى انسان يكلف نفسه مشقة مقارنة قربة عربية بمستوطنة يهودية. أن المستوطنات بشعة عادة لكنها على الاقل تخطط وتزود بالخدمات الأساسية، طرق ومياه وكهرباء وما إلى ذلك، قبل انتقال المستوطنين اليها، فى حين أن القرى العربية غير مخططة وتفتقر إلى الكثر من الخدمات الهامة وبتعين عليها أن تنتظر سنوات حتى تصلها الكهرباء ولا يزال الكثير منها بدون كهرباء، وليس هناك فى أى قرية عربية

شبكة صرف صحى أو شبكة طرق مرصوفة. وأنه لا وجود للهواتف والمراكز الصحية ولاتوجد مكتبة عامة واحدة فى أى مدينة أو قرية عربية فى إسرائيل .

أما المسألة التى طغت دائما على ماعداها من مسائل أخرى بالنسبة إلى العرب فهى مصادرة أراضيهم .

وكانت المصادرات الكبرى قد وقعت عقب حرب ١٩٤٨ مباشرة عندما تمت مصادرة حوالى مليون فدان من أراضى العرب. ومنذ ذلك الحين، ووفقا للاحصاءات الإسرائيلية، تم الاستيلاء على ٤٤٠,٠٠٠ فدان أخرى لاتشمل المناطق التيى أخذت من البدو فى النقب فكيف تم ذلك؟ وماهى الذرائع التى استخدامها الإسرائيليون لانتزاع كل هذه الاراضى؟ كانت الاساليب الاولى مباشرة فبموجب قوانين الدفاع (الطوارئ) لعام ١٩٤٥ ، ثم تنفيذ عمليات الطرد والمصادرة «لاعتبارات أمنية» فكل ما كان على الجنود الإسرائيليون أن يفعلوه هو دخول قرية عربية، كما فعلوا فى عصقلان فى عام ١٩٥٠ ، وتطويق السكان وأخذهم إلى الحدود دون أن توجه أى اسئلة، فكان «الأمن» هو المبرر. وبمجرد أن تتم عمليات الطرد تدمر القرى وتسلم أراضيها لكبيوتز أو موشاف قريب. (الكيبوتز هو مزرعة جماعية يهودية، والموشاف هو مزرعة تعاونية لصغار الملاك) .

استخدم هذا الاسلوب فى قرى عديدة فى شمال الجليل. وقد وقع حدثان من أبشع الحوادث فى قرية اقريت الكاثوليكية اليونانية وقرية كفر بيريم المارونية. ففى خريف ١٩٤٨ ، بعد انتهاء القتال فى الجليل، احتل الجيش الإسرائيلى كفر بيريم، ولم تمض أيام حتى أبلغ السكان بضرورة ترك ديارهم حيث ينتظر أن تجرى عمليات عسكرية فى منطقتهم وكانوا مترددين واكتفوا بالانتقال إلى بعض الكهوف المجاورة بعد وعد من مسئول فى وزارة الشرطة والاقليات بأنه سوف يسمح لهم قريبا العودة إلى ديارهم وكرر هذا الوعد بعد أشهر قليلة مستشار رئيس الوزراء للشئون العربية. لكن شيئا لم يحدث

وانتظر القرويون ثلاث سنوات أخرى بعدها رفعوا الأمر أمام المحكمة العليا التى حكمت لصالحهم. لكن الجيش رفض تنفيذ قرار المحكمة وفى سبتمبر من عام ١٩٥٣، تم زرع الالغام فى القرية وأمر السلاح الجوى الإسرائيلى باسقاط قنابل حارقة فهدم كل مبنى باستثناء الكنيسة. وسلمت معظم الاراضى لكيبوتز بيريم حديث التأسيس .

ولقيت قرية اقريت نفس المصير فقد اعترفت المحكمة العليا بحق القرويين فى العودة إلى أراضيهم ونفت أن يكون للجيش أى حق فى منعهم وفى حكمها أشارت المحكمة إلى أن الحاكم العسكرى لم يصدر حتى الأمر بالطرد، فما كان من االحاكم العسكرى الا أن صحح هذا الخلل وأعلنت اقريت «منطقة أمن» محظورة على المدنيين وشكا القرويون مرة أخرى إلى المحكمة العليا. لكن العسكريين تحركوا قبل أن تجد الوقت لنظر القضية. ففى أعياد الميلاد سنة ١٩٥١، نسف خبراء المفرقعات التابعون للجيش كل منزل فى القرية. بل اخذوا مختار اقريت إلى تل يطل على القرية ليشاهد التدمير بعينى رأسه .

واصل سكان القريتين الحياة فى المنطقة (وان كانوا قد اعتبروا خطرين على الأمن) بل أصبح بعضهم عمالا فى الكيبوتز والموشاف اللذين حلا محل القريتين. لكنهم رفضوا التخلى عن مطالبتهم بالارض ولم يقبل التعويض غير نفر قليل. وفى عام ١٩٧٢، بدأوا الضغط من جديد وكان دايان قد الغى التوه مناطق الامن داخل حدود عام ١٩٤٩، حيث أنها لم تعد ضرورية (إذ أن إسرائيل كانت قد وسعت بشدة حدودها فى سنة ١٩٦٧) وتصور القرويون أنه لم تعد هنالك عقبة قانونية أمام عودتهم. وفى اغسطس من ذلك العام احتلوا أنقاض ديارهم قبل أن تجبرهم الشرطة على الرحيل. وأثارت المسألة مناقشة سياسية واسعة انحازت فيها معظم احزاب المعارضة إلى صف القرويين. ولما رفضت الحكومة تغيير سياستها حول المسألة، اتخذ مناحيم بيجين، قائد ائتلاف جاحال اليمينى، موقفا انتقاديا بشكل خاص. فقد أعلن «أن ظلما قد لحق بسكان كفر بيرتم. وهذا قرار

خاطئ» . وفى الحملة الانتخابية عام ١٩٧٧، سار بيجين إلى ما هو أبعد من ذلك لقد وعد القرويين بشكل محدد بأنهم سوف يعودون إلى ديارهم إذا ما تم انتخابه، وعندما أصبح رئيسا للوزراء، صار ذلك مصدر حرج بالغ له وقد حاول تأجيل اتخاذ قرار إلى اطول وقت ممكن. وترك لوزير زراعتـه أن يكشف فى يناير ١٩٧٩ ، أن اللجنة الوزارية الخاصة التى شكلت لدراسة مسألة اقريت وكفر بيرتم قد اتخذت قرارا يقضى بعدم عودة القرويين.

لكن معظم المصادرات تمت فى اطار القانون المدنى. ففى السنوات الاولى أصدرت الحكومة عددا كبيرا من القوانين كانت كلها تهدف إلى جعل المصادرات تبدو قانونية مثل قانون أيلولة ممتلكات الغائبين والمواد الاستثنائية الخاصة باستغلال الاراضى غير المنزرعة وقانون مصادرة الاراضى المنزرعة وقانون الاستيلاء على الاراضى وما إلى ذلك. وحتى كل هذه القوانين لم تف بكل احتياجات الحكومة، فلجأت فى بعض الحالات إلى المصادرة المجردة، فمن أجل الحصول على أراضى لبناء الكرميل فى عام ١٩٦٢ ، اكتفى وزير المالية باصدار مرسوم يأمر بمصادرة ١,٣٥٠ فدانا من الاراضى الخاصة بثلاث قرى عربية، وهى خطوة دمرت تماما اقتصاد احدى القرى، هى دير الاسد، التى فقدت من أجل ذلك أفضل أراضيها المنزرعة.

أن هذه المجموعات من القوانين تبدو فى ظاهرها غير ضارة، لكن المشكلات تبدأ مع تعريفها. أن المواد الاستثنائية الخاصة باستغلال الاراضى غير المنزرعة لابأس بها ولكن ما الذى تعنيه على وجه التحديد؟ العنوان يبدو معقولا ولكن كيف جرى «غير المنزرعة» ؟ لقد كان الامر سهلا تماما فى معظم الحالات. فقد كان بوسع الحاكم العسكرى أن يحدد قطعة من الارض بوصفها منطقة دفاع، يحظر على المدنيين دخولها. وهكذا يعجز ملاك الأرض عن زراعتها ومن ثم تصبح مهجورة. وعندئذ تتحرك وزارة الزراعة، وتعلن

أنها غير منزرعة وتأمر بمصادرتها. أما قانون أيلولة ممتلكات الغائبين فقد كان أكثر اثارة للاستياء لانه أعطى الدولة صلاحيات لمصادرة كل الاراضى العربية ما لم يقدم الملاك اولا مستندات تثبت ملكيتهم للارض. مع اثبات انهم لم يغادروا مكان اقامتهم فى الفترة ما بين ٢٩ سبتمبر ١٩٤٧ وأول سبتمبر ١٩٤٨، للذهاب إلى أى مكان خارج السيطرة اليهودية. وحيث أن معظم الاراضى لم تكن مسجلة قط بل كانت الاسر تفلحها عن طريق حق الارث، فمن الواضح أنه كان مستحيلا على الكثيرين اثبات أنهم الملاك. وعلاوة على ذلك، وكما هو الحال عادة فى وقت الحرب، وخصوصا فى هذه الحرب، فإن الكثيرين غادروا أماكن اقامتهم، وكان طبيعبيا بحكم أنهم عرب أن يذهبوا إلى مناطق يسيطر عليها عرب آخرون. ووفقا للقانون الإسرائيلى، فانهم بذلك أصبحوا غائبين حتى وأن كانوا لم يغادروا قط المنطقة التى أصبحت إسرائيل فيها بعد. لقد كان لمحمود صفدى، رجل أعمال من طبرية أملاك، ولما بدأ بيجال آلون عمليته «التطهيرية» السيئة فى شرقى الجليل ترك داره وذهب للاقامة مع ذوية فى الناصرة، وكانت آنذاك تحت السيطرة العربية، وهكذا اعتبر غائبا، مع أنه لم يغادر قط إسرائيل، وفقد كل ممتلكاته .

لقد مست هذه القوانين كل قطاعات الطائفة العربية. وبموجب قانون أيلولة ممتلكات الغائبين، فقدت الاوقاف الاسلامية، أوصندوق الوصاية الاسلامية الدينى كل ممتلكاتها فى اسرائيل، وفى الوقت نفسه ألغ المجلس الإسلامى الأعلى وتولى دوره مسئول يهودى. وليس من الواضح تماما لماذا حدث ذلك أو كيف يمكن اعتبار مؤسسة خيرية دينية «غائبة»، وعلى أية حال صودرت أملاك الاوقاف وبيع بعضها أو هدم كذلك صودرت كل الجبانات الإسلامية فى يافا –باستثناء نصف فدان– لبناء هيلتون تل أبيب وارساء الأساس لحدائق الاستقلال. وفى نصف الفدان الباقى دفنت كل العظام من بقية الجبانة، إلا أنه حتى نصف الفدان هذا جرى استخدامه فيما بعد لشبكة طرق جديدة .

وكان بدو النقب من بين ضحايا هذه القوانين. ففى عام ١٩٤٨م رحل عن النقب حوالى ٥٩,٠٠٠ بدوى من بين رجال القبائل البلغ عددهم ٧٠,٠٠٠ نسمة. أن بعضهم، كأفراد قبيلة العزازمة البالغ عددهم ٦,٠٠٠ نسمة، قد طردوا، بينما رحل الآخرون من تلقاء أنفسهم وذهبوا إلى سيناء أو شرق الأردن. ودمرت الحرب النظام القبلى لاولئك الذين بقوا، وفقدت كل القبائل الفرعية، باستثناء قبيلتين، أعدادا ضخمة من أفرادها ومن ظلوا على قيد الحياة فقدوا كل اراضيهم الزراعية تقريبا ومعظم مراعيهم، ثم نقلوا إلى منطقة فى شمال- شرقى بئر سبع ومنعوا من التحرك خارجها. وقد أعلن السفير الإسرائيلى لدى بريطانيا فى عام ١٩٥٨ أنه «بالنظر إلى الاهمية الاستراتيجية الكبرى للنقب والحاجة إلى ترتيبات أمن خاصة، ...إلخ فقد وجد من الضرورى قصر تحركات البدو فى النقب على منطقة محددة» وهكذا تمثلت سياسة الحكومة فى معاملة البدو كما عامل الأمريكيون الهنود الحمر: حشرهم فى أماكن تتضاءل مساحتها شيئا فشيئا «لاعتبارات أمنية»، وتشجيعهم على الاستقرار، وتسمى هذه العملية «اعادة تسكين»، وهو واحد من التعبيرات المخففة الكثيرة التى يستخدمها المسئولون الإسرائيليون .

ولقد وصل الآن عدد أفراد قبائل النقب إلى ٤٠,٠٠٠ نسمة وتغيرت السياسة الإسرائيلية تجاههم. فخطط الحكومة الصناعية والانسحاب التدريجى للقوات المسلحة من سيناء وأعطت النقب أهمية جديدة، وهذا يعنى فى واقع الأمر أنه لابد لحياة البدو الرحل من أن تتوقف وسوف يضطرون إلى الاستقرار فى المراكز الحضرية الجديدة التى تبنيها الحكومة لهم. لكن الطريق من الصحراء إلى المدينة قصير جدا بالنسبة للبدو وهم يصرون على أنه اذا كان لابد من استقرارهم فسوف يكونون مزارعين وليس عمالا صناعيين. ويرد المسئولون على ذلك بأنه ليس هناك مايكفى من الماء لكنهم لايفسرون لماذا توجد وفرة من المياه للميستوطنات اليهودية بينما لاتوجد أية مياه للبدو، وبما أن

رجال القبائل لا يتعاونون مع الحكومة، فإن الاخيرة شكلت وحدة اسمها الدورية الخضراء بهدف مضايقة البدو ومنعهم من رعى قطعانهم فى الأراضى التى تملكها الدولة. لكن هدف الدورية الخضراء فى الواقع، وفقا لما يذكره ومؤيدو الحقوق المدنية الإسرائيليون، هو تقليص القطعان القبلية وطرد الرعاة من أراضيهم. وكما ذكر صحفى فى جيروزاليم بوست فى فبراير ١٩٧٩ ، فإن: «أنباء الاستئساد واثارة الرعب من جانب رجال الدورية الذين ينفذون أوامر الطرد تتواتر بتكرار مخيف. فمن المعروف أن الوحدات تنقض على المخيمات، وتصادر أو تشتت شمل القطعان وتدمر الممتلكات وتهدد النساء والاطفال بالمسدسات المشحونة .

ولعل الناس الذين عانوا الامرين من مختلف قوانين المصادرة هم قرويو المثلث من المسلمين، وتلك هى المنطقة التى تتاخم السهل وسفوح السامرة على بعد اميال قليلة من الساحل تمتد من هيرتزيليا إلى زيخرون يعقوب. وكانت هذه القرى قد اقامها سكان من جبال نابلس فى القرن التاسع عشر. وفى مشروع تقسيم عام ١٩٤٧ ، جرى تخصيصها، مع كل السامرة للدولة العربية المقترحة. وخلال الحرب صمدت فى وجه الصهاينة ولم يتم الاستيلاء عليها قط، وأن كان الكثير من اراضيها الاقرب إلى البحر قد احتلها الجيش الإسرائيلى. وعند الهدنة اكتشف السكان لدهشتهم أن معظم القرى قد ضمتها إسرائيل بدلا من الأردن الذى كان يسيطر عليها. وكان ذلك هو الثمن الذى اخذته إسرائيل مقابل السلام، ولما كانت الولايات المتحدة والامم المتحدة غير مستعدتين لممارسة الضغط على الدولة الجديدة، فقد اضطر الأردنيون إلى الموافقة .

لقد رسمت الحدود التى تقررت فى رودس بتعسف، فلم تراع حدود القرى وأبعد الكثيرون عن أراضيهم، وقسمت قريتا برطعة وبيت صفافة إلى جزئين صغيرين مما ترك افراد الأسرة الواحدة على جانبى الاسلاك الشائكة لايستطيعات الاتصال، أما مصير قرية

طبية– القرية العربية «النموذجية» التى يؤخذ اليها ضيوف الحكومة الإسرائيلية ليشاهدوا كيف «يزدهر» الفلسطينيون فى ظل الحكم الإسرائيلى؟ فهو مثال أوضح، فأثناء القتال استولى الإسرائيليون على أراضى القرية لكنهم لم يستولو على القرية. ومع أنباء الهدنة غضب السكان لتسليمهم ببساطة إلى إسرائيل لكنهم ارتاحوا بالطبع إلى أنهم سوف يعودون إلى أرضهم أو هكذا تصوروا. لكن قانون ايلولة ممتلكات الغائبين، الذى اجيز فى عام ١٩٥٠ بأثر رجعى، قد صيغ بطريقة تعالج حالات كهذه. ومهع أن السكان لم ينتقلوا من قريتهم، فقد اعتبروا «غائبين» واعتبرت أراضيهم» ممتلكات مهجورة» ووفقا لما يذكره القرويون فانهم خسروا ٨,٠٠٠ فدان من الـ ١١,٠٠٠ فدان التى يملكونها وكان هذا مصير كل قرى المثلث، فقرية طيرة التى تبعد حوالى اربعة اميال إلى الجنوب الشرقى، لم تحفظ الا بـ ١,٥٠٠ فدان من أصل ٨,٥٠٠ فدان.

لم يكن من الصعب تحديد السبب وراء سياسة المصادرة الإسرائيلية. إذ لما كانت ستة بالمائة فقط من فلسطين ملكا لليهود عند اعلان الاستقلال. فمن الواضح انه كان على الحكومة أن تنهب معظم الباقى لو انها ارادت خلق دولة يهودية من النوع الذى قصده الصهاينة، وهذا هو ما فعلته. بل أنها أذاعت بيانا صحفيا فى عام ١٩٥٣، لكى تبين أن كل المستوطنات، والتى أقميت خلال السنوات الخمس السابقة، قد بنيت على ممتلكات «غائبين» ووصف الجنرال دايان العملية لجمهور من المستمعين فى عام ١٩٦٩، قائلا:

«لقد بنيت القرى اليهودية مكان القرى العربية. انتم لا تعرفون مجرد اسماء تلك القرى العربية، وأنا لا الومكم لأن مثل هذه الكتب الجغرافية لم تعد موجودة، وليست الكتب وحدها غير الموجودة، بل أن القرى العربية ليست موجودة أيضا. لقد ظهرت ناحالال (قرية ديان) مكان محلول، وظهرت جيفات (كيبوتز) مكان جيبتة، وظهرت

سريد (كيبوتز آخر) مكان حنيفة، وظهرت كفار ييهوشوا مكان تل شمان. فليس هناك مكان بنى فى هذا البلد لم يكن فيه من قبل سكان عرب.

الآن وبعد أكثر من ثلاثين سنة من أقامة مستوطنات فى الضفة الغربية وغزة، وكذلك فى الأراضى السورية والمصرية يعترف إسرائيليون عديدون بأنهم لم يعودوا بحاجة إلى مزيد من الأراضى. لكن المصادرة لاتزال مستمرة، بدافع سياسى هذه المرة، أن معظم العرب فى إسرائيل، الذين يبلغ عددهم الآن ٥٥٠,٠٠٠ نسمة يعيشون فى الجليل. وفى عام ١٩٤٨، عندما طردت اعداد ضخمة من العرب، اصبح اليهود اغلبية فى المنطقة، إلا أنه بحلول عام ١٩٧٨ تجاوز عدد السكان العرب عدد اليهود نتيجة للارتفاع الهائل فى معدل المواليد وأصبحت المسألة مسألة حساسة للغاية فى البلاد لأن الامم المتحدة لمم تكن تقصد فى بادئ الامر أن يكون الجليل الغربى جزء من إسرائيل. فقد كان الهدف أن يكون جزءا من فلسطين العربية، وإذا ما قدر لمشروع الدولة الفلسطينية أن يصبح واقعا فى يوم من الايام، فإن عرب الجليل قد يطالبون بالاندماج فيها؛ خاصة إذا كانوا يشكلون اغلبية من سكان المنطقة .

ولهذا شرع الصهاينة فى القيام ببرنامج «تهويد الجليل» لضمان ألا يهيمن العرب ابدا على الجليل، ولهذا الهدف، بنيت الكرميل والناصرة العليا وعندما اصبحت المسألة حساسة بشكل خاص، جرى مؤخرا بدء حملة مسعورة لانشاء مستوطنات جديدة وعلى حساب الأرض العربية كالعادة وفى ٣١ يناير عام ١٩٧٩ صرح وزير الصناعة والتجارة امام الكنيست أن الحكومة قد اعطت الأولوية الاولى «فى كل الوزارات» للتنمية (اليهودية) للجليل، وذكر أن عشر مستوطنات قد اقيمت فى المنطقة منذ تولى الحكومة (فى مايو ١٩٧٧)، وبعد ذلك باسبوعين أعلن الجنرال شارون، وزير الزراعة، أنه سوف يتم البدء بانشاء تسع وعشرين مستوطنة خلال الأشهر الثلاثة القادمة. وأضاف أنه «منذ

الثلاثينات لم توجد رغبة ملحة فى انشاء المستوطنات كما هو الآن»

ويدرك أى مسافر عبر الجليل معنى التهويد : فالقرى العربية الباقية تقع عادة على أرض مرتفعة، على منحدرات التلال الصخرية تحيط بها صفوف قليلة من بساتين الزيتون، واسفلها، وتنتشر الكيبوتزات والمشافات املاك الصندوق القومى اليهودى، وتغطى الارض الخصبة فى الوديان. وهناك شيئ قد يحير المسافر هو انتشار نبات الصبار، غالبا فى اماكن غير متوقعة فى وسط الحقول أو قرب المزارع اليهودية. وتفسير ذلك غريب وهو: أن الصبار نبات عنيد، ومهما ستئصل فهو يعاود الظهور) وهذه سمة تقليدية من سمات للقرية لعربية، ولا تزال نباتات الصبار تعاود الظهور فى الاماكن التى كانت توجد بها تلك القرى. لقد كان يوجد قبل عام ١٩٤٨، ٤٧٥ قرية عربية دمرت منها السلطات الإسرائيلية ٣٨٥ قرية .

كذلك قوضت سياسة المصادرة الإسرائيلية الاقتصاد الزراعى العربى وببساطة لم تكن هناك أرض كافية تمكن هذا الاقتصاد من البقاء. ففى عام ١٩٤٨، كان متوسط الأراضى الصالحة للزراعة لكل قرية حوالى ٢,٢٨٠ فدانا، وبحلول عام ١٩٧٤ هبط إلى ٥٠٠ فدان، وقبل عام ١٩٦٢ كانت قرية دير الاسد مكتفية ذاتيا من حيث المواد الغذائية فقد كانت تنتج اللحوم والفاكهة والقمح والخضروات كما كانت تبيع الفائض فى عكا او الناصرة. وفى عام ١٩٦٢ صودرت أراضيها فى وادى مجد الكروم لحساب مشروع الكرميل وجردت القرية من أكثر افدنتها خصوبة. ولم تبق غير الارض الجبلية إلى الشمال، والمؤلفة أساسا من بساتين الزيتون. وهكذا بضربة واحدة تم تدمر اقتصاد دير الأسد. واليوم لايستطيع العمل فى الأرض غير عشرة بالمائة من القوى العاملة فى القرية، ويذهب أكثر من ثمانين بالمائة يوميا إلى مصانع حيفا أو يعملون كعمال فى المزارع اليهودية، وينطبق الشئ نفسه على كل القرى الأخرى. وأشد المناظر

مدعاة للحزن فى كل إسرائيل فهى الطوابير الطويلة من عربات نقل الركاب التى تقف خارج كل مدينة وقرية عربية بين الخامسة والسادسة صباحا لتنقل الآلاف الذين حرموا من العمل فى مواقعهم .

وتباينت ردود فعل العرب الإسرائيليين تجاه هذا الانقضاض المنظم على حياتهم بل وعلى شخصيتهم، ولابد أن نتذكر أنهم قد عاشوا ومازالوا يعيشون فى ظروف مختلفة تماما عن العرب الآخرين فقد ظلوا دائما يحكمهم أجانب– أتراك، والبريطانيون، والإسرائيليون– وقليلون منهم رأوا مدينة عربية تحت حكم عربى ومعظم السنوات الثلاثين الاخيرة كانوا فى حالة من الضعف وفى موقف الدفاع تواقين إلى عدم جذب الانتباه، فهم يدركون أن وضعهم شاذ، وأن أقلية عربية داخل دولة تكاد تكون فى حالة حرب دائمة مع العالم العربى لابد وأن ينظر اليها نظرة شك من جانب حكومة تلك الدولة كما يعرفون أن كثيرين من الإسرائيليين يعتبرونهم «طابورا خامسا» وأن بعضهم، مثل ديفيد شيكما، نائب عمدة تل أبيب، يدعون من آن لآخر إلى طردهم. أن هذه الخلفية هى التى خلقت مثل هذه المواقف المتباينة تجاه الدولة الصهيونية. وهى مواقف تتراوح بين الرفض التام أو الاستسلام أو حتى التعاون. ووفقا لاستطلاع للرأى العام نشر فى صيف ١٩٧٩، لا يعترف نصف عرب إسرائيل بحق إسرائيل فى الوجود، ويعتقد حوالى ثلثيهما أن حركة الصهيونية عنصرية. وبعضهم يسلم بأن الدولة سوف لاتختفى وأنه من الخطر المضى فى محاولة رفضها، لكن أحدا منهم لايمكنه نسيان أن خلقها كان ظلما ألحق بشعبهم .

وعادة ما تكون لمواقف القبول أو المعارضة هذه أصول شخصية، ولايبدوا وجود أى انقسامات بين الطبقات الاجتماعية أو الأقاليم أو بين سكان الريف والحضر إلا أنه يمكن القول بوجه عام أن التجار ورجال الاعمال يميلون إلى أن يكونوا أقل عداوة

للنظام من المثقفين، كما أن المسلمين أصلب فى معارضتهم من الدروز أو المسيحيين. لكن تباين المواقف واستحالة التعميم حولها يمكن اثباتهما بوجود التباين داخل الأسر. وأقوى الامثلة على ذلك أسرة الفاهوم من الناصرة. فمن بين خمسة اشقاء عين الإسرائيليين واحدا عمدة الناصرة، وأصبح آخر عضوا فى الكنيست ينتمى إلى أكبر حزب سياسى صهيونى، وعلى الجانب الاخر اصبح احد الاشقاء قائدا للائتلاف القومى، الجبهة العربية، خلال الخمسينات بينما كان رابعهم عضوا مؤسس لمنظمة التحرير الفلسطينية وأصبح فيما بعد رئيسا للمجلس الوطنى الفلسطينى .

ويمكن لتقسيم العرب الذين يقبلون إسرائيل ويتعاونون معها إلى فئتين: اولئك الذين اشتراهم النظام فعلا وأولئك الذين يشعرون أنه ليس هنالك بديل معقول. والاخيرون موقفهم انهزامى، ضرب من استجابة «فيشى» لشئ. هم على ثقة من أنه سوف يهزمهم دائما، وأنهم كرجال فيشى، يشمئزون من الذين يصرون على مواصلة النضال ويقولون: «لقد وجدت إسرائيل لتبقى ولذا من الافضل لنا أن نستغلها إلى أقصى حد ممكن. أننا مواطنون إسرائيليون وإذا كنا نريد تحسين الأمور، فإن علينا أن تكون مخلصين للدولة. وفى وضعنا لابد من أن نكون واقعيين .

أما مواصلة الاصرار على حقوقنا التى فقدناها على امتداد ثلاثين سنة خلت فإن ذلك ليس من شأنه غير تقديم ذريعة إلى إسرائيل لكى تواصل اضطهادنا ولقد كانت تلك النظرة تحظى منذ عشرين سنة بتأييد أكبر بكثير من اليوم. فلو أن هؤلاء المتشائمين تمكنوا من انتزاع بعض التنازلات الفعلية من الحكومة لربما تسنى لهم أن يبدوا على شيئ من المعقولية. لكن الإسرائيليين رفضوا مساعدتهم واستمروا فى السياسات التى هى أساس السخط العربى وتتمثل فى التفرقة بوجه عام ومصدرة الأراضى. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا الزيادة الواسعة النطاق للراديكاليين

والقوميين بين صفوف السكان العرب وخاصة الحزب الشيوعى .

أما العرب الذين اشتراهم النظام فهم خليط، فى القاعدة يوجد المخبرون أو المتعاونون المأجورون وهم عادة من أرقى مستويات المجتمع وعملهم هو نفس عمل جواسيس الشرطة فى كل مكان. وكان واجبهم خلال الحكم العسكرى، هو تقرير يومى من كافة أنشطة القرية وخاصة الأنشطة الثقافية أو السياسية .

وعند مستوى آخر يوجد قادة ومخاتير القرى ولم يكن هؤلاء يتقاضون رواتب كالمخبرين ولم يكونوا متواطئين نشطين. ومع ذلك، كانوا عادة بين السكان العرب وفى مقابل بعض الامتيازات التى منحتهم اياها الحكومة، وكان يمكن الاعتماد عليهم فى اخماد أية بوادر للروح القومية أو المعارضة. لكن هذه الطريقة أخذت فى التلاشى بصورة مطرده على مر السنين. ففى السابق كان الإسرائيليون يركزون على العائلة القيادية لقرية بعينها فيسير فى ركابها غالبية السكان. أما الآن وقد أخذ التنظيم الاجتماعى للقرية بتفسخ ولم تعد السلطة مركزة فى ايدى عائلة أو عائلتين، فإن العملاء يتلاشون .

وتتألف مجموعة ثالثة مؤيدة للنظام من أعيان وساسة المدن، وقد ارتبط معظمهم بالحزب السياسى الأكبر، حزب العمل الإسرائيلى وأن لم يسمح لهم، لأنهم عرب، بأن يصبحوا أعضاء فيه قبل سنة ١٩٧٣ . وكان الحزب قد تشكل فى سنة ١٩٦٨ باندماج ثلاث مجموعات عمالية، الماباى ورافى. وأحدوت هاعفودا. وبصورة أو بأخرى شكل الحزب حكومة إسرائيل فى الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٧٧ .

وبعض المنضمين من العرب لحزب العمل الإسرائيلى يرشحون فى انتخابات الكنيست وعادة ما ينتخب ثلاثة أو أربعة منهم. أما بالنسبة للحزب، فليست لهم غير وظيفتين: حث العرب على التصويت للحزب فى الانتخابات والتمسك الشديد بسياسة

الحزب بعد ذلك. وخلال الحكم العسكرى سهل من المهمة الاولى بالضغط الذى مارسه الضباط المؤيدون للماباى على الناخبين العرب. وفى احد الانتخابات، صوت كل العرب فى اللد لصالح الماباى باستثناء زوجين صوتا المابام (حزب العمال المتحد). وفيما بعد القى القبض على الزوج، وقال له الحاكم العسكرى، «سأعلمك معنى التصويت للمابام»، ثم ضرب العرب فى داخل إسرائيل ينظرون دائما إلى أعضاء الكنسيت، فنادرا ما ألقوا خطبا حول المسائل الحساسة وفى مناسبة واحدة، عندما انقسم الكنيست بالتساوى حول موضوع ما اذا كان يجب الابقاء على نظم الدفاع (الطوارئ) السيئة أم لا، صوت الاعضاء العرب ضد الغائها. وهم اليوم موضع احتقار اكثر من ذى قبل ولايصوت لصالحهم فى الانتخابات المحلية أو القومية غير عدد من العرب آخذ فى التقلص. لقد بدأوا حياتهم السياسية زاعمين أن قبول إسرائيل والتعاون مع السلطات يشكلان الاساس الممكن الوحيد للتعايش بين اليهود والعرب، وتمكنوا لسنوات عديدة من اقناع بعض الناس بأنهم الممثلون الحقيقيون للعرب الذين يناضلون من أجل حقوقهم من داخل الحكومة، لكن الاعتداءات المتصلة على الحقوق العربية من جانب الحكومات المتعاقبة التى صوتوا لصالحها فى الكنيست قد زعزعت موقفهم ودفعت العديد من مؤيديهم إلى المعسكر الراديكالى .

وأحد هؤلاء الضحايا هو سيف الدين الزعبى، وهو من كبار الملاك من الناصرة وعمدة سابق للمدينة. ففى عام ١٩٤٩ انتخب لكنيست كديمقراطى من الناصرة من حزب ينتمى للماباى وظل هناك طيلة معظم العقود الثلاثة التالية. والواقع أنه كان واحدا من مؤيدى المباباى القلائل الذين تحدثوا فعلا عن القضايا العربية وقد هاجم فى الخمسينات علانية قانون الجنسية وقانون الاستيلاء وتحدث مؤيدا عودة اللاجئين. إلا أنه لم يكن بوسع أى مؤيد نشط لحزب جولدا مائير أن يحتفظ بعدد كبير من المؤيدين العرب إلى مالا نهاية وفى سنة ١٩٧٥ هزم هزيمة ساحقة فى الانتخابات لمنصب

عمدة الناصرة. ففى انتخابات مباشرة لم يحصل الا على أربعة وعشرين بالمائة من الاصوات بينما حصل خصمه الشيوعى، توفيق زياد، على ثلاثة وستين بالمائة. ولما خيب سقوطه آماله استقال من الكنيست فى عام ١٩٧٩، موجها اللوم لكل من من المتطرفين العرب واليهود فى عدم تحقيق شكل مرضى من التعايش .

ويعتبر الدروز جماعة مختلفة من مؤيدى إسرائيل. فمن الناحية الرسمية لاتعتبرهم الدولة عربا ولذا فانهم يخدمون فى الجيش الإسرائيلى وشرطة الحدود. ومن الناحية التاريخية تربطهم علاقات وثيقة بالصهاينة ولم يلعبوا أى دور سواء فى الثورة العربية التى وقعت ما بين عامى ١٩٣٧و١٩٣٩ أو فى حرب ١٩٤٨. وبناء على ذلك فقد منحهم الإسرائيليون وضعية خاصة ولا يعانون الا قليلا من التفرقة الموجهة ضد العرب المسلمين والمسيحيين. فهم وحدهم من بين كل الطوائف العربية الذين لايعاملون كأقلية وتعالج شئونهم هيئات الوزارات العادية بدلا من هيئات الأقليات الخاصة. كما أنهم ممثلون بشكل زائد عن الحد فى البرلمان: فمع أنه لايوجد غير حوالى ٣٥,٠٠٠ درزى فى إسرائيل اليوم، فإن لهم ثلاثة أعضاء فى الكنيست بمن فيهم أمل نصير الدين، العضو اليمينى المتطرف فى الائتلاف الحاكم .

أن الدروز مثال صارخ لسياسة «فرق تسد» التى تتبعها إسرائيل، لكن من غير المرجع، فيما يبدو، أن يستمر التحالف لفترة أطول. فالدور المتعلمون– مثل الشاعر الشيوعى والمعادى بشدة للصهيونية سميح القاسم– يعرفون تماما انهم دورز من حيث العقيدة وعرب من حيث القومية. فشعبهم عبارة عن هراطقة من الاسلام ينتشرون فى جنوب سوريا واقليم الشوف اللبنانى وشمال إسرائيل، وأيا كانت الخصائص الطائفية التى قد يكونوا اكتسبوها، فانهم عرب من الناحية العرقية واللغوية وكما تعلن لجنة المبادرة الدرزية المتزايدة النفوذ، «اننا نتقاسم الدين العربى والتراث العربى، وماضينا

ومستقلنا عربى». كما أن الدروز الإسرائيليون يتعاطفون الآن مع اخوتهم فى العقيدة فى أماكن أخرى وقد فعلوا ذلك بوجه خاص مع السياسى اللبنانى، كمال جنبلاط، الذى قاد الحركة الوطنية العربية فى لبنان على امتداد عشرين سنة حتى اغتياله فى عام ١٩٧٧، وأحد مؤشرات نفوذ هذه الحركة هو عدد الدروز الذين فروا مؤخرا من الجيش الإسرائيلى أو الذين رفضوا أداء الخدمة العسكرية على أساس انهم طلاب دينيون أو عرب .

وكانت الطريقة الإسرائيلية فى حل مشكلة التمثيل العربى هو الحاق عدد من العرب المستأنسين بالحزب الحاكم الرئيس. الا انه لكى يتسنى لهذه السياسة النجاح، كان لابد من منع ظهور أحزاب عربية حقيقية. وقد تمكن الإسرائيليون من ذلك بنجاح عظيم: فبين عامى ١٩٥١و ١٩٦٥ كانت هناك سبع محاولات لتشكيل حزب عربى وفشلت جميعها .

بل أن مؤتمر العمال العرب، الحركة النقابية التى كانت تعمل خلال الانتداب قد أجهز عليه فور الاستقلال. وبما أن التنظيم النقابى الرسمى، الهستدروت كان محظورا على غير اليهود، فقد منع ذلك العرب بصورة فعالة من أن يكونوا أعضاء فى تنظيم عمالى .

أما الحركات الاكثر خطورة، من وجهة النظر الإسرائيلية، فهى الجبهة العزبية التى تشكلت عام ١٩٥٨، وجماعة الارض التى تكونت فى عام ١٩٦٤. وكانت الجبهة العربية ائتلافا نصر القوميين العرب والشيوعيين الذين شنوا حملة من أجل أنهاء مصادرة الأراضى والغاء الحكم العسكرى. وقد تشكلت الجبهة فى ذروة مد القومية العربية، عندما اطيح بالنظام الهاشمى الموالى لبريطانيا فى العراق وكان جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة وقد اثارت الجبهة حماسا هائلا بين

صفوف السكان العرب كما انها سببت قلقا بالغا للسطات الإسرائيلية. لكن الاخيرة احجمت عن اعلان انها غير شرعية اذ كان ذلك سيؤدى إلى استعداء الاتحاد السوفيتى. وبدلا من ذلك قررت أن تجعل من المستحيل على الجبهة ممارسة نشاطها وذلك بحظر الاجتماعات وفرض القيود على سفر قادتها لكن الانقسام بين القوميين العرب والشيوعيين فى جميع انحاء العالم العربى أدى إلى انهيارها فى نهاية المطاف .

وقد استخدمت اساليب أشد عنفا ضد جماعة الارض، التى أسستها المعارضة الوطنية العربية فى عام ١٩٦٤ . ففى ذلك العام قررت تسجيل نفسها كحزب سياسى وارسلت بيانا بسياستها إلى حاكم المنطقة .

ومع أن زعيمها، منصور قردوش، أعلن فى بيان مطبوع أن الارض تعتقد أن «الشعب اليهودى له حق فى دولة مستقلة خاصة به »، رفض حاكم المنطقة قبولها كمنظمة سياسية. وقال انها اقيمت بهدف «تهديد وجود وأمن دولة إسرائيل» وأكدت المحكمة العليا فى وقت لاحق القرار وحاول وزير الدفاع استخدام (الطوارئ) لمنع الجماعة تماما .

وفى العام التالى قرر أعضاء الأرض دخول انتخابات الكنيست وقدموا عددا من المرشحين سموا أنفسهم اشتراكيين وأوفوا كل شروط الترشيح، ولو أنه سمح لهم بدخول الانتخابات، لفازوا بالتأكيد لكن الإسرائيليين ردوا بطرد المرشحين من المناطق العربية- ونفى قردوش نفسه إلى صحراء النقب- وتقييد تحركات مؤيديهم. وفى نهاية الأمر منعوا المرشحين من الاشتراك فى الانتخابات .

وفى إسرائيل اليوم لايزال أعضاء جماعة الارض القديمة نشطين فى السياسة المحلية وأن كان الاسم لم يعد له وجود. وقد انضم بعضهم إلى حركة تسمى ابناء الارض لاتزال تخوض نفس المعارك التى خاضعها جماعة الارض. ولاتزال مصادرة

الأراضى هى القضية الرئيسية بالنسبة إلى العرب وسبب الراديكالية المتنامية فى الجليل– ففى أول مارس ١٩٧٦ أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن خطط لمصادرة ٧,٥٠٠ فدان فى المنطقة. وكان من المقرر مصادرة أكثر من نصف هذه الأراضى من ثلاث قرى متجاورة شمالى الناصرة: سخنين وعربة وديرحنا. وقد تمثل رد الفعل العربى فى تشكيل لجنة للدفاع عن الارض دعت إلى اضراب عام فى ٣٠ مارس وعشية الاضراب هاجم الجنود والشرطة الإسرائيلية القرى الثلاث، وقتلوا ثلاثة أشخاص رميا بالرصاص وجرحوا كثيرين آخرين. وفى اليوم التالى كرروا العملية وقتلوا ثلاثة اشخاص آخرين. من اجل معاقبة العرب على احتجاجهم السلمى ضد سرقة أراضيهم، قتلت القوات الإسرائيلية ستة أشخاص، وجرحت تسعة وستين، واعتقلت ٢٦٠ آخرين. أن هذه الوحشية التى ارتكبت فيما يعرف الآن بـ «يوم الارض» لم يزد الرأى العام العربى الا تشددا ضد النظام وأصبحت القرى الثلاث، بنصبها التذكارى للشهداء، بؤرة لنضال العرب .

كما أن احدى نتائج الاضرار الجديدة تتمثل فى القومية التقدمية، التى تتعاون تعاونا وثيقا مع ابناء الارض، وهى كتنظيم تعتبر أقل فعالية لكنها أكثر قدرة على الاستفزاز العلنى .

ففى يناير ١٩٧٩، وقعت مشاجرة ضخمة فى إسرائيل عندما أعلنت مجموعة من أعضائها انهم «لا يعترفون بالكيان الصهيونى» وأعلنوا تأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية .

كما أدانوا الحزب الشيوعى لأنه يعترف بدولة إسرائيل واتهموه بـ «محاولة اغتصاب قيادة النضال العربى الفلسطينى». وترفض الحركة، التى تتكون اساسا من الطلبة، فكرة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة تدعو إلى دولة ديمقراطية علمانية

فى كل فلسطين. ومع أن قادتها يعترفون بأن هدفهم قد لايمكن بلوغه لـ «عشرات السنين» فانهم يرون ان واجبهم المباشر هو «تعليم» الشعب وتذكره بهويته الفلسطينية .

ولا تجتذب الحركة القومية التقدمية غير تأييد طفيف خارج صفوف الطلبة ويرى كثيرون من العرب انها عنيدة واستفزازية، وانها «مجموعة من الطلبة السذج الذين يرفعون الشعارات». كما يعتقدون انها تعرض موقفهم للخطر وتوفر للإسرائيليين ذريعة لمواصلة اضطهادهم، أما الشيوعيون فيرمونهم بالتطرف وعدم الواقعية، وبرطانتهم المعهودة يدين اعضاء الحزب الحركة «لايديولوجيتها الشوفينية والبورجوازية الصغيرة» ويشكو آخرون من أن الطلاب يحجمون المشكلات الحقيقية التى تواجه العرب. فهم يتصرفون كالمفتى باصرارهم على سياسة لايمكن نجاحها بينمتا كان ينبغى عليهم التركيز على المصاعب التى تواجهها الاقلية العربية كقطاع معدم داخل الدولة اليهودية

ورغم معارضة الحركة القومية التقدمية فإن الحزب الشيوعى أو «داكاح» هو الحزب السياسى الوحيد الذى يمثل العرب فى إسرائيل على الصعيد القومى والمستعد للدفاع عن حقوقها. وربما يعتبر ذلك نتيجة لرفض إسرائيل بقيام حزب قومى عربى. لكنه أيضا نتاج لمعارضة الحزب المستمرة لسياسات النظام الإسرائيلى منذ السنوات التالية للاستقلال مباشرة. لقد أيد الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٤٧، الموقف الأمريكى وصوت فى صالح التقسيم. ونتيجة لذلك كان الحزب الشيوعى الإسرائيلى موضع شك من جانب السكان العرب لبضع سنوات. بيد أنه سرعان ما أصبح من الواضح أنه التنظيم الوحيد القادر على مواجهة الحكومة. وعندما اتجه عبد الناصر، الذى كان يتمتع بشعبية بين العرب الإسرائيليين وكذلك فى البلدان العربية، إلى الاتحاد السوفييتى فى نضاله ضد الغرب، ارتفعت مكانة الحزب. وفى الوقت الذى كانت

إسرائيل تتمتع فيه بدعم قوى من جانب بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة قوبلت بالحماس مبيعات الاتحاد السوفييتى من الاسلحة لمصر ومساعدته فى بناء السد العالى فى اسوان. وقد انخفض أسهم الحزب مرة أخرى مع سقوط الجبهة العربية فى عام ١٩٥٨، لكن فشل جماعة الارض فى عام ١٩٦٥، جعله الحزب الطبيعى الوحيد للمثقفين ولقوميين، أن واحدا من أروع الشعراء الفلسطينيين، توفيق زياد، عضو فى الكنيست عن راكاح، كما يشغل شاعرا آخر، سليم جبران، منصب الامين العام لفرع الحزب فى الناصرة .

ومع أن بعض مسئوليه يعترفون بأنهم لم يقرأوا ماركس قط ويفضلون تذيين غرفهم بصور عبد الناصر بدلا من صور لينين، فإن راكاح مايزال بعيدا جدا عن تطوير نوع من «الشيوعية الأوروبية»، أن علاقات الحزب مع موسكو وثيقة وتنظيم الحزب قائم على أسس سوفيتية كلاسيكية. فللحزب مكتب سياسى ولجنة مركزية وعضوية مقسمة بالتساوى تقريبا بين العرب واليهود، وأن كان مؤيدوه من العرب أساسا وفى الانتخابات القومية، يقدم راكاح أكثر من تسعين بالمائة من قوة التصويت لصالح الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة التى كسبت خمسة أعضاء فى الكنيست (من بين ١٢٠ عضوا) فى انتخابات ١٩٧٧ . وثلاثة منهم أعضاء فى راكاح، وواحد منهم قائد للفهود السود والخامس رئيس لاتحاد العمد العرب. كما أن صلات الحزب بالحركة القومية تجد تأكيدا لها فى الانتخابات المحلية. ويفضل راكاح العمل فى تحالفات، وعلى سبيل المثال، فإن الجبهة الديمقراطية فى الناصرة، والتى يهيمن عليها راكاح ايضا، تضم كذلك مستقلين، ورابطة اكاديمية الناصرة، ونقابة التجار، والمستقلين، واتحاد طلبة الناصرة .

وبالرغم من التزامه الشديد بخط موسكو فإن راكاح حزب شعبى ويأتى مؤيدوه

من كل قطاعات الطائفة العربية باستثناء القرى الصغيرة حيث لايزال التصويت على أساس المجاملة ساريا، والبدو .

وفى معظم المدن يظفر راكاح الآن بين ثلثى وثلاثة ارباع أصوات العرب، منتزعا آلاف الاصوات التى كانت تؤيد فى يوم من الايام حزب الماباى والحزب الدينى القومى. (من السهل تفسير الظاهرة الغريبة المتعلقة بتصويت العرب لصالح حزب دينى يهودى. فالحزب الدينى القومى يتقلد عادة وزارتى التعليم والداخلية: وهكذا فإن المدرسين وموظفى هاتين الوزارتين يجرى «تشجيعهم» على التصويت لصالحه) .

وليس ذلك لأن العرب فى إسرائيل شيوعيون متحمسون- فمؤيدو راكاح يتجاوزون عدد أعضاء الحزب الشيوعى بنسبة اكثر من مائتين إلى واحد بل لأن الحزب هو الحزب الوحيد فى البلاد المستعد لاتخاذ موقف حول القضايا الأساسية اليومية المتعلقة بالمصادرة والتفرقة .

ويمثل توفيق زياد النهج العملى والواقعى للحزب، فزياد الذى ولد عام ١٩٣٠، وأصبح عضوا فى الحزب وهو فى الثالثة عشرة من عمره، قد سجن ثمانى مرات منذ عام ١٩٤٨، وفى نوفمبر ١٩٥٥، ضرب وعذب بعد القائه خطبة فى طبرية. وقد انتخب للكنيست فى عام ١٩٧٣، وأصبح عمدة للناصرة بعد ذلك بسنتين. وهو شاعر وكاتب رقيق العود يمشى متثاقلا وقد غزا الشيب شعره قبل الاوان وتعلو شفتيه ابتسامة متعبة. وخلافا لكثير من الماركسيين، نادرا ما يهبط إلى مستوى «كاتب الكراسات» وسياسته عملية دائما. وهو عربى وقومى لكنه واقعى ايضا. ولعله يمثل الموقف العربى الإسرائيلى تمثيلا جيدا كأى واحد آخر، ومن المؤكد أنه يمثله تمثيلا أفضل من طلبة الحركة القومية التقدمية الغاضبين، فزياد، لايعرف الدق على الصدر، وعد الحديث الفارغ عن حقوق لايمكن بلوغها، وسواء اراد ذلك أو لم يرد، فانه

مواطن فى إسرائيل وتتمثل سياسته فى العمل من أجل المساواة والحقوق القومية التامة للعرب داخل اطار الدولة الإسرائيلية. انه عنصر هادئ غير انه لا وجود هنالك لبديل معقول، فى ضوء الخيارات الاخرى المتاحة أمام العرب فى إسرائيل ومركزهم الحرج فى الدولة الصهيونية .

القدس والأراضى المحتلة

القدس مدينة الديانات التوحيدية الثلاث الكبرى فيها عاش اليهود والمسيحين والمسلمون طيلة تاريخها تقريبا، وداخل أسوارها أماكن مقدسة هامة لكل الديانات الثلاث، وفى الغالب الاعم نعمت كل ديانة بحرية زيارة تلك الأمكان، لكن بينما لا ينتمى القدس لدين بعينه فانها تنتمى لشعب معين، فهى مدينة عربية من حيث طابعها وتكوينها وباستثناء ثلاث فترات قصيرة ابان الحروب الصليبية، ظلت القدس على هذا الحال طيلة ١,٣٤٠ سنة ولا تزال إلى اليوم على ما كانت عليه وان طرد منها عدة آلاف من سكانها العرب فى خلال السنوات الأخيرة الماضية وحل محلهم يهود.

وقد اخترق خط هدنة عام ١٩٤٩ القدس من الشمال إلى الجنوب فظلت المدينة القديمة، المسورة ومناطق قليلة ناحية الشمال فى أيدى العرب فى حين أن المدينة الحديثة فى الغرب بضواحيها العربية واليهودية، أصبحت جزءا من إسرائيل. وفى يوليو عام ١٩٦٧م استولى الجيش الإسرائيلى على المدينة القديمة لتضمها الحكومة بعد أسابيع ثلاثة ووصف الإسرائيليون ما قاموا به بأنه «توحيد» أو «تعايش» لكنه لم يكن شيئا من هذا القبيل بل كان احتلالا غير شرعى. وكما يقول كاتب إسرائيلى. هو عاموس ايلون، انه نفس التعايش القائم بين راكب الجواد وجواده، وأن «عبارة» دايان «الحياة معًا» تعنى حكم الشعب لآخر.

وتبرهن جولة قصيرة حول المدينة على أن ايلون على حق. فالميدان الكبير أمام حائط المبكى الذى أقيم مكان حى المغرب القديم والذى طرد سكانه البالغ عددهم ٦٥٠ شخصا بعد انذار لم يدم سوى لحظات قليلة فى عام ١٩٦٧، ليس رمز «التعايش» والجنود الإسرائيليون الذين يمشون فى الأسواق بخيلاء أمام سكان عابسين لا يظهرون مزايا الحياة معا.

وليس ثمة ما يصور التحكم الصهيونى تصويرا أفضل من المنظر الذى يشاهد من جبل الزيتون: ففى وسط المسافة تقف الاسوار العظيمة للحرم الشريف، الحرم الاسلامى الذى يضم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ومن خلفه تظهر قباب القبر المقدس، وفى الغسق يمتد رنين الاجراس من الكنائس وآذان المؤذنين من المساجد لتخترق جثيمانى ووادى قيدرون. لكن تأثير هذا الالتقاء على غير موعد يبدده الشبح الكامن من خلفها. شبح الفنادق الإسرائيلية الجديدة الضخمة التى تنظر فى غطرسة إلى المدينة القديمة. وعندما ينظر المشاهد شمالاً وجنوباً على حد سواء سوف يدرك مدى التحكم الإسرائيلى. فالقدس مطوقة بالعقارات السكنية اليهودية المشيدة فوق الأراضى العربية المصادرة والتى تحتل موقعا استراتيجيا على قمم التلال المحيطة، عازلة المدينة من قلبها العربى.

لقد كان ضم إسرائيل للقدس عملا غير شرعى مما دفع المجتمع الدولى إلى ادانته فبعد أسبوع من « التوحيد» أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا يدعو إسرائيل إلى الغاء كل الاجراءات التى اتخذتها والابتعاد من الآن فصاعدا عن أى عمل من شأنه تغيير وضع القدس. ولم تصوت دولة ضد هذا القرار – باستثناء إسرائيل بالطبع – ولم يتحدث مندوب واحد مؤيداً قيام إسرائيل بضم القدس، وقد رد الإسرائيليون بأن القدس لا يجب أن تكون مجزأة مرة أخرى مؤكدين بأن مزايا «التوحيد» سوف تشمل كل قطاعات السكان بالتساوى، لكن السنوات التالية لم تكشف عن دليل لهذا التأكيد، بل أن العمدة اليهودى للمدينة «الموحدة» حديثاً (فقد طرد العمدة العربى للمدينة القديمة إلى الأردن) أعرب عن أسفه إزاء «الموقف الإسرائيلى المتعنت والعدائى وانتقد عجز حكومته «الكامل» عن قيام حياة القدس الشرقية (أى العربية) وثقافتها وفى مجال الاسكان نجد الدليل على ذلك، ففى حين شيدت عشرات الآلاف من المساكن الجديدة للمستوطنين اليهود على مشارف القدس، لم يبن شئ للسكان

العرب بالرغم مما تعانى منه المدينة من ازدحام شديد. وفقط بعد عام ١٩٧٩ أى بعد أثنى عشر عاما من بدء الاحتلال، أقيمت أولى المساكن العربية - وهى عبارة عن مجموعة من الوحدات السكنية المكونة من غرفتين بالقرب من ميثالى.

لقد تصور نفر قليل من العرب على نحو متفائل أنهم سوف يفيدون من «التوحيد» وكان أولئك الأفراد ممن لهم ممتلكات فى القدس الغربية لكن انتهى يوم المطاف باللجؤ إلى الجانب الآخر من خطوط هدنة عام ١٩٤٩ . وعدد ما تم ضمهم فى عام ١٩٦٧ ، وقيل لهم أنهم أصبحوا مواطنين إسرائيلين توقعوا على الأقل أن يسمح لهم باسترداد ممتلكاتهم. لكن شيئا من ذلك لم يحدث على الاطلاق. فحيث أنهم كانوا «غائبين» فى عام ١٩٤٨ لم يعد لهم أى حق فيها. ان محمد جاد الله، وهو ابن مفتى سابق للقدس فقد داره وأرضه فى عام ١٩٤٨ وصار لاجئاً.

وفى عام ١٩٦٧ أستولى الإسرائيليون على بيتى الثانى وضعوا مدينتنا وقالوا لنا أننا مواطنين إسرائيلين، ولهذا ذهبت إلى الحكومة الآسرائيلية ومعى مستند ملكية وقلت: «بما اننى الأن من رعايا إسرائيل، فهل تردون لى أرضى ؟» كانت الارض شاغرة، ولم يكن هنالك أحد يقيم فى دارى. لكنهم رفضوا دون ابداء أية أسباب. لقد تعذر عليهم ذلك لأنه لم يكن لديهم سبب منطقى. فأناس منطقيون فى كل شئ آخر لا يبدون منطقيين عند ما يتعاملون معنا نحن الفلسطنيين.

وفى السنوات التى أعقبت حرب ١٩٦٧ ، صادر الإسرائيليون حوالى ثلاثين فدانا من المبانى داخل المدينة القديمة، مكان الحى اليهودى التقليدى، وحتى قبل عام ١٩٤٨ ، كانت ممتلكات اليهود أقل من عشرين بالمائة من مساحة المنطقة لكن ذلك لم يمنع الإسرائيليين من الاستيلاء عليها كلها وطرد أكثر من ٥,٠٠٠ عربى من ديارهم أما المصادرات خارج الأسوار فجرت على نطاق أوسع، اذ تمت خلال السنوات

الخمس الأولى للاحتلال مصادره نحو ٤,٠٠٠ فدان من الأراضى العربية فى القدس العربية، وبنهاية عام ١٩٧٨ ، كان قد صودر ٢٣,٦٤٠ فدانا فى منطقة القدس الشرقية لكى تكون مواقع لمساكن يهودية وكان ٧٦,٠٠٠ مستوطن يحيون فى أراضى عربية، وقد أضفى على العملية كلها، كما هى العادة، وجه شرعى وتمكن الإسرائيليون من تنفيذها بموجب قانون الاستيلاء على الأراضى للأغراض العامة الصادر فى عام ١٩٤٣ ، ولم يكن هذا القانون، شأنه شأن القوانين الأخرى الرامية إلى تسهيل المصادرات داخل إسرائيل نفسها سوى تغطية هدف أصلى مغاير تماما. وكما أشار أرنولد سباير وهو محام إسرائيلى ناجح، قائلاً اننى لا أفهم كيف يمكن أن يعد غرضاً عاماً نقل أسرة عربية واحلال يهود محلها ... أنهم (الإسرائيليون) يخلقون ارابين (منطقة خالية من العرب) لا يمكن الدفاع عنها من الناحية الأخلاقية بأكثر مما يمكن الدفاع به الجوديرين (منطقة خالية من اليهود) فى أوروبا قبل الحرب الأخيرة.

ويسمى عرب القدس هذه العملية «تهويد» المدينة المقدسة فهم يريدون اعدادهم تتناقص بينما يستوطن أراضيهم مهاجرين يهود من الإتحاد السوفيتى وأماكن أخرى، كما يرون المبانى الضخمة التى هى أشبه ما تكون بالقلاع وقد أخذت تحيط بمدينتهم وتكاد تقطع صلاتهم التقليدية مع مدينتى رام الله وبيت لحم، كذلك يسمعون عن خطط الحكومة بالنسبة لمستقبلهم : فقد نقل عن وزير الاسكان قوله: ان الخطة الرئيسية هى جعل القدس أكثر يهودية «وورد أن وزير الهجرة أعلن أن الشئ الجوهرى بالنسبة للقدس هو وجود غالبية يهودية ساحقة ومستقرة بصفة دائمة» وهم يسمعون دايان وهو يقول أن «القدس قد لا تكون جميلة، لكن الشئ الهام هو أنها سوف تبنى بحيث تمتد من عناتا شمالاً إلى بيت لحم جنوباً، ومن تلال يهودا شرقاً إلى النبى صموئيل غرباً، كذلك يراقبون العالم كله وهو يدين سلوك إسرائيل– من الامم المتحدة إلى التايمز، ومن أرنولد توين إلى يهودى مينوهين – بينما لا يعير الإسرائيليون كل

هؤلاء أى اهتمام وقد تأثر آرثر كوتشير، وهو مسئول تخطيط سابق للمدينة القديمة، إلى حد أنه كتب كتابا ينتقد بربرية حكومته غير العابئة، فقد كتب يقول: ان ادراك الاساس المشترك بأن جوهر القدس الروحى يرتبط ارتباطاً لاينفصم بخصائصها العرقية الملموسة، وهى الوعى الذى تؤكده أربع آلاف سنة من البناء فى المدينة – هذا الادراك لا يتعرض الآن للتجاهل فحسب بل أصبح لا يحظى بالاعتراف. وبدلا من ذلك ظهر اسلوب جديد للتفكير حول القدس وهو آن المدينة مصدر يجب استغلاله، وخصائصها الروحية المرئية سلع تباع وتشترى.

لقد كانت القدس، قبل الضم، عاصمة الضفة الغربية والهضاب الوسطى التى تتألف من منطقتى يهودا والسامرة وقلب فلسطين القديمة. وطبيعة يهودا قاسية وجافة ومن معالمها الرئيسية خط المدن الجبلية الممتدة شمالا من الخليل عبر بيت لحم القدس ورام الله والبيره.

أما السامرة فهى أرق وأكثر خصوبة، اذ تنتج الزيتون والفاكهة، وتهيمن عليها نابلس، وهى مدينة عربية كبيرة تقع بين التلال التاريخية لاويبال وجيريزيم، وإلى شمالها تقع مدينة جنين التجارية، على حافة وادى اسدراليون ؟ وإلى الغرب تقع قلقيلية وطولكوم بالقرب من حدودو هدنة عام ١٩٤٩ ، على السهل الساحلى تقريباً، وعلى الجانب الشرقى من التلال، على بعد أميال قلقيلية شمالى البحر الميت، تقع اريحا، ٨٠٠ قدم تحت سطح البحر، والمدينة الوحيدة فى وادى الأردن. وإلى جانب غزة وقطاع الأرض الصغير المحيط بها، كانت الضفة الغربية هى المنطقة الوحيدة التى افلتت من الغزو الإسرائيلى عام ١٩٤٨ ، ويجدر النظر إليها فى شئ من التفصيل، لأن الضفة الغربية – رغم أن إسرائيل قد احتلتها منذ عام ١٩٦٧ ، ورغم أن عددا كبيرا من سكانها من لاجئى عام ١٩٤٨– هى المنطقة الوحيدة التى لايزال المجتمع

الفلسطينى فيها يكاد يماثل بيئته الطبيعية.

فقـد استمرت المنافسة بين عائلتى الحسينى والنشاشيبى خلال وبعد حرب ١٩٤٨. فقـد أقام المفتى «حكومة فلسطين» فى غزة فى خريف ١٩٤٨. واعترف مؤتمر الأعيان بالضفة الغربية الذى عقد فى اريحا فى مايو ١٩٤٩ بالملك عبد الله، فى شرق الأردن وحليف رأب النشاشيبى «ملكا لكل فلسطين». وأعيدت تسمية شرق الأردن بالاردن وضمت رسميا إلى القدس الشرقية والضفة الغربية فى عام ١٩٥٠، وان كان قرار البرلمان الاردنى باتخاذ هذه الخطوة قد أعلن صراحة أنها من أجل «صون كل حقوق العرب فى فلسطين» وأنها لاتضر التسوية النهائية لقضية فلسطين «العادلة». وقد عين النشاشيبى نفسه حاكماً عسكرياً للمنطقة التى جارى ضمها.

ولعل توحيد ضفتى النهر كان، وقتئذ ، أكثر الاجراءات معقولية، فقد كان شعب الضفة الغربية على درجة من الضعف والارتباك يتعذر معها تشكيل دولة خاصة، وعلاوة على ذلك، فإن عبد الله النشاشيبى، والذين كانوا يخططون لهذا الحل منذ مشروع بيل للتقسيم لعام ١٩٣٧، كانوا يشعرون بأنهم أحق بالضفة الغربية من المفتى. وعلى أى حال، فإن أداء جنود شرقى الاردن التابعين للفيلق العربى هو الذى حال دون استيلاء الإسرائيلين على المنطقة كلها.

وكانت المشكلات التى واجهت الضفة الغربية بعد حرب ١٩٤٨ عويصة فمن الناحية الاقتصادية، كانت تتجه دائماً ناحية الغرب وكانت تجارتها ترتبط أرتباطاً وثيقاً بالساحل. أما الآن فقد اضطرت إلى الاتجاه ناحية الشرق. وفى السابق لم يكن النهر والصحراء الممتدة خلفه يلعبان دوراً فى وجودها، أما الآن فقد اصبح عليها أن تتطلع إليهما حتى يتسنى لها البقاء، وتاريخيا كانت تجارة الخليل مع بئر سبع وميناء غزة، وكانت لنابلس علاقات اجتماعية واقتصادية وثيقة مع قرى المثلث، أما اليوم فقد عين

على المدينتين أن تتجها شرقى ناحية عمان. وكان الأمر أسوأ من ذلك بالنسبة لمدينتى طولكورم وقلقيليه اللتين تطلان على البحر المتوسط، فبعد عام ١٩٤٨، حرمت ليس فقط من منافذهما التقليدية إلى البحر، بل فقدتا أيضاً معظم أراضيهما الواقعة فى السهل نفسه.

وبدلا من الحقول الغنية التى كانوا يفلحونها فى السابق والتى كانوا يبيعون محصولها للمدن الساحلية، أصبح سكان قلقيلية أن يتجهوا إلى التلال غير الخصبة خلف ديارهم وان كانوا يحاولون بيع محاصيلهم الهزيلة الجديدة للاسواق الفقيرة فى الشرق، وقد واجهت القدس مصاعب مماثلة إذ كان التوسع الطبيعى للمدينة دائماً نحو الغرب على طول طريق يافا، وخلال هذا القرن أقيمت معظم المبانى الجديدة – عربية ويهودية وأجنبية – غربى المدينة القديمة.

وفى عام ١٩٤٨ تم قطع محور القدس – يافا ليجد عرب المدينة القديمة أنفسهم وقد حرموا من الوصول إلى الغرب. ولما كان الطريق الرئيسى إلى بيت لحم قد أغلق بدوره وحال وادى قيدرون وجبل الزيتون دون التوسع شرقاً، ألمت بالقدس العربية نكسة أقتصادية كبرى بعد عام ١٩٤٨، وأصبحت معتمدة بالكامل تقريبا على عمان.

وكان النظام الأردنى حريصاً على صون أكبر قدر ممكن من الاستمرارية فى الضفة الغربية. وعلى مستوى أعلى، كان من السهل دمج بقايا أنصار النشاشيبى السياسيين فى الإدارة وحتى عام ١٩٦٧ كان هنالك دائماً عدد من أعيان الضفة الغربية فى المناصب الكبيرة فى مجلس الوزراء. وقد عمل أحمد طوقان، خريج جامعة أكسفورد الذى ينتمى إلى واحدة من عائلات نابلس البارزة، وزيراً للتعليم، ووزيرا للخارجية، ووزيرا للدفاع ورئيساً للوزراء وفى أحدى مراحل الخمسينات رأس أربع وزارات فى وقت وأحد. وعلى صعيد محلى، تمكن الاردنيون من الاحتفاظ بشيوخهم

التقليديون وملاك عقاريين آخرين كعُمد فى المدن كما حرصوا فى القرى على الإبقاء على منصب المختـار الذى كـانوا قـد ورثوه من العـثـمـانيين ومن سلطات الانتـداب البريطانية.

وفى ظل الحكم الأردنى كـان فلسطينى الضـفـة الغربيـة أفضل شعـوب العالم العربيـة تعليـمـا. وكـانت نسبـة طلبتـهم إلى السكان أعلى منهـا فى أى بلد فى أوروبا وعشرة أضعاف ماهو عليه بين العرب فى إسرائيل، وفى القرى التى أقيمت بين الضفة الغربية وإسرائيل بخط هدنة عام ١٩٤٩، كانت نسبة الطلبة إلى كل آلف من السكان على الجانب الأردنى ستة أضعـاف ماهى عليه فى الجانب الإسرائيلى. ان معظم فلسطينى الضفة الغربية وخاصة أولئك الذين يدرسون الطب والهندسة، قد التحقوا بجامعات فى القاهرة، وذهب آخرون إلى سوريا، وغالباً إلى كلية الحقوق فى دمشق، كما توجه عدد قليل إلى لبنان والعراق وانطلقت حفنة إلى أوروبا. ولدى عودتهم إلى

الضـفـة الغـربيـة للعيش فى ضـواحى نابلس أو رام الله الجـديدة ضـاق هؤلاء الأطباء والمحامون المتعلمون ذرعا بحكومة الاعيان المحافظة والمخاتير غير المتعلمين فى الغالب ومع ادخال الانتخابات المحلية، تمكنوا من فرض بعض القيود على سلطات العائلات التقليدية. غير أنه لم يحدث الا مع انتخابات ١٩٧٦، التى جرت بموجب القادون الاردنى وتحت الإشراف الإسرائيلى أن الحقت الهزيمة بالقادة الموالين للأردن وقد نحى الشيخ الجعبرى، أشهرهم على الاطلاق، من منصب العمدة فى الخليل.

لقد كان جانب من التدهور الاقتصادى للضفة الغربية بعد عام ١٩٤٨ نتيجة حتمية للحرب وقيام إسرائيل: لقد أصبحت المنطقة فى حالة ركود تغفلها طرق التجارة الجديدة التى تمتد من البحر الأحمر إلى عمان عبر العقبة ومن البحر المتوسط إلى عمان عبر بيروت. ولم تكن بها مواد أولية ولم تكن تملك غير قليل من الصناعات التى تتجاوز مستوى الورش والحرف، كانت أرضاً للملكيات الزراعية الصغيرة التى شكلت أساس اقتصادها، وبالرغم من أن التنمية الاقتصادية كانت طفيفة، أزدهرت بعض المدن لأسباب أخرى. إذ ساعدت كلا من الخليل ورام الله تحويلات المهاجرين العاملين فى البلدان المنتجة للنفط. كما استفادت القدس دائماً من السياحة، وفى الستينات بدأت تشهد نوعًا من الازدهار فى مجال الفنادق، كما تدعم اقتصاد بيت لحم بفضل نمو السياحة وتطور الصناعات اليدوية المحلية من خشب الزيتون وعرق اللؤلؤ. واستفادت اريحا فعلاً من الحقائق الجغرافية الجديدة، إذ كانت تقع بالقرب من طريق القدس – عمان. وان كانت قد أقيمت بالفعل كمشتى بنيت فيه عائلات القدس البارزة مثل عائلتى قطان والعليمى بيوتًا لها فقد ساعد فى جوها تدفق اللاجئين الذين وفروا الايدى العاملة واكتشاف موسى العليم للمياه فى الصحراء المجاورة.

لكن اقتصاد الضفة الغربية ظل بوجه عام فى حالة كساد ولم يكن النمو

الطفيف فى الزراعة كافياً لملاحقة الزيادة فى سكان الريف. ومنذ عام ١٩٦٧، تحت الاحتلال الإسرائيلى، لم يطرأ على الاقتصاد أى تحسن ويبدو سيئاً للغاية إذا ما قورن بالتنمية فى الضفة الشرقية، وكان النشاط الصناعى والتجارى هو الضحية الرئيسية لأن أيا منهما لم يجد مجالاً كبيراً فى ظل النظام الإسرائيلى الجديد. وخير توضيح لمشكلات الضفة الغربية نجده فى مدينة نابلس، أكبر المدن فى الضفة الغربية بعد القدس، حيث يسكنها ٨٠,٠٠٠ نسمة. لقد تركزت حياتها الاقتصادية دائماً فى حفنة من الصناعات الصغيرة والمزارع المحيطة بها. فبالإضافة إلى صناعة الصابون الشهيرة بها ومصنع كبريت ممتاز، كانت نابلس تنتج علب الصفيح والزيوت النباتية والشيكولاته ومنذ عام ١٩٦٧، تعانى من تدهور خطير فقد أغرقت المنتجات الصناعية المدعومة فى إسرائيل السوق وأدت إلى إغلاق بعض المشاريع كمصنع الكبريت، بينما تقلصت بشدة الصادرات إلى الاردن. الأمر الذى اضطر معه رجال اعمال نابلس أن يدخلوا فى منافسة مع أردنى الضفة الشرقية على أسس فى غير صالحهم تماما، فهم لا يستطيعون استيراد المواد الأولية عن طريق إسرائيل ولا يمكن إلا للمصانع التى أقيمت قبل عام ١٩٦٧ أن تصدر سلعاً إلى الاردن. وإلى جانب ذلك، فإن التكاليف والضرائب أعلى بكثير فى ظل الاحتلال الإسرائيلى منها فى الاردن. وكانت نتائج ذلك بالنسبة إلى نابلس هى الكساد الاقتصادى والبطالة الواسعة النطاق.

ان عدم توفر فرص العمل هو أحدى المشكلات الكبرى التى تواجه الضفة الغربية، الأمر الذى ربما يدفع ثلث القوة العاملة إلى البحث عن عمل غير ماهر داخل إسرائيل ويدفع معظم المتعلمين إلى الخارج. ومن بين سكان الضفة الغربية البالغ عددهم حوالى ٧٠٠,٠٠٠ نسمة يهاجر كل سنة حوالى ٢٠,٠٠٠ معظمهم من المتعلمين الذين لا يجدون عملاً فى بلدهم ولمعظمم أسر الضفة الغربية أبناء أو أبناء أخوة يعملون فى الخارج، أما فى الخليج أو فى الغرب، وأى علامة على الازدهار فى

رام الله أو نابلس أو الخليل اليوم أنما ترجع عادة إلى تحويلات هؤلاء المهاجرين .

لقـد كان العقيد صلاح جلاد رئيس شرطة سابق فى يافا قاتل فى العلمين وعمل مع جلوب فى الفيلق العربى، وهو يعيش الأن بمفرده فى طولكرم، اذ يعمل ثلاث من أبنائه فى الولايات التحدة والثلاثة الآخرون يعملون فى الخليج. والهجرة مهرب ليس فقط للمتعلمين وأنما أيضاً للعمال المهرة، وفى مركز التدريب المهنى فى قلندية قرب رام الله، يمكن للصبيان الاختيار بيت تعلم اللحام والسمكرة والنجارة. وصناعة الأدوات الآلية والكهرباء وميكانيكا السيارات والبناء ، وبعد التخرج تنزح أغلبية المتدربين فى كل التخصصات باستثناء النجارة.

ويمكن تقدير حجم الهجرة من الضفة الغربية بالقاء نظرة على احصاءات سكان القدس المسيحين. فوفقاً لما يذكره فايق حداد، أسقف الكنيسة الانجيلكانية، كان هنالك ٢٦,٠٠ مسيحى فى القدس عام ١٩٤٨ وفى ضؤ معدل النمو الطبيعى للسكان كان لابد أن يصل هذا العدد اليوم إلى نحو ٥٠,٠٠٠ لكن فى سنة ١٩٦١ هبط الرقم إلى ١٣,٠٠٠فى قطاع المدينة الخاضع للسيطرة العربية. واليوم لا تضم القدس كلها غير ٩,٠٠٠ مسيحى، وفى حين أن إسرائيل قد رحلت بعض المسيحيين، قليلين هم الذين يمكنهم المجادلة فى أن السبب الرئيسى للنزوح الجماعى هو عدم وجود فرص للعمل إلى جانب الآثار المحيطة الناجمة عن الاحتلال الإسرائيلى.

لم يكن أنهيار الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧ غير مقصود، فهو النتيجة المباشرة لسياسة الحكومة الإسرائيلية التى اختارت استغلال المنطقة (وكذلك غزة) لتنمية اقتصادها الخاص، والعلاقة بين إسرائيل والأراضى المحتلة كالعلاقة بين قوة استعمارية ومستعمراتها. فقد وصف ميليسيا لانجير المحامية الإسرائيلية، هذه العلاقة وتطورها، وكيف أصبحت الضفة الغربية مع غزة «معينا لاينضب من الايدى العاملة الرخيصة

وسوقا للمنتجات الإسرائيلية، وأراضيها مكانا للاستيطان وآبارها مصدراً للذهب الأسود».

وتعتبر المياه والعمالة من أهم الفوائد الاقتصادية العديدة التى تجنيها إسرائيل من الضفة الغربية، فكلاهما حيوى لبقاء الاقتصاد الإسرائيلى. ودون «المعين الذى لا ينضب من الايدى العاملة الرخيصة»، فان قطاعات عديدة، كصناعة التشييد، سوف تنهار على الفور. وفى صيف عام ١٩٧٨ ،كان هنالك ٧٥,٠٠٠ عامل مسجل من الأراضى المحتلة يعملون فى إسرائيل من بينهم ٤٠,٠٠٠ عامل من الضفة الغربية والآخرين من غزة وشمالى سيناء. لكن هؤلاء هم العمال المسجلون فقط. ويقدر بعض الإسرائيليين بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ عربى من الأراضى المحتلة يسافرون يومياً إلى إسرائيل ويعودون منها.

وإذا كان حوالى نصف القوة العاملة للضفة الغربية يعمل خارجها فإنه لا غرابة أن تكون المنطقة فى تدهور اقتصادى. لقد كان لنقص الأيدى العاملة آثار ضارة على زراعة الزيتون وعلى تربية الخراف والماعز. أما المهاجرون اليهود فبمجرد وصولهم إلى إسرائيل يوجهون إلى المصانع أو المزارع أو مواقع البناء. ومعظم الاعمال الحقيرة فى تل أبيب - جمع القمامة وغسل الأطباق وما إلى ذلك - يقوم بها عرب، بينما تأخذ صناعة التشييد اكثر من نصف عمالتها من الارأضى المحتلة. ومواقع البناء الكبرى فى القدس -حيث يجرى بناء الآف الشقق على الأرض العربية لاستعمال اليهود وحدهم- يعمل فيها الفلسطنينون وحدهم تقريباً.

لكن استغلال الضفة الغربية أكثر من ذلك تعقيداً. فقد فرض الإسرائيليون رسوماً جمركية مرتفعة على كل الواردات إلى الأراضى المحتلة من أى بلد غير إسرائيل، ولا يفيد ذلك كثيراً المنتجين المحليين الذين يعجزون عن منافسة رجال الصناعة

الإسرائيليين، لكنه يضمن حصول تلك المناطق على تسعين بالمائة من وارداتها من إسرائيل. وقد فعلت الحكومة الإسرائيلية الكثير لزيادة تدفق السلع الإسرائيلية إلى الضفة الغربية.وعلى سبيل المثال يتمتع منتجو الالبان بدعم حكومى ضخم، ومن ثم بات باستطاعتهم التغلب على منافسيهم العرب، وكانت النتيجة النهائية أن أصبحت اقتصاديات الأراضى المحتلة معتمدة على إسرائيل، وهذه التدابير تعمل بنجاح لصالح إسرائيل. فالضفة الغربية، وغزة هما الآن أوسع ثانى سوق لصادرات إسرائيل (بعد الولايات المتحدة) لكن مساهمتها فى واردات إسرائيل لا تزيد عن نسبة اثنين بالمائة، وهى نسبة تافهة. وفى عام ١٩٧٧ ، كان فائض تجارة إسرائيل مع الضفة الغربية وحدها ١,٧ بليون جنيه إسرائيلى (حوالى ١٠٠ مليون جنيه استرلينى).

واحدى سمات الاحتلال التى يستاء منها بنوع الخصوص سكان الضفة الغربية هى إقامة مستوطنات يهودية على أرضهم. ويبرر الإسرائيليون هذه المستعمرات أما بالإشارة إلى أن يهودا والسامرة كان يسكنها اليهود ايام داوود وسليمان أوبالقول أنها ضرورية «لاعتبارات أمنية» لكنهم لا يوضحون أبداً كيف يمكن لمستوطنات مدينة فى أرض «العدو» أن تكون ذات أمنية سواء فى الحرب أو فى السلم. لكن «الاعتبارات الأمنية» لا تختلف كثيراً عن «الأغراض العامة» فأنت إذا سلبت أرض غيرك من الأفضل أن تقول أنك تفعل ذلك « لاعتبارات أمنية» بدلا من الاعتراف الصريح بأنك تسرقها لكن الرأى العام العالمى لم تخدعه هذه الأباطيل: اذ لا يؤيد أى بلد فى العالم سياسة إسرائيل الاسيطانية فضلاً عن أنها محظورة بموجب اتفاقية چنيف الرابعة لعام ١٩٤٩ ، (التى وقعت إسرائيل عليها) والتى تنص على أن المحتل «لا يجوز له نقل أجزاء من سكانه إلى الأرض التى يحتلها».

وكانت الحملة الاستيطانية الكبرى قد بدأت فى عام ١٩٨٦ عندما أقيمت

سلسلة من الناحلات « الستوطنات العسكرية» على طول وادى الأردن. وما أن أقيمت للمدنيين حتى سلمت لمستوطنين من الحزب الدينى القومى وغيره من الجماعات السياسية. كل هذه المستوطنات وما تلاها فى مختلف أرجاء غزة والضفة الغربية قد بنيت على أرض كانت ملكاً للحكومة الأردنية فى السابق أو على أرض تابعة للقرى العربية المجاورة. وتزعم الحكومة الإسرائيلية أن أراضى الدولة الأردنية وحدها هى التى تستخدم لكن من الصعب العثور على مستوطنة واحدة لم تستول على أرض تابعة لأحدى القرى والواقع ان الحكومة لا تلتزم بهذا الزعم فنظرة إلى صفحات الجيروزاليم بوست شبه الرسمية، يمكن ان تكشف موقف الحكومة الحقيقى ففى مايو ١٩٧٨ أعلنت: يتعين على إسرائيل الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضى المملوكة لعرب فى الضفة الغربية إذا ما أريد تنفيذ خطط الاستيطان اليهودى هناك وهذا الاستيلاء على أراضى القرى ليس ظاهرة نادرة: فهو يحدث باستمرار، وفى الايام العشرة الأولى من فبراير ١٩٧٩ ، نشرت صحيفة الجيروزاليم بوست تحقيقات مفصلة حول انتزاع الأراضى فى الايام الأول والخامس والتاسع، وقد تناول أحداها توسع مستوطنة كيريات عربة على حساب ملاك أراضى الخليل واسهب آخر فى ذكر احتاجاجات قروى النبى صالح بالقرب من رام الله ضد اقامة مستوطنة نيفى تزوف على أرضهم، وتضمن ثالث الملاحظة الغريبة التالية:

تلق حوالى ١٥٠ شخصاً من ملاك الاراضى من قريتى حزمة وجابا فى شمال – شرقى القدس،رسائل تأمرهم بالتقدم إلى مكاتب الحكم العسكرى حيث أنه صدرت أوامر شراء «لممتلكاتهم». وتقع الأراضى التى اختيرت للمصادرة على حدود منطقة ديفى يعقوب المجاورة، والسلطات حريصة على شرائها من الملاك العرب لتوسيع الحى اليهودى شمالاً وشرقاً. ويتضح من هذا المثل أن السلطات لا تشغل نفسها حتى بالقول أن ذلك يتم من أجل«غرض عام» أو «اعتبارات أمنية» فالمسألة ببساطة هى انتزاع

الأرض من العرب حتى يتمكن اليهود من البناء عليها.

وطبيعى أن مصادرة أراضى القرى تقوض الاقتصاد العربى المحلى وفى بعض الحالات تدمره تماماً. وعندما أقام الإسرائيليون مستوطنة ميجولا على الطرف الشمالى لوادى الأردن، فأنهم لا يستولوا على ٣٧٥ فداناً من قرية بردلة المجاورة فحسب، بل أنهم أقاموا أيضاً خزان مياههم فوق خزان بردلة مباشرة. مما حرم القرويين من أية مياه الا وقت امطار الربيع، وقد أدى تصرف مماثل إلى تخريب الحياة الاقتصادية لقرية الرافدية قرب بيت لحم. وكانت أراضى القرية تتألف من حوالى٨٠٠فدان يكسب منها قوتهم أكثر من ثلثى القوة العاملة وفى سنة ١٩٧٣ تمت مصادرة حوالى ٧٠٠ فدان وسلمت مستوطنة تيكوا، وفقد كل القرويين تقريباً مصدر عيشهم وهم اليوم جزء من الآلاف الذين يتعين عليهم السفر إلى إسرائيل يومياً بحثاً عن عمل وفى نهاية عام ١٩٧٨ ، كان هناك أكثر من ستين مستوطنة إسرائيلية فى الضفة الغربية.

وانتشرت خمسون مستوطنة أخرى فى غزة ومرتفعات الجولان السورية. وشمال سيناء، وقد أقيمت على ٧٨,٠٠٠ فدان من الأراضى العربية وضمت ٩٠,٠٠ مستوطن، كان معظمهم يعيش فى القدس، وفى مناطق الضفة الغربية الزراعية كان ١٤,٠٠٠ مستوطن يزرعون ٦٣,٠٠٠ فدان من الأراضى المصادرة فى معظمها من قرى وادى الأردن ومنطقة بيت لحم والخليل،وقد تم الإستيلاء على ٣٠٠.٠٠٠ فدان أخرى «لاعتبارات أمنية» ويزعم الإسرائيليون أن الأرض مخلخلة السكان وأنه لم يلحق أى ضرر بأحد. وحتى لو تركنا جانبا القرويين الذين فقدوا معظم ممتلكاتهم، فان هذا ادعاء مثير للسخرية.

وفى الضفة الغربية اليوم يوجد اكثر من ٣٠٠,٠٠٠ لاجئ، وفى الاردن يزيد عددهم على المليون معظمهم من سكان الضفة الغربية الذين هربوا فى عام ١٩٦٧. ومن المؤكد أنه اذا كانت الضفة الغربية مخلخلة السكان حقا، فان الأراضى الزائدة يجب ان تستخدم فى ايواء اولئك الذين استحوذت إسرائيل على ديارهم الاصيلة منذ

وقت طويل، وأنه ليبدو ضربا من الانانية التى لا تكاد تصدق أن يقوم الصهاينة، الذين استولوا على أكثر من ثلاثة أرباع أرض فلسطين، باستيطان الجزء الباقى الهزيل الذى مازال متروكًا للفلسطينين.

ولا يوجد بالضفة الغربية أى معادن، وإلى جانب الأرض لا تمتلك سوى مورد هو المياه. فالمنطقة توفر حوالى ٦٢٠ مليون متر مكعب سنويا، كان يمكن ان تكون وافرة لو أنها استخدمت كلها داخل الضفة الغربية. الا أن ٥٠٠ مثلاً من هذه تسحب وتستخدم فى إسرائيل عن طريق الآبار التى تحفر فى إسرائيل نفسها.

وحتى الـ ١٢٠ مليون الباقية لا تترك للفلسطنيين حيث أن المستوطنات تحتاج إلى ١٥ مليونا منها، وبعبارة أخرى؛ فان المستوطنات تحصل على كمية من ألف متر مكعب لكل مواطن فى حين أن السكان العرب لا يتحصل الفرد الا على ١٥٠ متر مكعب. وعلاوة على ذلك ففى حين أن الإسرائيليين حفروا سبع عشرة بئرا فى الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧ ويتمتعون باستخدام الآبار الأخرى التى هى تلك «للغائبين» فإنه لم يسمح لعربى واحد بحفر بئر واحدة للرى فى الأعوام الاثنى عشر الأخيرة وكما ذكر الدكتور بول كوبرينج، الذى قام بدراسة الموضوع خلال ثلاث سنوات ونصف فى القدس كممثل للجنة المركزية فإن «عدم تنمية موارد المياه مع مصادرة الأبار فى ممتلكات الغائبين، يعنى ان الآبار المستخدمة فى الزراعة الفلسطينية فى وادى الأردن هى اليوم أقل مما كان متوفرا عشية حرب ١٩٦٧.

وقد أدت هذه القيود إلى شلل فعلى للمزرعة الخيرية التى تديرها جميعة التنمية العربية التابعة لموسى العليمى قرب اريحا.

وموسى العليمى، وهو الآن فى الثمانينات من عمره، كان أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية فى القدس القديمة. وفى عام ١٩٤٨ فقد معظم ممتلكاته فى القدس

والجليل وذهب ليعيش بالقرب من أريحا حيث حصل من الحكومة الأردنية على امتياز استغلال ٥,٠٠٠ فدان من الأراضى الصحراوية.

وبعد ان اكتشف المياه انشأ مزرعة واسعة ومدرسة لأطفال اللاجئين. وحققت كلتاهما نجاحاً باهراً إلى أن حدث غزو ١٩٦٧ الإسرائيلى. عندما خرب ثلثا الأرض وتم تدمير ست وعشرين من سبع وعشرين بئرا. كما دمر الجيش الإسرائيلى بصورة منظمة شبكة الرى والمبانى وآلات حفر الآبار، وسرعان ما عادت معظم الأراضى صحراء جرداء.

وربما كان جانب من هذا الدمار حتميا فى زمن الحرب لكن الشئ الذى يبدو بشعاً وفظيعاً هو الأسلوب الذى تصرفت به السلطات الإسرائيلية منذ عام ١٩٦٧، لقد تم تطويق قطعة واسعة من الأراضى بالأسلاك الشائكة «لاعتبارات أمنية» وحولت إلى معسكر عسكرى وهو الآن مهجور وأصبح عبارة عن مجموعة من الاسلاك الشائكة المتآكلة والأنابيب المهشمة والبيوت المهجورة. فى الصحراء حيث كانت تزدهر فى وقت من الأوقات مزارع الموز وحقول الطماطم. وفى أريحا، حيث تكاد تكون الأمطار معدومة، لا تنبت أى نباتات دون رى، وإذا كان موسى العليمى يريد استمرار مزرعته عليه أن يصلح آباره، ولكن الإسرائيليون رفضوا السماح له بشراء المعدات الضرورية سواء لإصلاح الآبار المخربة أو لحفر أبار جديدة. ولذا قام ببعض الاصلاحات اليدوية لأربعة من الأبار الأقل تدميرا مما مكنه من انقاذ جزء من الأرض والمحافظة على استمرار عمل المزرعة والمدرسة. لكن ذلك نفسه كان أكثر من أن يوافق عليه الإسرائيليون وأخذوا يقولون له أنه لديه من المياه أكثر مما ينبغى مع أن ما لديه أقل من خمس ما كان عليه من قبل – وحذروه من أنهم سوف يضعوا قيداً على استهلاكه وسوف يأخذون الفائض «لمشروعاتهم» الخاصة (أى، مستوطناتهم المتزايدة بالقرب من أريحا).

لقـد رآى موسى العليـمى المأساة الفلسطينية من البداية إلى النهـاية من هزيمة العثمـانيين والاحتلال البريطانى إلى حربى ١٩٤٨ و١٩٦٧، اللتين جلبتا الاستطيان الصهيونى لفلسطين كلها، وهكذا يصبح مايراوده من شكوك مفـهوما، فهـو يهـزأ من تسلط فكرة حـقـوق الانسـان على الرئيس كـارتر لأنه يعلم أنهـا لن تراعى أبداً فى فلسطين، « ان الحرية والعدالة كلمتان لا معنى لهـما بالنسبة إلى شعبى وبلادى. فنحن لم نعرف أبداً أيا منهـما –وهو يشير إلى مزرعته – وهو حلم حقق نجاحاً باهراً ذات يوم – ويقول : «أننى لا أجد فى هذا المكان أية متعة ولا يقينى هنا الا شعورى بأداء واجبى وأعلم أن الصهـاينة يريدون التخلص منا منذ سنوات، يريدوننى أن أرحل، وقد قالوا فى ذلك. فهم يريدون أنشاء كيبوتز هنا. لكن من واجبى أن أواصل، وهو واجب نحو شعبى».

كذلك يتم الاستطيان الإسرائيلى فى قطاع غزة، وهو شريط ساحلى ضيق يمتد مسافة أربعين ميلا إلى الحدود المصرية قبل عام ١٩٦٧، وكانت غزة هى الجزء الوحيد الآخر من فلسطين الذى نجا من حرب ١٩٤٨، وقد تم الاستيلاء عليه بدوره فى عام ١٩٦٧، وغزة شديدة الفقر ومكتظة بالسكان، حيث يحشر فيها أكثر من ٣٥٠,٠٠٠ لاجئ إلى جانب السكان الأصليين، ومع ذلك تصر إسرائيل على انتزاع جـزء من أكثر أراضيها خصوبة وتوطين سكانها فيها. ان الصهاينة أنفسهم يجدون من الصعب تبرير ذلك. فغزة لم تكن قط جزء من مملكتى يهودا أو إسرائيل وصلتهـا الوحيـدة بالتاريخ اليهودى كانت فى عام ٩٢ قبل الميلاد، عندما استولى اليكسندر جانايوس على المدينة وذبح سكاانها، كما ان الإسرائيلين لا يمكنهـما استخدام «الاعتبارات الامنية» الموجودة دائماً بمثل هذه البساطة حيث أنهم وقعوا معاهدة صلح مع مصر.

ان غزة التى كانت ذات يوم مدينة أغريقية مزدهرة، هى اليوم مكان قبيح.

والبساتين الواقعة حول المدينة يسكنها عدد ضخم من اللاجئين، ومستويات المعيشة متدنية والمخيمات من أسوأ المخيمات فى أى مكان. ان اللاجئين، الذين يجيئون من يافا وبئر سبع يعيشون فى اكواخ حقيرة أقامتها وكالة غوث وتشغيل اللاجئين. ويعيش حوالى ٢٠٠,٠٠٠ انسان فى مخيمات جباليا، ورفح، وبتش خان يونس، وليست أمام معظمهم فرص عمل أو الأمل فى أى شئ آخر.

بعد عام ١٩٤٨، تولى المصريون إدارة غزة لكن احتلال إسرائيل لها فى عام ١٩٦٧ أدى إلى عزلها عن كل من مصر وبقية العالم العربى. الأمر الذى جعل غزة من الناحية الاقتصادية أكثر إعتمادا على إسرائيل منها على الضفة الغربية، وان كانت قد تعرضت للاستقلال.

فعلى سبيل المثال، فان صناعة الحمضيات فى غزة ممنوعة من التنافس مع المزارعين الإسرائيلين. وعادة ما يبيع مزارعو غزة ثمارهم إلى ايران وأوروبا الشرقية ودول الخليج، بينما يحتفظ الإسرائيليون لانفسهم بالاسواق الأكثر ربحا فى الغرب. ولما قررت ايران فى عام ١٩٧٩، الا تشترى صناديق برتقال ڤالينسيا التى يبلغ عددها ثلاثة ملايين ونصف المليون والتى تصدرها غزة عادة، قررت هيئة تسويق الحمضيات الإسرائيلية بيع الثمار عن طريق شبكتها الخاصة. وكان هذا النوع من الايثار وراءه الهدف الحقيقى الذى يتمثل، طبقًا لاعتراف نائب مدير الهيئة، فى « منع المنافسة غير المقيدة مع ما تنتجه إسرائيل»، وكما تعرف الهيئة جيداً فإن برتقال غزة ينضج قبل الشموطى بشهر ومن شأنه أن ينافسه فى أسواق التصدير الأوروبية الغربية. لكن مزارع الحمضيات فى غزة تواجه مشكلات أسوأ لأنه لا يسمح لسكان غزة بغرس أشجار الفاكهة مثلهم فى ذلك مثل مزارعى الضفة العربية الذين يحظر عليهم حفر الآبار فمن وجهة النظر الإسرائيلية فإن الوضع الراهن مزعج بما فيه الكفاية، ومن ثم قد

لايسمح لغرس المزيد من هذه الأشجار، وحتى لو أراد المزارع غرس شجرة مكان أخرى ميتة يتعين عليه الحصول على تصريح من الحاكم العسكرى.

وفرص العمل فى غزة أقل منها فى الضفة الغربية، ولذا يترك عشرات الآلاف من اللاجئين مخيماتهم كل يوم قبل الفجر للتجمع عند احدى أسواق العمل قرب الحدود. وقد تكون عند ملتقى طرق عسقلان أو تقاطع ايريز.

ومنذ الرابعة صباحًا يصل ارباب العمل الإسرائيليون – أصحاب البساتين ومقاولوا البناء – وتبدأ المساومات والأسواق مزدحمة بأناس من كل الأعمار وهناك مئات الأطفال الذين يبلغون الثانية عشر أو يزيد الذين يرغبون بشدة فى العمل. وكثيرون من أرباب العمل يفضلونهم على البالغين لأن أجورهم أرخص ومن الأسهل التعامل معهم وطبيع أن عمل الاطفال غير شرعى فى إسرائيل وينص قانون تشغيل الشباب الصادر عام ١٩٥٣، على «عدم جواز تشغيل طفل تحت السادسة عشر من العمر، لكن أحدا لا يلتفت إليه. فلا يوجد رجال شرطة يقومون بداوريات فى أسواق العمل، ولا يوجد مفتشون لوزارة العمل ومن الواضح أن الأطفال لا يتمتعون بالتأمينات ولا بالضمان الإجتماعى وربما أن أجورهم اليومية جد زهيدة، فانه من الأرخص إلى حد كبير استئجاره بدلا من البالغين – وهم أرخص حوالى عشرات مرات من عامل إسرائيلى. فلقاء يوم عمل فى جمع الطماطم يتحصل الطفل من غزة على حوالى ثلاثة دولارات لا غير.

وهناك ست وعشرون مستوطنة فى القطاع، وفى شريط رفح إلى الجنوب، أى أقل بكثير مما فى الضفة الغربية، لكن المنطقة على درجة بالغة من البؤس والزحام تجعل هذه المستوطنات اكثر استفزازًا، وخلال عام ١٩٨٠، كانت المستوطنات لا تزال تبنى

بأقصى درجة من الدعاية والاستفزاز. اذ يجرى اختيار الموقع ثم يقتحمه الجيش الإسرائيلى وتمد الأسلاك الشائكة ويرفع العلم عند أقرب مرتفع. وعلى امتداد الأشهر التالية تقام المبانى الخرسانية وتسوى الأرض بولدوزورات الجيش. وفى النهائية يبدأ الغرس وتقام بيوت الإستنبات الزجاجية. وهذه المستعمرات الأنيقة المنسقة التى يسكنها أناس ليس لهم آى حق فى الأرض، تتـزايد بصـورة تدفع إلى الإشـمـئـزاز مع منظر اللاجئين التعساء فى أكواخهم وخارجها، الذين تفصلهم عن المستوطنين أسوار عالية من الأسلاك الشائكة. وقد كتب چون رداواى وه (نائب سابق للمفوض العام لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين)، من تقززه.

عند رؤية أولئك الغزاة الشرهين وهم ينتزعون مساحات واسعة من أفضل الأراضى فى هذا الركن الصغير من فلسطن، حيث ظل مئات الآلاف من اللاجئين الذين هم من أصل (فلاحى) يعيشون لمدة ثلاثين عاما بدون أمل فى أن يحصلوا ولو على قطعة صغيرة من الأرض يزرعونها لأنفسهم لأن الأرض الزراعية الموجودة لم تكد تكفى السكان المحليين.

وفى غزة من بين كل الأماكن لا أفهم كيف يمكن لهؤلاء الصهاينة مغتصبى الأراضى أن يحيوا مع الظلم الذى يقترفونه كل يوم من حياتهم ضد أخوة لهم فى الانسانية بؤساء نهبوا أرضهم وأقاموا سياجا حولها لابقائهم خارجها .

وزار ادوارد هود چكين، الذى كان آنذاك محرراً للشئون الخارجية بصحيفة التايمز، الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٩م، وكتب عن «الكراهية الشديدة التى تواجه الإسرائيليين فى كل مكان من جانب كل قطاعات السكان». وليست هذه مجرد العداوة التى يظهرها أى شعب تجاه قوة محتلة، فهى نفور شديد من قوة محتلة، فهى

نفور شديد من قوة لا تحتل لا تحتل ارض الغير فحسب؛ بل يستوطنون تلك الأرض وتطرد أصحابها الشرعيين وسكانها. ويؤكد فهد القواسمة. عمدة الخليل، وهى مدينة تعـداد سكانهـا ٦٠,٠٠٠ نسـمـة تقع جنوبى بيت لحم على الفـارق: «ان الاحـتـلال الإسرائيلى مختلف عن أى احتلال آخر».

فعندما دخل البريطانيون مصر أستغلوا الشعب والبلد لكنهم لم يبنوا مستوطنات. ولم ينتزعوا الأرض من أيد المصريين. آما بالنسبة لحالتنا فيعتبر مصطلح الاحتلال مصطلحاً مخففاً: فالاستعمار الاستيطانى مصطلح أنسب حيث أن شعبا آخر يحل محل شعبنا. والقواسمة شأنه فى ذلك شأن رشاد الشوا عمدة غزة، أو كريم خلف عمدة رام الله، لا يخفى كراهيته للإسرائيليين، ولا يقدم أى تنازلات لهم ويفعل كل ما فى وسعه لمقاومة سياساتهم. وهو يعترف بأنه مؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية وبأنه يعمل كواحد من ممثليها فى الضفة الغربية. وإذا ما سئل عن أخلاقية المقاومة العنيفة فانه يقول: «لا يمكنك أن تطلب منا الا نفعل شيئاً ، نحن الآن تحت احتلال العدو منذ أثنى عشر عاما، وخلال الحرب العالمية الثانية كادت معظم البلاد الأوروبية محتلة وقد قاومت ونحن نفعل الشئ نفسه».

ان الاضطهـاد الذى لجـأت إليـه إسـرائيل من أجل القـضـاء على أى نوع من المقاومة، مدنية كانت أم عسكرية، قد أكد بالوثائق، بين جهات أخرى،الصليب الأحمر الدولى، ومنظمة العفو الدولية، وصحيفة الصنداى تايمز، والاتحاد القومى للمحامين الامريكيين، والرابطة الإسرائيلية للحقوق المدنية والانسانية، ولجنة الأمم المتحدة الخاصة لتقصى حقائق الممارسات الإسرائيلية وتأثيرها على الحقوق الانسانية لسكان الأراضى المحتلة، وتشـيـر النتـائج التى توصلت إليـهـا هذه الهـيـئـات إلى أن الفلسطنيين تحت الاحتلال لا يملكون ولو أبسط الحقوق الديمقراطية، وكما كتب مايكل آدامز، وهو

مراسل سابق لصحيفة الجارديان فى بيروت: الفلسطينيون فى الراضى المحتلة لم يتمتعوا منذ عام ١٩٦٧ بأى حقوق ولا بأى مؤسسات نيابية ولا توجد سلطة يمكنهم الشكوى إليها، ولا جهة تحميهم، وكل حركة وفعل لهم يخضع للسلطة التعسفية للحاكم العسكرى الإسرائيلى، ومن الممكن احتجازهم، وحبسهم، وترحيلهم دون تدخل من جانب أى محكمة. ويجوز تدمير بيوتهم وممتلكاتهم ومصادرة أراضيهم وحرق محاصيلهم الزراعية واقتلاع أشجارهم.

ان القمع الإسرائيلى موجه ضد أهداف عديدة فالأفراد الذين يعتبرون عقبات سياسية امام الاحتلال عرضة للقمع كمن يشتبه فى قيامهم بنشاطات عسكرية. لكنه لايتوقف عند الأفراد لان الحكومة الإسرائيلية تؤمن إيمانًا راسخًا بمبدا العقاب الجماعى، وكما يطبق فى الضفة الغربية وغزة ؛ فان هذا المبدأ يعنى أن سكان المنازل أو القرى أو حتى المدن يمكن معاقبتهم بسبب نشاطات رجل واحد لا سيطرة لهم عليه، ففى عام ١٩٧٩، أوقفت اعتمادات التنمية المخصصة لنابلس لان عمدة المدينة عقد مؤتمرا مع عمدة الخليل خلافا لاوامر الحاكم العسكرى.

وتتمثل احدى الصور الاكثر شيوعا للعقاب الجماعى فى حظر التجول، الذى يمكن فرضه دون سابق انذار على المدن أو القرى أو مخيمات اللاجئين. ففى مايو ١٩٧٩، تعرض مخيم جلزون شمالى رام الله لحظر التجول لمدة اثنتين وعشرين ساعة يوميا، وفى الساعتين الباقيتين كان يسمح للسكان بالخروج من اكواخهم للحصول على حصص الدقيق من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين. ولم يكن يسمح بدخول أى مواد غذائية أخرى إلى المخيم. وفى نفس وفى نفس الوقت تقريباً ثم فرض حظر التجول ودام ستة عشر يوما على مدينة حلحول الصغيرة قرب الخليل. ومرة أخرى كان قذف الحجارة هو الذريعة، مع ان اثنين من قاذفى الحجارة فى تلك المناسبة قتلوا بالرصاص

اما من جانب الجنود أو من جانب المدنيين الإسرائيليين من مستوطنة كيريات عربه، وقد ألزم حظر التجول هؤلاء الناس بيوتهم لمدة ثلاث وعشرين ساعة يوميا، ولما كانت حلحول مدينة زراعية أساسا فقد حال ذلك الحظر بين الفلاحين وبين العمل فى حقولهم. ووفقا لما يذكره محمد محلم، عمدة المدينة فان اربعين بالمائة من المحاصيل قد أصابها التلف.

ان صورة أشد تطرفا من صور العقاب الجماعى تتمثل فى هدم المنازل. وقد كشف رئيس الرابطة الإسرائيلية للحقوق المدنية والانسانية انه خلال السنوات الأربع الأولى للاحتلال، هدمت القوات الإسرائيلية ١٦,٣١٢ منزلا «لاعتبارات أمنية» ولا يزعم الإسرائيليون ان كل هذه المنازل كانت ملكا للأرهابيين.

وطالما يملكها أويستأجرها اقارب لمن يشتبه فى أنهم ارهابيون يمكن اعتبارها

هدفًا مشروعا لبولدوزرات الجيش، وعادة ما يتم الهدم قبل محاكمة المشتبه فيهم، وقد أعلنت جيروزاليم بوست فى ٣١ يناير ١٩٧٩ ، ان المنزل الموجود فى القدس الشرقية والذى يملكه عم شخص اسمه محمد أبو هلال، قد تم هدمه بالبولدوزر للاشتباه فى ان أبو هلال ارهابى وكان قد قبض عليه قبل ذلك بوقت قصير. ولم يكن هنالك ما يشير إلى أنه عاش قط فى المنزل أو أن عمه كان على علم بنشاطاته أو كان موافقً عليها وحقيقة أنهما اقارب، جعل منزل العم هدفا مناسباً للإنتقام. وبعد ذلك بيومين ذكرت نفس الصحيفة نبأ حول حادث مماثل: «قامت قوات الأمن بإجلاء مكان منزلين فى الضفة الشرقية فى وقت مبكر من صباح أمس وأغلقت أبواب ونوافذ المبنيين كتل من نفايات المعادن والأسمنت، ولما اخلى هذان المنزلان من سكانهما؟ لان اثنين من الارهابين المزعومين «تردد أنهما اقاما فى وقت أو أخر فى المنزلين. وليس ثمة حاجة إلى توضيح المنطق الكامن وراء صور العقاب هذه، فالسياسة العنيفة تهدف ببساطة وبشكل واضح، إلى افهام السكان الفلسطينيين أنهم سوف يعادون اكثر من الإسرائيلين إذا ما استمرت المقاومة عنيفة؛ أما أهداف سياسات إسرائيل الاخرى فهى واضحة بالمثل؛ فترحيل المئات من قادة الضفة الغربية والتدخل فى النظام التعليمى للمنطقة وسائل تهدف (خطأ) إلى الحيلولة دون ظهور قيادة قومية واضحة ولتحقيق هذا الهدف تتعرض المدارس ومراكز التدريب والجامعات لملاحقة منتظمة من جانب الجيش ويغلق كثير منها بين الحين والآخر. وفى مارس ١٩٧٩ ، أغلقت كل المؤسسات التعليمية فى الضفة الغربية، واستمر اغلاق بعضها لمدة شهرين.

ان جامعة بيرزيت قرب رام الله هى أفضل جامعة فى الاقليم وأقدم مؤسسة عربية للتعليم العالى على ضفتى نهر الأردن. ومع ذلك رغم سياستها التعليمية العالية، فانها لا تقصرنشاططاتها على العمل الاكاديمى. فهى تلعب دوراً اساسياً فى حياة الضفة

الغربية، اذ تعتبر نفسها مركزا للتطلعات الفلسطينية، وتضطلع بجد بعملها الاجتماعى. فلديها برنامج لمحو الامية يتألف من اثنى عشر مركزا فى الضفة الغربية وغزة كما تقوم بانشطة مماثلة كثيرة وبرامج للمدرسين ومشروعات بناء المدارس فى مخيمات اللاجئين.

وطبيعى ان ترى السلطات الإسرائيلية فى جامعة بيرزيت مؤسسة مزعجة إلى حد بالغ وتعتبرها مركزا للتخريب والارهاب بالرغم من ان عضواً واحداً من أعضاء أية كلية لم يدن بتهمة «الاخلال بالامن» ومنذ عام ١٩٧٣، والجامعة تتعرض للتدخل المستمر وأوقفت برامج اعداد المدرسين بها بصفة دائمة، واستبعد مديرها، وحرم محاضروها من الحصول على تصاريح عمل ورفض التنظيم التصريح لها بمبانى جديدة، وفى مايو عام ١٩٧٩، اقتحمت وحدات الجيش الحرم الجامعى، وضربت اعداداً ضخمة من الطلبة، وصادرت عدة مئات من بطاقات الشخصية. ثم أغلقت الجامعة لمدة شهرين.

وكان مدير بيرزيت، الدكتور حنا نصير، واحدا من ١,١٥١ فلسطينيا ابعدوا من الضفة الغربية وغزة وعام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٨، وبالمقارنة باعمال الطرد الجماعية خلال حربى ١٩٤٨ و١٩٦٧، فان ذلك لايعد عددا كبيرا، الا أنه يشمل اعدادا ضخمة من أبرز القادة العرب فى الأراضى المحتلة، من مدرسين وأطباء ومحامين وصحفيين وطلبة وغيرهم، ومن بين الاربعة وخمسين شخصاً الذين تم ترحيلهم من القدس العمدة، ورئيس المجلس الاسلامى، ووزير خارجية سابق للاردن، ورئيس اتحاد نقابات العمال، ومدير مستشفى المقاصد الاسلامية الخيرى، كما أن السياسيين من بين أنسب المرشحين للاستبعاد، فقد أبعد عمدتا رام الله والبيرا، كما رحل أشقاء العمدتين الحاليين للخيل وحلحول. وقبل يومين من انتاء تسجيل اسماء المرشحين فى انتخابات البلدية فى ابريل عام ١٩٦٧، طرد مرشحون لمنصب العمدة فى كل من مجلس الخليل والبيرا، إلى لبنان بينما كان شكاويهم المرفوعة امام المحاكم ضد

ترحـيلهم لاتزال منظورة.

هكذا تعمل إسرائيل على التخلص من القيادة الفلسطينية فى الاراضى المحتلة، وتستند هذه السياسة على نفس المنطق الذى يؤيد العقاب الجماعى، فلو أنهم انزلوا العقاب بعدد كبير من الناس حتى وان كانوا أبرياء تماماً ،ولم توجه إليهم قط اية تهمة؛ يحجم الآخرين من توجيه اى نقد للاحتلال.

وكان الهدف هو شل القيادة واخماد أى مشاعر قومية، تلك السياسة التى منيت بفشل ذريع لأن النزعة القومية فى الضفة الغربية هى اليوم أقوى بما لا يقاس مما كانت عليه منذ عشر سنوات، والادهى من ذلك أن بعض المستبعدين هم اليوم شخصيات قومية اكثر اهمية مما كانوا فى وطنهم فالطبيب والمحامى اللذان طردوا معا فى عام ١٩٧٣ ، هما الآن مسئولان كبيران فى منظمة التحرير الفلسطينية.

ولا توضح السلطات الإسرائيلية اطلاقا السبب فى ترحيل الاشخاص فلو كانوا قد ارتكبوا جريمة يفترض توجيهه الاتهام لهم فى المحكمة، وعادة ما ينفذ الترحيل بسرعة لا تمكن من الاحتجاج، ففى ديسمبر عام ١٩٦٧م ،ذهب القاضى انطون عطا الله — وهو مسيحى فى السبعين عن عمره كانت عائلته تعيش فى القدس فى فترة ما قبل الفتح الاسلامى — ذهب إلى عمان بتصريح إسرائيلى رسمى. وفى يوم الاهداء، قبل الموعد المحدد لعودته بوقت قصير أعلنت اذاعة إسرائيل أنه لن يسمح له بالعودة. ولم يقدم أى سبب لذلك، ولم يسمح للرجل المسن برؤية بيته مرة أخرى إلى أن أعلنت السطات الإسرائيلية بعد ذلك بعشر سنوات، فى عيد ميلاده الثمانين، انه «لاعتبارات الشفقة» سوف يسمح له الان بزيارة منزله.

أما روحى الخطيب، عمدة القدس، فلم يسمح له قط بالعودة، وباعتباره عمدة

للمدينة منذ عام ١٩٥٧، قام الإسرائيلين بفصله من مجلسه عندما ضمت القدس فى عام ١٩٦٧. وبعد تنحيته التى رفض الاقرار بها. بقى فى المدينة وواصل عمله كمدير لشركة الفنادق العربية وشركة كهرباء القدس. وفى مارس من العام التالى، ايقظه رجال الشرطة الإسرائيليون فى الثالة صباحا أبلغوه أنه مطلوب للاستجواب. لكن بدلا من أن يأخذوه إلى الحاكم العسكرى فى القدس ذهبوا به مباشرة إلى أريحا حيث سلم أمر ترحيل بزعم ان وجوده فى القدس يشكل خطرا على أمن إسرائيل، ثم رافقوه إلى الحدود وسلم إلى السلطات الأردنية ولم يسمح له بأن يأخذ أ ى شئ معه ولم تبلغ اسرته بالطرد، وقد علمت به فيما بعد عن طريق الاذاعة.

وقررت زوجة الخطيب وطفلاه البقاء أملا فى أن يسمح له بالعودة، وبعد عام ونصف العام استدعى رجال الشرطة زوجة الخطيب لاستجوابها واحتجزت لعدة ساعات ثم حكم عليها بالسجن لمدة ثلاثة أشهر دون ابداء أى سبب، وبعد احتجاجات من جانب عدد من الناس، أفرج عنها بعد خمسة عشر يوما، وربما لأنها كانت مريضة بصورة خطيرة ويشتبه فى اصابتها بالسرطان. ثم سمح لها بزيارة زوجها واجراء عملية جراحية فى بيروت. ومع أن التصريح الذى قدم لها مدد مرة، فانها كانت لاتزال تحت العلاج عندما انقضى أجله للمرة الثانية، ورفض الإسرائيليون تجديده مرة أخرى ولما حاولت العودة إلى القدس بعد تماثلها للشفاء اعادوها من الحدود.

وخلال العامين الاولين للاحتلال، كان المستبعدون يأخذون بفظاظة إلى أحد الجسور عبر نهر الأردن ويطلب إليهم الانتقال إلى الضفة الأخرى، لكن الحكومة الأردنية ، بعد ضغط من لجنة الفلسطنيين المطرودين فى عمان، رفضت السماح بدخول أى مستبعدين آخرين، وعندئذ فتح الإسرائيليون طريقين آخرين للطرد أحدهما فى المنطقة الجبيلة قرب الحدود اللبنانية والآخرى فى صحراء وادى عربه جنوبى البحر

الميت. والدكتور وليد قمحاوى، وهو طبيب أمراض نساء جذاب ورقيق من نابلس، كان له الشرف فى أن يكون الشخص الوحيد الذى طرد على طول كل من الطريقين. ففى سبتمبر عام ١٩٧٠، وجد عشرون جنديا خارج بيته وأخذوه إلى مكتب الحاكم العسكرى حيث أبغ بأنه سوف يسبتعد، لقد طلب السماح له بالعودة إلى بيته وتوديع أسرته وأخذ بعض أمتعته لكنهم رفضوا طلبه، وبعد ذلك عصبوا عيينه وقيدوا يديه ودفعوا به إلى الحدود البنانية مع خمسة أشخاص آخرين. وعندما وصلوا أمروا بالسير شمالا وقيل لهم، أنهم اذا نظروا إلى الوراء سوف يقتلون رميا بالرصاص، ولسبب ما لم يعرفه قط، سمح للدكتور القمحاوى بالعودة بعد شهرين، ولكنه فى ديسمبر عام ١٩٧٣ فى ذكرى اعلان حقوق الانسان، القى مرة أخرى فى عربة وأخذ إلى وادى عربه، واشار ضابط إلى موقع عسكرى أردنى على بعد عشرة اميال عبر الصحراء وطلب منه هو ورفاقه ان يبدأوا فى السير.

ان قمحاوى، الذى لم يكن له أى نشاط سياسى (وان كان قد اصبح كذلك خلال نفيه) لم يعط فى أى من المناسبتين أى مبرر لطرده.

وهكذا يتخذ القمع الإسرائيلى لفلسطينى الضفة الغربية وغزة صورا عديدة لاعتبارات امنية أو غيرها يمكن استبعاد المواطن العربى أو القبض عليه أو احتجازه دون محاكمة، ويمكن مصادرة أرضه وهدم بيته، ولا تنكر الحكومة الإسرائيلية حدوث هذه الأمور الا أن هناك طريقة للقمع لا تعترف بوجودها وهى ممارسة التعذيب، طبيعى أن من الصعب أثبات حوادث التعذيب حيث أنها نادراً ما يوجد شهود لها يحتمل قبول شهادتهم. ومع ذلك فان الصنداى تايمز، ومنظمة العفو الدولية، والنقابة الدولية للمحامين الأمريكين، ولجنة الصليب الأحمر الدولية، قدمت كلها أدلة تشير إلى استخدام التعذيب بصورة متكررة ضد عرب الأراضى المحتللة. وكما ذكر فريق

الاستقصاء التابع للصنداى تاميز فى چنيف ١٩٧٧، فان : «المحققين الإسرائيليين يسيئون فى العادة معاملة السجناء العرب وغالبا ما يقومون بتعذيبهم .. فاالسجناء غالبا ما تعصب أعينهم، أو يعلقون من معاصم أيديهم لفترات طويلة. ويتعرض الكثيرين منهم للاعتداء الجنسى عليهم، ويتعرض البعض الآخر للصدمات الكهربائية .

ولا المجال هنا لمناقشة كل ما يوجه من اتهامات أو التعليق على الافكار الإسرائيلية الا أنه يجدر التأمل فى حالة خاصة اضطر فيها الإسرائيليون إلى الاعتراف فى نهاية المطاف بأن تعذيباً قد جرى.

ان كل من شاهد إسماعيل عجوه فى لندن فى صيف ١٩٧٩ لابد وان اعتقد بأنه تعرض للتعذيب اذ كانت عيناه نصف مغلقتين ودامعتين ولعلهما اصيبتا بصفة دائمة. كان يسير باضطراب سريع، نتيجة لضمور الفخذ وربلة الساق اليسرى (وفقا لتقرير طبى من مستشفى القدس، كانت ربلة ساقة اليسرى أرفع بست سنتيمترات من ربلة ساقة اليمنى). كما كان يشكو من التهاب غشاء المعدة المخاطى، ومن اصابة القولون واصابات فى عموده الفقرى.

كان اسماعيل عجوه هو القائم بأعمال رئيس تحرير صحيفة الفجر فى القدس الشرقية. وفى الواحدة من منتصف ليلة ١٦ أكتوبر ١٩٧٨، أخذ من بيته والقى به فى السجن، بتهمه وجود «صلات» له بمنظمة التحرير الفلسطينية. وطوال الأيام الثمانية عشر الأولى لسجنه كان يستجوب كل يوم قبل أخذه إلى الفناء لضربه، وذات مرة ربط بأحد الأنابيب لمدة اثنين وسبعين ساعة وعلى رأسه كيس ويضرب بصفة منتظمة. وكان معذبه الرئيسى رجل اسمه عوزى كان مسئولا عن جلسات التعذيب، كما استخدم عوزى الأساليب السيكولوچية لتحطيم اسماعيل. فكان يخبره فى بعض

الاحيان ان الحكومة أمرت بإعدامه، وكثيراً ما اخترع حكايات عن كيف أن زوجة اسماعيل، التى كانت حبلى ، تضاجع رجالا آخرين، وتظاهر رجال الشرطة الآخرين بأنهم أكثر تهذيباً، وكانوا يقولون لإسماعيل «اعترف بأنك ارهابى ولن نعيدك إلى عوزى» ، وعندما لم يفلح ذلك، حاولوا اقناعه بالهجرة، والا اضطررنا إلى تحديد موعد جديد لك مع عوزى» .

ولم ير اسماعيل زوجته أو محاميه لمدة ثلاثين يوما بعد اسره وعندما سمح له بذلك فيما بعد فان ذلك لم يستغرق غير خمس دقائق . ولم يسمح له برؤية مندوب الصليب الأحمر لمدة ثلاثة أشهر رغم ادعاء إسرائيل بأن السجناء الفلسطنيين لهم حق فى الاتصال بالصليب الاحمر فى غضون ثمانية عشر يوما من القاء القبض عليهم، خلال الأشهر الأربعة لسجنه لم توجه تهمة إلى إسماعيل كما لم يحاكم، ولم يسمح له برؤية طبيب وكانت وجبته تتألف من الخبز والماء والبطاطس. وأمضى شتاء كاملا فى القدس فى الحبس الإنفرادى بدون بطاطين بينما كانت قطرات الماء تتساقط من السقف.

وبعد الافراج عنه كشف اسماعيل عن تفاصيل سجنه. لقد تعرض لاختبارين لكشف الكذب (احدهما فى قسم شرطة «اثينا»)، وفقاً لما ذكرته صحيفة اسرئيلية، «ان المحقق قد ضرب عجوه على رأسه وقيد يديه إلى أحدى الانابيب وضربه بقبضتيه، كما أثبتت الاخبار أن الصحفى قد عرض عليه الافراج عنه فى مقابل وعد منه بمغادرة البلاد»وقد اعترفت السلطات الاسرئيلية فى نهاية المطاف بذنبها بتأنيب عوزى رسمياً ونقله إلى منصب آخر.

وخلال سجن اسماعيل، عاشت زوجته الحبلى وطفلاه الصغيران فى عوز تام. لقد لقد حصلوا على بعض المساعدة من شقيق زوجته، الذى يؤجر جمله للسياح،

وكذلك من والده، الذى كان يحضر لهم الخضروات من وقت لآخر من قريته. وعندما افرج عن اسماعيل، كانت اسرته أشد فقر اذ لم يكن بوسعه ان يعمل وكان بحاجة إلى العلاج فى المستشفى وطبيعى أنه لم يحصل على أى مساعدة من الحكومة. ورغم اعتراف الإسرائيلين، فانهم لم يقدموا اعتذاراً، ولم يدفعوا تعويضاً، ولم يدفعوا تكاليف علاجه. لكن اسماعيل عربى، بل عربى من القدس الشرقية التى ضمتها إسرائيل، ومن الواضح ان أى شئ يمكن عمله لصده عن البقاء هناك يلقى موافقة الحكومة الإسرائيلية.

وبعد ارسال هذا الكتاب إلى المطبعة قام الإسرائيليون بترحيل فهد القواسمة عمدة الخليل، ومحمد ملحم، عمدة حلحول.

الجزء الثالث

الحرب والسياسة

تنظيم المقاومة

خلال الخمسين عاما التى اعقبت انهيار الامبراطورية العثمانية كانت القومية العربية هى القوة الايديولوجية المسيطرة فى الشرق الاوسط٠٠ كان مفهوم القومية العربية يعبر فى الغالب الأعم عن شعور قومى بأن العرب جميعا، على إختلاف دياناتهم، تربطهم ثقافة مشتركة، و يضمهم وطن واحد، وكانت كلمة «وحدة» فى هذه الفترة أشد الشعارات اثارة لحماس الجماهير وكانت الأحزاب السياسية -بعضها شرعى والبعض الآخر سرى- فى سائر أرجاء العالم العربى، تعمل فى سبيل تحقيق هذا الهدف الأمثل، وكانت الخمسينات من القرن العشرين تمثل عقد القوميين العرب، حيث كانت الفترة الوحيدة التى لاح فيها امكانية تحقيق هذا الهدف.

فى تلك الفترة أطيح بالنظم الملكية المحافظة فى كل من مصر والعراق، وتولى حزب البعث الاشتراكى العربى السلطة فى سوريا، وتمثلت الأمانى القومية العربية فى ربوع الشرق الأوسط فيما أبداه جمال عبد الناصر من تحد فى السويس.

إعتنق الفلسطينيون القومية العربية إيمانا منهم بتمكنهم من استعادة وطنهم، فلم تكن فلسطين مجرد مشكلة فلسطينية: حيث أنها جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، كانوا يتوقعون من العرب فى كل مكان المساهمة فى تحريرها حتى أنه فى عام ١٩٤٨، قاتلت الجمهوريات والملكيات الموالية للعرب وان لم يكن بصورة فعالة، ضد الصهاينة. ومع الاطاحة بالملكيات واقامة حكومات وطنية فى القاهرة وبغداد ودمشق، لاح كما لو أن القضية الفلسطينية قد وجدت سبيلها إلى الحل فى نهاية الأمر. وهكذا انضم الفلسطينيون إلى الاحزاب القومية فى البلاد التى نفيوا اليها- البعث والجماعات الناصرية، والشيوعيون وحركة القومية العربية- وفى انتظار الحرب التى من شأنها أن تحرر بلادهم.

بلغت الآمال ذروتها فى عام ١٩٥٨ عندما لاح أن الاتحاد بين سوريا ومصر الذى تجسم فى قيام الجمهورية العربية المتحدة يعيش بالاقتراب من الوحدة العربية، وعندما انهار الاتحاد بعد ثلاثة أعوام كان مبدأ الوحدة الشاملة قد أخذ فى الانحسار وعندئذ أنزاح الوهم عن الكثيرين من الفلسطينيين لعدم قيام الدول العربية بأى شيىء لمساعدتهم وشرع بعضهم فى اعادة النظر فى آرائهم ازاء طبيعة المسألة الفلسطينية وبدلا من اعتبارها مشكلة عربية باتوا يرونها مشكلة بينهم وبين الاسرائيليون فلم يتسن لهم تحقيق أى شيىء مع وجود الدول العربية وكان شعورهم بالإحباط بالغا. ومن ثم قرروا الاعتماد على أنفسهم وتكوين المقاومة الشعبية والقتال بأنفسهم. واتخذوا من الجزائر المثل وكانت حرب فيتنام قد بدأت لتوها.

شعرت الدول العربية، التى قررت فى عام ١٩٦٤ انشاء منظمة التحرير الفلسطينية، بما استبد بالفلسطينيين من استياء وغضب. والواقع أن منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن آنذاك تهدف الى القيام بما من شأنه تحرير فلسطين بل كان دورها يتمثل فى الدعاية للتضامن وما الى ذلك وليس القيام بأى قتال فعلى... كان هدفها احتواء القومية الفلسطينية وليس التعبير عنها، وأن تكون بمثابة متنفس للآحباط الفلسطينى وليست منظمة عسكرية فعالة قد تجبر الدول العربية الى خوض حرب مع اسرائيل. فضلا عن أنها ستكون جهازا رسميا تابعا لجامعة الدول العربية ومن ثم يسهل اشراف الدول الاعضاء عليها.

ورأى الفلسطينيين الاكثر تشددا منظمة التحرير الفلسطينية فى ذلك الحين على حقيقتها فلم يعيروها اهتماما يذكر.. وشرعوا فى تشكيل جماعات فدائية واعداد أنفسهم لخوض حرب العصابات. فظهرت حركة التحرير الوطنى الفلسطينى المعروفة باسم فتح فى أوائل الستينيات وقامت بأولى عملياتها من عام ١٩٦٥ . وبالرغم مما

تلقته من أسلحة وتدريب من الجزائر كانت فى بادىء الأمر موضع شك بالغ من جانب الدول العربية الأخرى التى أدركت أن الحركة ربما كانت اكثر فعالية واكثر اثارة للمتاعب من منظمة التحرير الفلسطينية. والقى القبض على أعضاء فتح فى مصر ولبنان وسوريا وأمضى ياسر عرفات، زعيم الجماعة فى المستقبل، سبعة أسابيع فى أحد سجون دمشق.

لم تشكل حركات المقاومة أهمية تذكر قبل عام ١٩٦٧ فلم يكن لدى فتح سوى مائتين أو ثلاثمائة فدائى. بيد أن حرب يونيو، التى انتهت بهزيمة الجيوش المصرية والسورية والأردنية، برهنت من جديد على أن الدول العربية- عاجزة عن تحرير فلسطين. وتلت حالة انهيار الروح المعنوية التى اعقبت الحرب روح جديدة من التشدد والشعور بأنه يتعين على الفلسطينيين القتال من أجل وطنهم دون مساعدة أو تدخل الدول العربية. ومن ثم صعد الفدائيون نشاطهم العسكرى وجلبت عليهم غاراتهم فى قلب اسرائيل احترام وتأييد اللاجئيين بصورة متزايدة. وجاءت معركة الكرامة فى مارس من عام ١٩٦٨ لتعزيز موقف الفدائيين، وذلك عندما كبدت وحدات من الفدائيين يساندها الجيش الأردنى، القوات الإسرائيلية المغيرة خسائر فادحة فى الأرواح، فما كان من الدول العربية الا أن استنتجت على مضض، أن (فتح) تعكس أمانى الفلسطينيين، على نحو أدق من منظمة التحرير الفلسطينية، وفى صيف عام ١٩٦٨ ، اعترف الرئيس عبد الناصر رسميا بغرفات عندما ضمه الى وفد مصرى توجه الى موسكو. كذلك اعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بما أحرزته حركات المقاومة من نجاح بمقاعد لهم فى مجلسها الوطنى. وفى خلال عام ١٩٦٨ ، بسطت فتح نفوذها شيئا فشيئا على المنظمة لتسيطر عليها فى فبراير من عام ١٩٦٩عندما تم انتخاب ياسر عرفات رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لقد كانت رسالة فتح بسيطة و هى: أن فلسطين لن يحررها غير فلسطينيين يخوضون حربا شعبية. وكان ما عدا ذلك أمرا ثانويا وأنه لا مجال فى أنشطة فتح للمناقشات الايديولوجية والثورة الاجتماعية فهذه كلها أمور سوف تطرح للمناقشة فى وقت لاحق للتحرير. أما قبل ذلك فلا اقرار بأى شىء سوى مسألة استعادة فلسطين. ومن ثم جذبت فتح نحوها جميع الفلسطينيين، بغض النظر عن طبقتهم أومهنتهم، ممن يؤيدون حركة المقاومة. هذه الواقعية و البعد عن الجمود العقائدى ورفض اضاعة الوقت فى منازعات ايديولوجية لا طائل من ورائها قد أسهمت فى هيمنة فتح داخل منظمة التحرير الفسطينية.

و يمكن للمرء أن يعد بداية فتح لسبعة فلسطينيين كانوا يعملون فى منطقة الخليج خلال الخمسينات، و جميعهم مسلمون سيئون و لا يزالون حتى الآن -باستثناء الاثنين الذين لقيا مصرعهم على أيدى فرقة اغتيال إسرائيلية فى بيروت- يشكلون عماد قيادة فتح. وينتمى ياسر عرفات لأسرة من الطبقة المتوسطة فى القدس، وفى حرب ١٩٤٨ عمل، كشاب مع عبد القادر الحسينى، أحد القادة العسكريين البارزين وابن عم المفتى، وما أن انتهت الحرب حتى انطلق ياسر عرفات الى غزه ومنها الى القاهرة حيث أصبح رئيسا لاتحاد الطلبة الفلسطينيين. وفى مصر وضع الخطط التمهيدية لتنظيم حركة التحرير لاصلاح خلف وخليل الوزير ومحمد النجار. ثم سافر بعد ذلك الى الكويت، حيث عمل مهندسا وتعرف على ثلاثة أصدقاء، أصبحوا فيما بعد من قادة فتح وهم: فاروق قدومى وكمال عدوان وخالد الحسن. خلال تلك الفترة عندما كان السبعة يعملون فى دول النفط الغنية، السعودية وقطر والكويت، تسنى لهم الحصول على الدعم الذى اصبح فيما بعد عاملا هاما فى نجاح فتح.

وعن طريق تبنيها لسياسة النضال الوطنى الواضحة وبتجنبها الصراعات العقائدية

استطاعت فتح أن تظفر بتأييد كل من الأنظمة المحافظة والثورية فى العالم العربى على حد سواء. الأمر الذى غيرها بشدة على الجماعات اليسارية الصغرى ومكنها من أن تهيمن على المقاومة لكنه كان يعنى فى الوقت نفسه أن بقاء فتح يعتمد على براعة سياستها مع الانظمة العربية فقد استنفذت المشاكل بين العرب معظم وقت عرفات وأثارت معظم ما واجهته فتح من متاعب، فبالرغم من أن الصورة العامة. التى عرف بها عرفات هى صورة مناضل من أجل الحرية غير حليق طلبعه الخشونة، فانه فى واقع الأمر دبلوماسى وسياسى عملى اكثر منه رجلا عسكريا أومتعصبا ثوريا. وقد سنحت له الفرصة للوساطة فى عدد من الخلافات التى نشبت بين الزعماء العرب وكذلك فى منازعات بين الحركات المختلفة داخل المقاومة. ولعل أُعظم انجازاته الدبلوماسية هو أن يظفر بتأييد الاتحاد السوفيتى والصين فى آن واحد.

وعلى الرغم مما اتسمت به قيادة فتح من تجانس نسبيا، كان طبيعيا أن تظهر طوائف مختلفة مما يحتم على عرفات أن يبذل جهودا مضنية من أجل الحفاظ على التوازن فيما بينهم. كانت هناك جماعة يسارية قوية يتزعمها صلاح خلف وغالبا ما يؤيد فاروق قدومى موقفه. وهناك جماعة اكثر اعتدالا يتزعمها خالد الحسن الذى تربطه علاقات وثيقه بالحكومة السعودية والذى لايزال يؤثر أقامة روابط أوثق مع الدول العربية. ومن هاتين الجماعتين انبثقت فروع أصغر وباتت مهمة عرفات هى التوفيق فيما بينها فهو مناور سياسى بارع وما حققه فى توحيد صفوف المنظمة على امتداد خمسة عشر عاما يعد انجازا رائعا لكنه فى سبيل هذه الغاية، كثيرا ما اضطر الى الانسياق وراء الاتجاهات السياسية لا توجيهها، مما حدا بمنافسيه الى اتهامه بالتناقض وأنه بلا مبدأ.

وعلى النقيض من حلفائها الجزائريين قررت فتح عدم تصفية المنظمات الفدائية

الاصغر بل السعى للتوحيد بينها تحت القيادة العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية. ويشبه خالد الحسن علاقة فتح بهذه الجماعات كعلاقة «الام وأبنائها الأشقياء» غير أنها غالبا ما تكون أسوأ من ذلك بكثير حتى ان بعض قادة فتح يعبرون بوضوح عن أسفهم لعدم اتخاد موقف اكثر صلابة مع المتطرفين منذ البداية. فكثيرا ما ورطت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفروعها منظمة التحرير الفلسطينية وعرقلت جهودها الدبلوماسية.

وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قد تشكلت فى اعقاب حرب ١٩٦٧ بفترة وجيزة بعد توحيد ثلاث جماعات فدائية صغيرة. وسرعان ما بدأت فى الانقسام بعد ذلك. وفى غضون عام١٩٦٨ عندما كان زعيمها چورچ حبش فى أحد السجون السورية أنفصلت جماعتان عن الجبهة وشكلتا منظمتين مستقلتين هما: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة، والمنظمة العربية الفلسطينية. وتفاقمت عملية الانقسام بعد بضعة أشهر عندما أنشقت مجموعة كبيرة من شباب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين النشطين وشكلوا فيما بعد المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين . وحتى عهد قريب أنقسمت بدورها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة ما بين مؤيد ومعارض للأحزاب السورية.

إن تاريخ الانقسام داخل صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يمكن أن ينسب من ناحية الى النزعة الفردية بين الفلسطينيين ومن ناحية آخرى الى حقيقة أن الفلسطينيين كانوا يعيشون بعد عام ١٩٤٨ ، فى أماكن كثيرة عديدة تعرضوا معها لتأثير عدد من الأنظمة المختلفة والايديولوچيات المتبايدة، فكانت خليفة الدكتور حبش يختلف تماما عن خليفة زعماء فتح السنيين، فالدكتور حبش الذى يعتبر واحد من أذكى الأطباء فى الشرق الأوسط، مسيحى ارثوذكسى من حيفا تلقى علومه فى

الجامعة الامريكية ببيروت كما أن الكثيرين من أتباعه كذلك مسيحيون لم ينشأوا فى مصر أوفى دول الخليج مثل زعماء فتح، بل فى سوريا والأردن ولبنان. كما أن الرجل الثانى بعد حبش فى القيادة، المرحوم الدكتور وديع حداد، وزعيم الجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين المنشقة، نايف حواتمة، ينتميان الى الطائفة الارثوذكسية اليونانية. وفى عام ١٩٧٠م، كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تضم عددا كبيرا من الفدائيين الارثوذكس لدرجة أنها جندت القس حنا العسكاب.

وينتمى حبش وحواتمة الى تراث عقائدى مغاير تماما لتراث القوميين الفلسطينيين من قادة فتح، فهم من سلالة القوميين العرب المسيحيين فى القرن التاسع عشر الذين اعتقدوا بأنه فى سوريا الكبرى (أى ما قد أصبح فيما بعد سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) تكمن شخصية قومية ينبغى أن تجد تعبيرا لها فى دولة واحدة وكانوا يرون أن هذه الدولة لا ينبغى أن تقوم على أساس التضمان الاسلامى، بل على فكرة سوريا الكبرى كوحدة تاريخية وثقافية وجغرافية واضحة المعالم، كان الاحتلال العثمانى قد طمسها لعدة قرون، وعندما شكل حبش الحركة الوطنية العربية فى الأردن فى عام ١٩٥٣ كان يرمى الى تحقيق نفس الاهداف التى سعى لتحقيقها القوميون فى العصر التركى، وظل يؤمن طيلة الاربعة عشر عاما التالية بأن العمل القومى بزعامة عبد الناصر سوف يحل القضية الفلسطينية.

كان حبش يرى المشكلة فى أطار أوسع بكثير من رؤية عرفات واصدقاؤه، وكان يعتبرها جزء من النضال فى سبيل الحرية العربية؛ التى حال دون نيلها الاتراك والقوى الاستعمارية والصهاينة. فقد كانت فلسطين بالنسبة لحبش مسئولية عربية وأنها تتحرر بالجهود المشتركة لكل الشعب العربى، وليس من خلال حرب العصابات التى يشنها الفلسطينيون. وعندما كشفت الانظمة العربية– فى عام ١٩٦٧ عن ضعفها كان رد

فعل حبش مغايرا تماما لما صدر عن عرفات. فبينما أصرت فتح على أن الانظمة يجب تجاهلها رأى حبش ضرورة الاحاطة بها.

فاذا كان العالم العربى بوضعه القائم أضعف من أن يستعيد فلسطين بأن من الضرورة تغييره. غير أن حبش أدرك أيضا أن عبد الناصر والقومية العربية غير كافيين لتوحيد العرب وهزيمة إسرائيل. فالأمر يستلزم عقيدة ثورية لتعبئة الجماهير، وهو ما يفسر اعتناق حبش «للماركسية» فى وقت لاحق. وكما أوضح ذات مرة:

«أن حرب ١٩٦٧ والهزيمة الجديدة احدثتا ثورة شاملة فى تفكيرنا » فقد قررنا تبنى الاسلوم الفيتنامى: حزب سياسى قومى وتعبئة كاملة للشعب ومبدأ عدم الاعتماد على أى نظام أو حكومة، ونحن الأن نعد العدة لخوض حرب ضد إسرائيل ومن يساندونها قد تستمر عشرين عاما أو يزيد.

كان تحليل حبش للموقف فى كثير من النواحى يتم عن رؤية أوضح مما لعرفات. فقد أدرك أن الفلسطينيين لن يستطيعوا هزيمة إسرائيل اذا ما اضطروا الى القتال بمفردهم أو بمساعدة الانظمة الموالية للعرب كتلك التى فى الأردن ولبنان. وكان يرى أن اعدائهم ليسوا الصهاينة فحسب، بل أيضا «الامبريالية» التى تعنى بها الولايات المتحدة وأى دولة أخرى تقدم دعما عسكريا وماليا لإسرائيل والى الانظمة العربية العملية التى يرى أن الغرب هو الذى يبقيها فى الحكم، وكخطوة أولى لابد من الاحاطة بالملكية الهاشمية فى الأردن، التى يشار اليها فى بيانات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مرة بالنظام «العميل» وأخرى بالنظام «المأجور» لتتبعها بالحكومة اللبنانية «الفاشية» والرجعية فى العربية السعودية والنظام «الاستسلامى فى مصر، ولن تتحرر فلسطين الا اذا أحاطت بها دول ماركسية متحدة. وعندما يتم ذلك، كما ترى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فان فلسطين لن تتحرر عن الصهيونية فحسب بل

ستتحرر كذلك لبنان والأردن من الرجعية، وسوريا والعراق من البورجوازية الصغرى، فلسوف تتغير هذه الدول بالمعنى الاشتراكى الحقيقى وتتحد وتصبح فلسطين جزء من دولة عربية ماركسية- لينينية.

ويرجع اعتناق الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للماركسية فى جانب منه الى اعتبارات تكنيكية. فشعار «الوحدة»القومى القديم فقد تأثيره وكان لابد من تعزيزه بعقيدة ثورية تتضمن نشاطا اجتماعيا مع الدعاية. ومن ثم شغلت الجبهة معظم وقتها فى «التدريب العقائدى» فى المعسكرات وفى الريف، بل أن البدو الأردنيين كانوا قبل عام ١٩٧٠ يلقون فى الخيام دروسا فى الماركسية كذلك أضفى قبول الجبهة للماركسية صبغة دولية على دعايتها، فكثيرا ما كانوا يستشهدون بسوابق وقعت على الصعيد الخارجى كما كانت بيانات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مولعة باقتباس أشياء مثل آخر كلمات تفوه بها سلفادور الليندى أو قصيدة مهداه الى اميلكار كابرال. كما كانت ترسل بانتظام رسائل أخوية الى دول مثل كوبا وكوريا الشمالية واليمن الجنوبية وكان أحد الفدائيين الذى قتل فى الاراضى المحتلة يعرف باسم«جيفارا غزة».

أما نايف حواتمة، زعيم الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين، فكان ينتمى الى الجناح اليسارى للحركة الوطنية العربية وأصبح ماركسيا مثل جورج حبش بوقت طويل. ففى أوائل ١٩٦٩ انفصل مع مؤيدية عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وقام بتشكيل منظمته بعد أن تدخلت فتح لتحول دون نشوب قتال جنيف بين رجاله والجبهة وكان حواتمة على خلاف مع حبش منذ سنوات وتتركز شكواه الاساسية فى أن زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ليس ثوريا بما فيه الكفاية أما المسألة التى أثارت الكثير من الجدل، أولا فى داخل الحركة الوطنية العربية، ثم فى لجان الجبهة فكان الدور الذى ستلعبه البورجوازية الصغيرة. (ويبدو ان كليهما اغفل حقيقة انهما

مؤيديهما كانو طبقة البورجوازية الصغيرة). لكن بينما كان حبش يرى ضرورة التعاون معها فى المراحل الاولى للثورة، رفض حواتمة التعامل معها. فما كان من حبش، وهو على دراية بتاريخه الثورى ويدرك ان الماركسيين انفسهم يضطرون الى قبول الحل الوسط- مثال على ذلك تحالف ماو مع كومنتانغ ضد اليابانيين- الا أن وصف حواتمة «باليسارية الطفولية» ومما لا شك فيه أن اسلوب الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين تزيد من قائمة الانظمة العربية التى يتعين الاحاطة بها قبل أن يتمكن فدائيوها من العمل على تحرير فلسطين سوى حكومة اليمن الجنوبية الذى ساهم حواتمة نفسه فى وضع برنامجها السياسى.

لقد أفضى النزاع القائم حول «البورجوازية الصغيرة» وغيرها من الموضوعات العويصة المماثلة، كالعلاقة بين النضال العسكرى والثورة الاجتماعية، الى أول انقسام فى صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان أحمد جبريل، وهو ضابط فلسطينى سابق فى الجيش السورى، قد شكل جبهة التحرير الفلسطينية قبل حرب ١٩٦٧ بسنوات قليلة. ثم انضم بعد ذلك بجبهته الى الائتلاف الذى تمخض عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. بيد أنه شعر بالاستياء من ضياع الوقت فى المنازعات الايديولوجية التى تشابست عليها الجبهة، فانفصل بجبهته مرة أخرى فى أقل من عام وأعاد تسميتها بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة. وكان جبريل يرى أن مهمة المقاومة هى القتال وليس الحديث عن«البورجوازية» الصغيرة. وسرعان ما تسنى لمنظمته، على صغرها، أن تثبت أنها اكثر الجماعات الفدائية الصغيرة فعالية عسكرية.

وتعتبر فتح والجماعات المنشقة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منظمات المقاومة المستقلة الوحيدة. أما المنظمات الاخرى فتدين فى بقائها لبعض الحكومات العربية التى تمولها وتدعمها مقابل اتباع سياسة هذه الحكومات .

فجبهة التحرير العربية، مثلا، فى سبيل العراق وفى التعبير عن مصلحتها داخل المقاومة، ولكن ليست لها شخصية مستقلة وتقوم بما تملية عليها العراق وبالتالى فقدت فاعليتها كأداة من أدوات المقاومة. ولا يعكس تشكيلها أية أمانى سياسية فلسطينية، فقد كان الهدف من تشكيلها بكل بساطة هو التصدى لمال سوريا، المنافس الرئيسى للعراق، من تأثير على المقاومة من خلال الصاعقة، منظمتها الخاصة.

وبصرف النظر عن ولائها فان الصاعقة هى على الاقل قوة عسكرية خطيرة، وتحتل المرتبة الثانية بعد فتح من الناحية العادية، وكان قد قام بتشكيلها فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، حزب البعث السورى الحاكم، الذى قرر، لأسباب متعددة، عدم مساندة فتح أو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ويدرب أعضاء الصاعقة على أيدى ضباط سوريين ويتلقوون الاموال والاسلحة. وتتكون عضويتها الفعالة الى حد كبير من أعضاء فلسطينيين من جناح حزب البعث الموالى لسوريا (الذى يعارض الجناح الموالى للعراق) الذين كانوا يقيمون فى سوريا أو الأردن أو الكويت وكان يتزعم الصاعقة زهير محسن، رئيس الدائرة العسكرية بمنظمة التحرير الفلسطينية حتى وقع حادث اغتياله فى عام ١٩٧٩ . وبينما تلتزم الصاعقة بأيديولوجية البعث المعقدة التى تجمع بين الاشتراكية والقومية العربية- فانها تقف عادة الى جانب عرفات فى المناقشات الهامة التى تجرى داخل منظمة التحرير الفلسطينية.

ولا تختلف منظمات الممقاومة حول الاستراتيجية التى يتعين عليها اتباعها من أجل بلوغ هدفها فحسب، بل أنها أيضا لا تتفق حول الهدف ذاته. ولم يكن الأمر بحاجة الى تحديد هدف نهائى عندما كان من الواضح، فى السنوات الاولى للمقاومة، ان النضال سيستمر لعشرات السنين وكانت كلمة«التحرير» تعبيرا غامضا بالقدر الذى يكفى معه ارضاء كل فرد لكن فى اكتوبر من عام ١٩٦٨ قام صلاح خلف زعيم

فتح، بتحديد ما أصبح فيما بعد الهدف الرسمى لمنظمة التحرير الفلسطينية وهو أن: فلسطين ستشكل دولة ديمقراطية علمانية واحدة للشعب الفلسطينى. فلن تعد الدولة بصورة تلقائية صهيونية لكن جميع اليهود المقيمين فيها والذين يرغبون فى البقاء يكون لهم ما أرادوا وكما أوضحت الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين للمجلس الوطنى الفلسطينى فى العام التالى فانه:(فى الدولة العلمانية الديمقراطية) سوف تعيش كل من العرب واليهود دون تمييز ويكون لهم الحق فى تطوير ونشر ثقافتهم القومية الخاصة. فضلا عن ذلك، فان فلسطين الجديدة ستضم العرب واليهود الذين يتمتعون بحقوق وواجبات وطبقة متساوية.

اذن كان الهدف هو قيام الدولة الديمقراطية لكن لم يكن هناك ادعاء بأن الفلسطينيين فى أى مكان على وشك تحقيقه.. ويرى حبش أن بلوغ الهدف يستغرق ما لا يقل عن عشرين عاما، ومع وجود هذا الامل ليس ثمة حاجة الى البدء فى التفكير فى الحلول الوسط، ويمكن لرجال المقاومة أن يعيشوا مع حلمهم.

تأثرت بشدة المواقف السياسية فى الشرق الاوسط بحرب اكتوبر ١٩٧٣م وذلك عندما استعادت جيوش سوريا ومصر بعض هيبتها التى فقدتها فى ١٩٦٧ ، فقد أدت الحرب وما أعقبها من حظر للنفط الى ايقاظ بقية دول العالم، وبداية التفكير فى امكانية التوصل الى تسوية للصراع المزمن فى الشرق الاوسط وبينما كان المشاركون فى مؤتمر جنيف للسلام يستعدون لعقد المؤتمر كان على الفلسطينيين ايضا ان يتحركوا ويحددوا موقفهم ويصيغوا مطالبهم.

كما كان على فتح وغيرها من المنظمات التى لها اتصالات رسمية بالعالم العربى أن تضع فى اعتبارها مواقف الدول العربية المعنية، وأما الجهة وفروعها، التى كانت تعتبر كافة دول الشرق الاوسط أعداء لها، فيما عدا العراق واليمن الجنوبية

وربما الجزائر، فكان بوسعها ان تكون أقل دبلوماسية، فقد كان واضحا «مثلا»ان مصر وسوريا والأردن كانت على استعداد للموافقة على تسوية اذا ما جليت إسرائيل عن المناطق التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧، ولم تكن تنوى المطالبة ببقية فلسطين التى احتلت عام ١٩٤٨. ومن ثم كان على الفلسطينيين أن يقرروا ما اذا كانوا سيسافرون بالاجماع العربى أو يرفضون. كما كان يتعين عليهم أن يقرروا ما اذا كانوا على لستعداد للتخلى عن رؤيتهم الخاصة بالتحرير الكامل وقبول ما هو أقل وان يكن اكثر واقعية- أى الحكم الفلسطينى فى تلك المناطق الصغيرة من وطنهم، الضفة الغربية وغزة، التى كان يحتمل استردادها بالطرق الدبلوماسية.

كان قرارا صعبا ومع ذلك اتخذه الكثيرون من الفلسطينيين لقد كتب فواز تركى يصف كيف أن عذاب الحرمان قد أغراه بأن هناك فرصة الآن وفى حيلتى لكى أدرك حقيقة الشعور وكيف يكون وقع التجربة على عقلى بأن الآن ولأول مرة منذ أن كنت طفلا، مواطنا فى دولة وابن بلد هى بلدى... بلد كأنها ملك لى بتلالها وجبالها، ولى اطفال يعيشون فى بيوت من الآجر حيث يتسنى أن أجلس مع أهلى دون خطر يتهددنى وبلاحرمان بعد اليوم، لقد وافقت فتح والصاعقة وغالبية الفلسطينيين الذين يعيشون فى الشتات والمجلس الوطنى الفسطينى فى يونيو عام ١٩٧٤ عن استعداده لاقامة سلطة وطنية مستقلة فى أى جزء من الارض الفلسطينية التى يتم تحريرها ولم يقبل أى فلسطينى هذه التسوية على أساس أنها تسوية مثالية لكنهم كانوا يعتقدون أنها السبيل العملى الوحيد لتحقيق نوع من العدالة لشعبهم.بالاضافة الى أنهم كانوا يرون أنه اذا ما امكن حمل الصهيونية على العودة الى ماوراء حدودها القديمة سوف يتم القضاء عليها كقوة توسعية.وهذا من شأنه أن يؤدى حتما الى تحسين العلاقات بين إسرائيل والعرب وربما هو السبيل أمام عودة اللاجئين الى وطنهم فى نهاية الأمر. وعلى أية حال كما صرح زهير محسن، زعيم الصاعقة، قبيل وفاته بوقت قصير، «أنه

لهراء أن نتحدث عن دولة علمانية فى الوقت الذى لا نملك فيه شبرا واحدا من أراضينا، لقد حان الوقت لأن نكون عمليين وواقعيين.

وجاء رد من أطلق عليهم مؤخرا اسم «الرافضين» على حجج المعتدلين متشددا ودون أى اعتبار لحقائق الموقف. وأشاروا الى أن غالبية اللاجئين قد جاءوا من يافا وحيفا والجليل وان اقامة دولة صغيرة فى الضفة الغربية وغزة لن يحل أيا من مشكلاتهم، وراحوا يذكرون خصومهم بأن الصهاينة لم يبتاعوا سوى ستة بالمائة من الاراضى الفلسطينية وسرقوا الباقى وحين وجه اليهم النقد لعدم قبولهم بالحل الوسط ردوا بأن مصير الاستعمار إلى زوال، وانه لا يمكن لدولة المستوطن الصهيونى أن تدوم، وكانوا بعد ابريل من عام ١٩٧٥ يستشهدون بفيتنام وكمبوديا كدولتين رفضتا الحل الوسط مع «الامبرياليين» والحقتا بهم الهزيمة فى نهاية المطاف.

ان نزعة الرفض الفلسطينية والعزوف عن تقديم التنازلات، والاصرار على مواصلة النضال حيث لا توجد فرصة للنصر لها تاريخ طويل فقد برزت فى عام ١٩١٧ ، وفى عام ١٩٢٢ وفى لحظات أخرى من فترة الانتداب، فالزعماء الفلسطينيون الذين رفضوا الاشتراك فى الانتخابات التشريعية أو الحديث إلى اللجان الملكية كانوا رافضين وكان المفتى رافضا شأنه شأن الكثيرين من قادة حرب ١٩٤٨ . وتبين الملك عبد الله فى شرق الأردن، ولم يكن من الرافضين بكل تأكيد، أنه يتعذر فهمهم وصرح لسير جون جلوب ذات يوم قائلا:

لو اننى اخترقت الصحراء ودنوت من أول قطيع ماعز أصادفه واستشرته فيما اذا كنت أشد حربا على أعدائى أم لا، لكان رده على سؤالى: «كم نملك من اسباب القوة وكم يملكون؟ لكن هؤلاء السياسيين المتعلمين (الزعماء العرب) وجميعهم من الحاصلين على درجات جامعية، عندما اقول لهم«اليهود أقوياء.. وأنه من الخطأ أن

نشن.. حربا» لا يدركون معزى ما أرمى اليه ويلقون خطبا مطولة حول الحقوق .

ان نزعة الرفض فى حد ذاتها نزعة رومانسية غير مسئولة، فلا تستهدف تحقيق أى شىء، وانما يعينها الحيلولة دون تحقيق شىء، وليس لديها ما تقدمة من حلول أو نقترحه من بدائل، انها ليست اقتناع بغير عدالة قضيتها المطلقة وهكذا لا يعنى أن الرافضين ليس لديهم حجة فمن الواضح أن لهم حجة قوية هى: اذا كنت من الجليل فلابد لك من الذهاب إلى الجليل وليس إلى الضفة الغربية– ولكنهم يرفضون بحث أية حجة أخرى.

وفى حين أن لديهم القدرة، بمعنى سلبى، على تقرير مصير شعبهم (أى عن طريق تدمير أية تسوية) فانهم يرفضون تحمل مسئولية ايجاد البديل. ولعل عشرين عاما أو يزيد من الحرب ترضى فلسفة الدكتور حبشى– ليس على أساس أنه سيحيا بعدها باعتباره رجلا مريضا بالقلب والكلى– لكنها لن تحقق الكثير للاطفال الحفاة الذين يبيعون اللبان فى شوارع بيروت)، وكما كتب فواز ترى يقول: «لو أنك أمضيت عشرين عاما من حياتك فى مخيم للاجئين فقد دفعت ثمناً فادحا ولو طلب منك التضحية لعشرين عاما أخرى، لاصبح الثمن لايحتمل– واذا ما طلب منك أن تلقى بعبئك على كاهل طفلك الذى لم يولد بعد فانك ترتكب ظلما» .

ولقد أوضح زهير محسن، الذى يعد واحدا من أبرز المعتدلين قبل اغتياله، خلفية نزعة الرفض بقولة: «قبل الحرب الاخيرة كانت أفكارنا حول النضال ضد الصهيونية رومانسية، فنحن لم نحدد على الاطلاق ما نريد، وكان هذا منطقيا وطبيعيا، نظرا لما لحق بنا من هزائم ملاحقة على امتداد خمسة وعشرين عاما، فقد اردنا الحرب من اجل الحرب، لتغرس فى نفوسنا روح القتال بدلا من أن نسعى إلى اهداف واضحة

المعالم على مراحل. لقد سيطر الاحساس بالعجز على كافة اعمالنا وتفكيرنا .

ولا يزال الاحساس بالعجز يسيطر على تفكير جبهة الرفض. فعندما يرسل أحمد جبريل، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة، فى مهام انتحارية داخل اسرائيل يرمى إلى تحقيق هدفين: تدمير أية فرصة للتوصل إلى تسوية سلمية واثارة الغارات الانتقامية الإسرائيلية التى من شأنها أن تدفع المعتدلين من الفلسطينيين إلى الانضمام إلى جبهة الرفض. ويؤيد جبريل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة حبش وجبهة التحرير الوطنية التى تحظى بتأييد العراق وجناح فتح المنشق الموالى للعراق بقيادة ابو نضال. وعلى هذه الاخيرة تقع إلى حد بعيد، مسؤلية الحرب الضروس التى نشبت بين الفلسطينيين بسبب الخلاف على الدولة الصغيرة ووقعت حوادث اغتيال لأبرز المعتدلين من أعضاء فتح- بما فيهم سعيد همامى وعز الدين خلاق ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية فى لندن وباريس- بسبب دعوتهم الصريحة لتسوية سليمة تتضمن حلا وسط وقبول إسرائيل كحقيقة واقعة وفى حين تزعم فتح ان رجالها قد قتلوا على أيدى عملاء إسرائيليين كانوا قد تسللوا إلى صفوف هذه الجماعة الموالية للعراق، لم يشك الا نفر قليل فى أن مسئولية الاغتيال تقع كاملة على عاتق ابو نضال ومن يحمرنه فى بغداد.

أما الجماعة- وهو ما يدعوا للدهشة- التى لا تنتمى إلى جبهة هى الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين التى يرأسها حواتمة، وبفضل قدرتها على ممارسة النقد الذاتى، وهو امر غير مألوف بين الحركات الثورية، غيرت الجبهة من موقفها بعد حرب ١٩٧٣ ووثقت تحالفها مع فتح وأعلنت تأييدها لاقامة دولة فى الضفة الغربية وغزة الأمر الذى لم تكن تعتبره غاية فى حد ذاته بل خطوة نحو اقامة دولة فلسطين الاشتراكية العلمانية المتحدة. وأسفر التغيير المتوقع الذى طرأ على سياسة حواتمة عن

تجدد رهيب للصراع القائم بين جماعته والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى يتزعمها حبش. وفى مايو ١٩٧٤ ، وعندما كان رجال المقاومة من الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين يقومون بمهمة انتحارية فى مدينة معلوت الإسرائيلية، تركوا وراءهم وثيقة تدعوا لتشكيل سلطة وطنية على أى أرض تنتزع من العدو الصهيونى(اى اقامة دولة على جزء من الاراضى الفلسطينية وليست فلسطين كلها) . وتم تلاوتها فى اجتماع للمجلس الوطنى الفلسطينى فما كان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين سوى الرد على هذه الوثيقة فى العام التالى. فعندما لقى ثلاثة من فدائى حبش مصرعهم فى مستوطنة كسفار جلفاد، تركوا رسالة لفدائى حواتمة يحرضونهم فيما على ممارسة الضغط على قيادتهم لاتخاذ موقف رفض واضح حيث بات واضحا أن أية تسوية لا يمكن أن تكون سوى تسوية امبريالية .

هكذا تقاتل المعتدلون والرافضون من أجل تأييد الفلسطينيين والواقع أنه لم يكن هناك كثير من الشك حول النتيجة.

فكان من المؤكد أن يفوز المعتدلين لأن بينهم عرفات وكبار رجالات فتح، ولأنهم أعطوا، على الاقل، لشعبهم بصيصا من الامل. وهكذا، بدأت منظمة التحرير الفلسطينية فى الأعوام التى تلتعام ١٩٧٣ ، فى التحرك صوب قبول اقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة.

وكثيرا ما تزعم إسرائيل وانصارها أن عرض الفلسطينيين بقبول مثل هذه الدولة ليس صادقا، ويشيرون إلى الميثاق الوطنى الفلسطينى، الذى تمت صياغته فى عام ١٩٦٤ ، والذى يدعو إلى تحرير فلسطين الشامل ومن ثم، فانهم يغفلون عن عمد البرنامج السياسى للحركة الفلسطينية (كما يمثلها المجلس الوطنى الفلسطينى) ويركزون على وثيقة تحمل بالنسبة للفلسطينيين نفس المعنى الرمزى الذى كان ينطوى عليه

برنامج بازل بالنسبة للصهاينة أو الفقرة ٤ بالنسبة لحزب العمال البريطانى. فالميثاق هو اعلان الحقوق التاريخية ورمز للكبرياء القومى، انه ليس بيانا حول النوايا .

ان أهداف للحركة الفلسطينية لا توجد فى الميثاق بل فى قرارات المجلس الوطنى الفلسطينى وفى تصريحات قادتها. وبصرف النظر عن قرار يونيو ١٩٧٤ الحاسم الذى لا يزال يشكل السياسة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية، فقد أدلى ياسر عرفات وغيره بتصريحات عديدة تشير إلى استعدادهم للموافقة على بقاء إسرائيل فى مقابل اقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة. ففى مايو ١٩٧٨ صرح عرفات لصحيفة النيويورك تايمز بأن الحل الممكن الوحيد يمكن فى التعايش بين إسرائيل ودولة فلسطينية، وأكدت منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر بغداد الذى عقد فى وقت لاحق قبولها لإسرائيل داخل حدود ما قبل ١٩٦٧، أذا ما التزمت بإرساء سلام عادل على اساس الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الاراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧.

ويعتبر المجلس الوطنى الفلسطينى الجهاز الرئيسى لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهو أقرب ما يكون إلى البرلمان. ويجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى مرة كل عام. وحاليا يعقد اجتماعاته فى دمشق حيث يقرر المبادىء التى ترتكز عليها سياسة منظمة التحرير الفلسطينية وينتخب اللجنة التنفيذية ويقر الميزانية وبالرغم مما يبدو من أن المجلس ليس ديمقراطيا بالمعنى الدقيق– فليس عمليا اجراء انتخابات لجماعة على هذا النحو من التشتت كالفلسطينيين– فان الفلسطينيين أنفسهم يشعرون بأن المجلس الوطنى الفلسطينى يعتبر نيابيا بقدر ما تسمح به الظروف، ويجيىء النواب من جميع أنحاء العالم باعداد تتناسب تقريبا مع قوة الجماعات فى مختلف الدول. فيضم المجلس أربعين نائبا من الأردن وثمانية عشر من الكويت وثمانية من الولايات المتحدة واثنين من

البرازيل واربعة من بقية امريكا اللاتينية. ومن بين ٣٠١ نائب نجد أن مائه من جماعات المقاومة (منهم ٣٥ اعضاء فى فتح) الذين وقع عليهم الاختيار فى المؤتمرات السنوية التى تعقدها المنظمات وسبعة وخمسين هم أعضاء النقابات المختلفة مثل نقابة العمال وحركة الطلبة ونقابة المعلمين والتنظيم النسائى كما يتم اختيار عدد أقل كممثلين لمخيمات اللاجئين فى المجلس. أما باقى الاعضاء فهم مستقلون يقع عليهم الاختيار على اساس الاسهم فى القضية بصورة أو بأخرى. وينضم المجلس الوطنى الفلسطينى عددا لا بأس به من الكتاب والمؤرخين الذين كتبوا عن فلسطين ورجال الاعمال الذين تبرعوا بمبالغ ضخمة للصندوق الوطنى الفلسطينى.

وبالرغم من أن لفتح أقل من ١٢٪ من المقاعد، فانها القوة المهيمنة فى المجلس الوطنى الفلسطينى وكذلك فى كافة أجهزة منظمة التحرير الفلسطينية ويلقى الاعضاء المستقلون آذانا صاغية، غير أنه ليس لهم مركز قوة خاص بهم، ويرتبط معظمهم بصورة ما مع منظمة أو أخرى من منظمات، ولأسباب جلية تؤثر غالبيتهم اقامة علاقات مع فتح فمن المرجح، مثلا، أن يميل رجل العمال الفلسطينى الذى يقيم فى العربية السعودية إلى عرفات وليس إلى حبش أو حواتمة كما تقف النقابات وراء فتح، فثلاثة عشر عضوا من بين الخمسة عشر أعضاء فى المجلس الوطنى الفلسطينى الممثلين لنقابة العمال يؤيدون عرفات، مثلهم مثل ٩٠ بالمائة من الطلبة.

ويتولى الصندوق الوطنى الفلسطينى الشئون المالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ويقوم بفرض ضريبة على الفلسطينيين الذين يعملون فى القطاع العام فى الدول العربية. وتعد «ضريبة التحرير» زهيدة وتبلغ ٣٪ من الدخول الصغيرة و٥٪ على الدخول الاكبر، وتتولى الحكومات المضيفة خصمها من المنبع، أما الفلسطينيون الذين يزاولون نشاطا خاصا فيقدمون تبرعات بنفس القدر وتعتبر الدول العربية مصدر الدخل الآخر

للصندوق وحتى عام ١٩٧٩ كانت بعض الدول تختار المنظمات الفدائية التى ترغب فى مساندتها وتمويلها مباشرة وليس عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية. ومن ثم كانت العراق تمول حبش وجبريل وقوات التحرير العربية وابو نضال ولا تساند فتح. غير أن هذا كان يعنى ضرورة أن يتبع حبش والآخرون سياسة العراق اذا ما رغبوا الاستمرار فى الحصول على الدعم. وكان من الواضح ان هذا الوضع غير محتمل واتخذت مؤخرا بعض الخطوات للحد من اعتماد المنظمات الفدائية على دول بعينها.

وتقرر فى اجتماع قمة بغداد الذى عقد فى مارس ١٩٧٩ جمع ٢٥٠مليون دولار لمنظمة التحرير الفلسطينية لتوزيعها على مختلف المنظمات لا عن طريق الحكومات العربية بل عن طريق الصندوق الوطنى الفلسطينى وغالبا ما يغفل الغرب حقيقة ان منظمة التحرير الفلسطينية تقوم، إلى جانب وظيفتها العسكرية، بسلسلة من خدمات الرعاية وغيرها للجماعات الفلسطينية فى المنفى. فلديها فى الكويت نظام تعليمى خاص وتدير فى لبنان حوالى ثلاثين مصنعا بواسطة الشركة العربية للتنمية الصناعية والهندسية، وأهم الخدمات التى تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية هو برنامجها الصحى تحت اشراف جمعية الهلال الاحمر الفلسطينى التى اسستها فتح فى عام ١٩٦٩ برئاسة الدكتور فاتح عرفات، شقيق رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ويشرف الهلال الاحمر على ٣٥مستشفى واكثر من مائة عيادة فى كافة ارجاء العالم العربى. وهناكجمعيات للهلال الاحمر فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وسويسرا والسويد. كذلك أنشأت منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت وكالة أنباء فلسطين ومركز للابحاث ومحطة اذاعة ومركز للأشرطة والتصوير.

ان القوة السياسية فى منظمة التحرير الفلسطينية تمكن فى اللجنة التنفيذية التى تجمع مرتين أو ثلاثة فى الشهر وتتألف من ممثلين من كافة منظمات المقاومة(فيما عدا

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى ترفض مرارا المشاركة) وعدد ضئيل من المستقلين المؤيدين، فى معظمهم، لعرفات. بيد انه على الرغم من قيام اللجنة التنفيذية عادة بتنسيق النشاط السياسى، فان العمل العسكرى تقرره المنظمات نفسها. بمبدأى عن منظمة التحرير الفلسطينية. ويشكل هذا الموقف فى كثير من الاحيان مصدر احراج لغرفاتوالقيادة الرئيسية، غير انهم عاجزون عن تغييره. ورغم ما بذلوه من محاولات عديدة لتوحيد كافة الفصائل المختلفة تحت قيادة موحدة فان هذا لا يحدث الا فى حالة الطوارىء.

فيصر جبريل وحواتمة، على استقلالهما العسكرى ولو أن هذا الاستقلال تعرض للخطر لرفضهما الانتماء لمنظمة التحرير الفلسطينية.

هكذا لا يسيطر ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية سيطرة كاملة الا على فتح وجيش التحرير الفلسطينى وهو قوة نظامية قوامها ثلاثة أولوية مشاة ترابط عادة فى القاهرة وسوريا والعراق. أما الجماعات الصغيرة فتتمسك بحرياتها فى اتباع اساليبها الخاصة دون تدخل ومقرها مكاتب متواضعة فى بيروت معظمها فى حى الصابرة القذر. وهو حى مكتظ بالسكان ومليء بالمدافع وذوى العاهات- صبية بلا أرجل وأطفال تثير آثار جروحهم الاشمئزاز ونساء يلتف الحصى حول اذرعهن وأرجلهن، فهذا الحى هدف دائم للغارات الإسرائيلية..

وكانت جماعات المقاومة البارزة منذ عام ١٩٧١، أثر طردها من الأردن(انظر الفصل الثامن) قد اتخذت من لبنان وسوريا مقرا لها، وفى البلدين تحتفظ فتح والصاعقة بمعسكرات للتدريب كما أن لهم خلايا فى الأردن والضفة الغربية- وكان عرفات نفسه قد قام بتشكيل بعضها فى الاعوام الاولى لفتح وغزة- كما تتبع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفروعها خلايا فى الاراضى المحتلة وقد قام رجال حبش

فى اوائل السبعينات بنشاط فعال ضد الجيش الإسرائيلى فى غزة. وهناك قواعد تابعة لمعظم هذه الجماعات فى لبنان وكذلك فى سوريا لو ان حكومة دمشق سمحت بذلك. لقد حظيت الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة أحيانا بتأييد سوريا، لكن ظلت جبهة التحرير العربية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى تحصل ايضا على مساعدة من العراق، فى لبنان، وحتى هناك لم تشعرا بالأمان. فلم يحدث أن قضى جورج حبش ليلتين فى مكان واحد، وعادة لا تعرف زوجته ولا أصدقاؤه مكانه.

فى الاعوام التى اعقبت حرب ١٩٦٧ كان رجال المقاومة فى منظمة التحرير الفلسطينية يسجلون انتصارات هامة على الجيش الإسرائيلى، الذى كان فى صيف عام ١٩٧٠ يتكبد ما يقرب من خمسين اصابة شهريا، لكن سرعان ما انهارت فعاليتهم عندما احكم الإسرائيليون قبضتهم على الحدود الجديدة وقضوا على الخلايا فى غزة، ووجد رجال المقاومة أن تحركاتهم أصبحت مقيدة على نحو متزايد من جراء قسوة الحكم العسكرى الإسرائيلى فى الاراضى المحتلة وكذلك تشدد الحكومات العربية المجاورة التى حرصت على تجنب غارات إسرائيل الانتقامية المعتادة على اراضيها. عندئذ ادرك الكثيرون من زعماء المقاومة أن ظروف الصراع الفلسطينى جعلت حرب العصابات التقليدية أمرا متعذرا. كان يفضل الاهتداء بالحرب الجزائرية واستعداد الالهام منها، لكن مساحة الجزائر تصل الى ثمانين ضعف مساحة فلسطين كما أنها، كالصين، مكان نموذجي لحرب العصابات. لكن فى الضفة الغربية لا توجد بيان يمكن لعرفات أوحبش التراجع اليها لتدعيم مواقعها، وحتى من جبال نابلس، حيث حقق الفلسطينييون بعض النجاح على البريطانيين فى عام ١٩٣٨ أمكن للإسرائيليين شن هجوم مباغت ضدهم فى خلال يوم واحد، كما أنه لم يكن من المجدى تشجيع سكان الاراضى المحتلة على الاقتداء بالحرب الجزائرية حيث أن ذلك لم يسفر الا عن

كونه ذريعة يتذرع بها الاسرائيليون لتشتيت المزيد من الفلسطينيين بطرد القرويين من ديارهم.

ولما عجز رجال المقاومة عن اقامة قواعد فى فلسطين، لم يكن امامهم سوى اقامتها في الدول العربية المجاورة، ومنها شنوا غاراتهم داخل إسرائيل. فرد الإسرائيليون بهجمات انتقامية واسعة لم تستهدف قواعد المقاومة ومخيمات اللاجئين فحسب، بل هاجمت ايضا أهدافا تابعة للدول التى كانت تأوى الفدائيين. وسنتناول بالبحث فى الفصول التالية نتائج تلك الهجمات وما أثارته من أزمات بين الفلسطينيين والدول العربية. وقد ترتب على ذلك منع الفدائيين من خوض حرب العصابات على غرار الحرب الجزائرية وارغامهم على اتباع نفس التكتيكات التى استخدمها اعداؤهم فى فلسطين منذ ٢٥ عاما خلت.

ويرى الفلسطينيون أن وجهات النظر الغربية حول الارهاب قد حرفت على نحو يدعو للسخرية، فهم يعتقدون أن الغرب يحكم على هذه المسألة بقدر كبير من العاطفية لكن بدون فهم يذكر لقرائنها والادهى من ذلك أن نظرة الغرب تكاد تكون متحيزة تماما. فالفدائى الذى يحمل بندقية يعتبر، فى نظرهم، ذو أهمية أخبارية تفوق تلك التى لطيار بالسلاح الجوى يرش النابالم على مخيم للاجئين، أفلا يعد هذا الطيار اكثر من ارهابى؟ ولا يزال العالم يذكر الأحد عشر رياضيا إسرائيليا الذين يذكرون الاربعمائة لاجىء الذين أودت بحياتهم الغارة الانتقامية التى شنتها إسرائيل بعد ذلك بثلاثة أيام؟

ليس هناك شعب ارهابى بطبيعته ناهيك عن الفلسطينيين الذين ليست لهم تقاليد عسكرية خاصة بهم، ومن العبث ادانتهم دون بحث الأسباب التى دفعتهم إلى العنف. فالدافع، كما يقول أى فلسطينى، هو نتيجة لمزج من الشعور بالاحباط واليأس

وقد أوضح سامى الكرامى، وهو فلسطينى يقيم فى كندا، ذلك بقوله:«ان الاسباب التى لا تتسم بالعنف جميلة وما أيسرها، وكم كنا نود لو استطعنا تحقيق النصر عن طريقها، فشعبنا لا يحمل الرشاشات والقنابل لانه يستمتع بالقتل، بل لأن ذلك هو ملاذنا الاخير. لقد انتظرنا اثنين وعشرين عاما نتطلع للتحرير والحرية والديمقراطية عن طريق الامم المتحدة والولايات المتحدة، لكن بغير جدوى ومن ثم كان هذا هو ملاذنا الاخير. انه السبيل الوحيد لاستعادة فلسطين والتأكيد على فشل المجتمع الدولى هو السائد بين الفلسطينيين،

ويشيرون إلى أنه منذ عام ١٩٤٧ والامم المتحدة تؤيد بوضوح قيام دولة عربية فى فلسطين كما انها منذ عام ١٩٤٨ وهى تقرر سنويا اعادة توطين اللاجئين. وفى كلتا الحالتين فشلت فى تنفيذ قراراتها ويشعر الفلسطينيون بأنه طالما أن المجتمع الدولى قد تجاهلهم فليس لديهم التزامات محددة تجاهه. فلماذا يتعين عليهم مراعاة القوانين الدولية طالما أنها لا تطبق عليهم؟

وكتب فواز تركى يقول:

«منبوذون ومحتقرون من عالم رفض الاعتراف بوجودنا، وانكر إلى الابد حقنا فى المشاركة فى واقع منظم وتلقائى لشعب، ومع ذلك يطالبوننا باحترام قوانين لم نشارك فى صيغاتها ومبادىء لم تطبق علينا ابدا، وقواعد لعبة لم تدع لدراستها، وحدود لم نعرفها؟ انهم يطالبوننا باحترام مجتمع دولى باخلاقياته ومؤسساته الحرة»، فى حين يرفض هذا المجتمع الدولى فكرة انضمامنا اليه، فبالنسبة لى كفلسطينى فان احترام القانون والالتزام به، ذلك القانون الذى يقهرنى ويديم شعورى بالمهانة، أمر لا معنى له وعبث».

لم يوافق الكثيرون فى المقاومة على الارهاب منذ البداية فهو يثير استيائهم كما

أنه سبب فى احراجهم، ويعتقدون أنه يسىء إلى سمعتهم ويزيد من صعوبة حصول منظمة التحرير الفلسطينية على اعتراف دولى. تلك كانت وجهة نظر المعتدلين من رجال فتح أمثال سعيد همامى وخالد الحسن، الذين كانوا يرون أن النضال العسكرى أقل أهمية من النضال الدبلوماسى وبالرغم من ذلك فان حملة العنف التى قام بها الفلسطينيون فى اوائل السبعينات قد ساعدتهم بالفعل اذ أنها حققت لهم اعترافا ما، فحين كانوا مجرد لاجئين تجاهلهم العالم، ولم يبدأ الدبلوماسيون الغربيون فى الحديث عن حل لمشكلتهم الا بعد أن بدأوا فى قتل بعض الافراد. وكما أشار جورج حبش نفسه قائلا:

«عندما نختطف طائرة فان هذه العملية تترك تأثيرا يفوق الأثر الذى يخلفه قتل مائة إسرائيلى فى معركة، لقد ظل الرأى العام العالمى لعشرات السنين لا يؤيد ولا يعارض الفلسطينيين، أما الآن فقد بدأ العالم يتحدث عنا على الاقل»

ان السواد الأعظم من أعمال العنف قامت به جماعتان متطرفتان هما: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة ايلول الاسود، وهى جماعة مجهولة من المنشقين من فتح وغيرها بدأت عملياتها باغتيال وصفى التل، رئيس الوزراء الأردنى فى عام ١٩٧١، فقد قامت هاتان المنظمتان بمعظم العمليات المثيرة كاختطاف الطائرات والهجوم على المطارات ومكاتب شركات الطيران الإسرائيلى والاستيلاء على السفارات وغيرها، وكانت الاهداف متعددة، فأحيانا يبدو هدفهم الوحيد هو أن يذكروا العالم بوجودهم، وعادة يأخذون الرهائن ويحاولون استبدالها بفدائيين فى السجون الإسرائيلية. ومن حين لآخر يكون العنف، كما هو الحال فى مقتل وصفى التل، عملا انتقاميا.

وفى اعقاب حرب اكتوبر من عام ١٩٧٣، كانت الجبة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة، تقومان باعمال العنف بهدف احباط

أية محاولة للاتفاق بين إسرائيل والدول العربية.

ولم يكن هناك ما يدعوا للغرابة فى أن يؤيد فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين العنف. وكان ذلك دليلا على شعورهم بالاحباط. فالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أشد جميع المنظمات تشاؤما.

ويقينا فان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لن تقدم على انقاذ الموقف اذا ما طلب منها الموافقة على حل وسط وذلك لأنها تؤمن، فى المقام الاول، بقداسة مهمتهما- بتحرير الوطن بأسره وعودة كافة اللاجئين. وبأنه لا ينبغى على الاطلاق تدنيس المهمة بأنصاف الحلول أى بتحرير جزء من الاراضى أوعودة بعض اللاجئين. وأنه لا يجب السماح للسياسة أو الدبلوماسية بالتدخل فى قضية مقدسة تهون فى سبيلها التضحية.

وما كان لفدائى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن يتصرفوا على هذا النحو لو انهم كانوا على يقين من كسب قضيتهم. وسواء عن وعى أو دون وعى فانهم يتوقون إلى الشهادة، فهناك فرص للحياة فى لعبة الروليت الروسية اكبر مما فى عملية اختطاف الطائرات، ومع ذلك فان ليلى خالد، الفتاة الفلسطينية الجميلة، أجرت ثلاث عمليات جراحية تجميلية بعد أن قامت بأول عملية اختطاف حتى يتسنى لها استئناف محاولة اختطاف طائرة إسرائيلية مسلحة. وحذا فدائيون الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى عمليات أخرى، حذو حلفائهم فى الجيش الاحمر اليابانى، وتجنبوا، عن عمد، أية فرصة للفرار. وبحلول عام١٩٧٣ كانوا قد بدأوا فى القيام بحملات لاسبيل إلى العودة منها حتما. فقد كانت مهام انتحارية وكان الجميع على بينة من ذلك. وكان الفدائيون الذين يقع الاختبار عليهم يتوجهون إلى جنوب لبنان لتلقى التعليمات- وكانوا يتركون رسائل لذويهم ورفاقهم ويلتقطون العديد من الصور الفوتوغرافية وقد

تشابكت ايديهم وتوعدت بنادقهم. وينتهي بهم الامر إلى عبور الحدود ولم يراهم بعد ذلك سوى ضحاياهم وقاتليهم، كانت هذه هي الشهادة التي انتظرونها وأرادوها، ولم يبق غير سؤال واحد هو: كم عدد الضحايا الذين سوف يصحبونهم؟ لقد نبذهم العالم واحالهم إلى «شمشون» وقد عقدوا العزم على التدمير وان شملهم هذا الدمار ذلك لأنه لم يكن لهم من هدف سوى الانتقام من العالم وما كان لهم من أمل سوى أن يموت معهم اكبر عدد من اعدائهم.

الفصل الثاني

منظمة التحرير الفلسطينية والعالم العربي

ظلت فلسطين قضية عربية زهاء ١٣٠٠سنة، فمن الناحية الجغرافية تقع فلسطين بالقرب من قلب العالم العربى ولها دائما فى نفوس العرب أهمية لم ترق اليها المناطق الاخرى باستثناء الحجاز، ولم يحدث أن حظى أى جزء آخر من الوطن العربى بمثل هذا الاهتمام، ولم يدافع عن أى جزء آخر بمثل هذه الاستماتة ضد الجيوش الغازية. فالحملة الصليبية الثالثة والمغول ونابليون منيوا جميعا بالهزيمة فى فلسطين على أيدى الجيوش العربية أو العثمانية التى كان الفلسطينيون لا يشكلون الا جزء منها.

ولقد ظلت فلسطين قضية حربية خلال هذا القرن وعندما زار ارنولد تونبى بغداد وحلب عقب الاضطرابات التى وقعت فى الخليج وغيرها فى عام ١٩٢٩، صادف جوا مشحونا بالتوتر، ووجد سكانها يهتمون بالاحداث فى فلسطين اهتماما بالغا [١].

وفى عام ١٩٣٦ قررت الحكومة العراقية، «بدافع من الروابط العراقية التى تربطها بعرب فلسطين» القيام بالوساطة بين بريطانيا والفلسطينيين وخلال الثورة ذاتها تلقى الثورا مساعدة مالية كبيرة من سوريا والعراق ومصر ولما رفضت اللجنة العربية العليا، التى كان يهيمن عليها أنصار المفتى، الكتاب الابيض للحكومة البريطانية فى عام ١٩٣٩، حذت حذوتها جميع الدول العربية باستثناء شرق الأردن اذ انا لما يمليه عليها الواجب.

ومنذ قيام دولة اسرائيل ازداد ارتباط العرب بالفلسطينيين وقضيتهم، فخاضت مصر اربعة حروب من أجل الفلسطينيين وقدمت سوريا والأردن ولبنان تضحيات كبيرة

وتحاول الدول العربية أن يتفوق كل منها على الاخرى فى تأييد الفلسطينيين، ولا يقوى أى نظام حاكم على أن ينفر منه الرأى العام اذا ما تجاهلهم. ولقد وصف الأمير فهد ولى عهد العربية السعودية المسألة الفلسطينية بأنها «نقطة ارتكاز دبلوماسية العربية السعودية، وانها هدف ما تبذله من جهود وموضوع اهتمامها الاول والاكبر» هذا زعم طابعه المغالاة كما يتضح لكل من يلقى نظرة عابرة على السياسة الخارجية للعربية السعودية، ومع هذا فان التأييد الشعبى العربى للفلسطينيين يعبر عن القوة إلى الحد الذى يزعم الزعماء العرب على الادلاء بمثل هذه التصريحات. وليس أدل على ذلك من أنه عندما بدأ الرائد عطا حكمه المشئوم الذى لم يدم سوى ثلاثة ايام فى السودان فى عام ١٩٧١، كان أول ما قام به هو الحديث عن اخلاصه للقضية الفلسطينية قائل:« اننا نؤكدد أن السودان سيضع كافة امكانياته من أجل تصفية العدوان الصهيونى- الامبريالى على الارض العربية، وسوف يقدم السودان كل ما تطلبه الثورة الفلسطينية فى سبيل استرداد اراضيها وبناء دولتها الديمقراطية، كما أن السودا سيرفض أى حل لا يقبله شعب فلسطين ممثلا فى منظماته الفدائية الديمقراطية.»

لكن بعض الحكومات العربية لا تذهب إلى هذا الحد لانها رغم ما تعلنه على الملأ من ولاء للقضية الفلسطينية حتى سنحت لها الفرصة، تخشى بل وتكره منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها. فمن المفهوم أن نظما ملكية محافظة كالعربية السعودية والمغرب لا تشعر بالارتياح مع رجل كحبش بينما يكره العمانيون زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لأن جزء من حركته الوطنية العربية هو الذى تولى السلطة فى عدن وجزء آخر بدأ بالتمرد فى المنطقة الغربية من ظفار، ورغم ذلك، فان السعوديين والمغربيين أنفسهم يسندون بصدق الامانى الفلسطينية حتى وان كانوا لا يحبون القادة الفلسطينيين. ولا يؤمن كل العرب بعدالة القضية الفلسطينية فحسب، بل يؤمنون أيضا بأنها، إلى حد بعيد، فقضيتهم الخاصة. وقد تأثر فيصل ملك العربية السعودية تأثرا

عميقا من جراء ضم اسرائيل للقدس ليس لانها مدينة فلسطينية فحسب، بل لأنها مدينة مقدسة بالنسبة للعرب جميعا.

ولا جدال فى صدق المشاعر العربية تجاه فلسطين وان تفاوت الالتزام العربى بالنضال من أجل فلسطين واحتل المرتبة الثانية بعد الاهتمامات الداخلية أو الوطنية. فلو حدث أن اصطدمت مصالح معينة بمصالح منظمة التحرير الفلسطينية، فعادة ما تؤثر تلك الدولة مصالحها الخاصة. فعندما تعين على الأردن أو لبنان الاختيار بين تقييد تحركات رجال المقاومة فوق اراضيهما أو التعرض لغازات القصف الانتقامية من جانب اسرائيل اختارتا، كما هو متوقع، تقييد حركة المقاومة، وكما هو متوقع ايضا فان الدول العربية التى لم تضطر إلى مواجهة مثل هذه المشكلة راحت تحتج بشدة على التدخل فيما يقوم به رجال المقاومة من أنشطة.

ولعل الجزائر، بفضل المسافة التى تجعلها بمأمن من غارات اسرائيل اكثر الدول ثباتا فى صداقتها لمنظمة التحرير الفلسطينية ومع ذلك لاتتردد كثيرا فى أن تكون الاولوية للجزائر اذا ما اقتضى الصالح الوطنى ذلك.

وكانت الجزائر أول دولة عربية تساند فتح فى عام ١٩٦٢ وذلك قبل أن يسمع أى شخص اسم عرفات بوقت طويل لكن بعد ذلك بعامين عندما قامت جامعة الدول العربية بانشاء منظمة التحرير الفلسطينية للحد من العناد الفلسطينى قرر الجزائريون التخلى عن فتح واغلاق مكاتبها فى مدينة الجزائر دفاعا عن موقفهم داخل جامعة الدول العربية، وأصبحت الجزائر شأنها شأن الدول العربية، من أشد مؤيدى فتح بعد ذلك بسنوات قليلة عندما باتت تسيطر على منظمة التحرير الفلسطينية. وفى عامى١٩٧٠و١٩٧١ كانت الجزائر هى المؤيد بشدة القتال منظمة التحرير الفلسطينية ضد الأردنيين إلى حد أنها قطعت علاقتها مع نظام الملك حسين. ولو ثبت الجزائريون

على مبدأهم، لقطعوا العلاقات الدبلوماسية مع دمشق فى عام١٩٨٦ عندما دخل الجيش السورى لبنان وهزم منظمة التحرير الفلسطينية. لكن، لدهشة بعض زعماء المقاومة، التزم الجزائريون الصمت التام، ولم يكن من الصعب معرفة السبب. فقد كانت الجزائر فى غمرة نزاعها مع المغرب بشأن مستقبل الصحراء الاسبانية سابقا، وكانت سوريا واحدة من الدول القلائل التى تؤيدها، ومرة اخرى تخلت الجزائر عن الفلسطينيين بدلا من استعداء حلفاء هامين.

ولقد كان العقيد القذافى يسدى دائما النصيحة للدول العربية، ويحثها باستمرار على السماح لرجال المقاومة بالعمل من اراضيها ويصر على أنه لا يجب أن يسعى أحد إلى تسوية سلمية مع اسرائيل حتى لو أن الصهاينة عادوا إلى حدود عام ١٩٦٧.

وكذلك يمثل العراق إلى مهاجمة الدول التى يرى انها متساهلة حول القضية.

ففى نوفمبر ١٩٦٧ عندما وافقت مصر على قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة رقم٢٤٢، وفى عام١٩٧٠، عندما وافق عبد الناصر على وقف اطلاق النار على طول قناة السويس وقبل اقتراحات السلام التى طرحها وزير الخارجية الامريكى، كان العراقيون أول من أثاروا ضجة غير أن الرئيس عبد الناصر لم يأبه بهم. وفى خطاب القاه فى مجلس الامة فى٢٤نوفمبر ١٩٦٧ فى القاهرة، أعلن:«لسنا على استعداد للاصغاء لاولئك الذين ينادون بشن حرب عاجلة، فهم أناس لم يخوضوا حربا فى حياتهم، ولا يعتزمون خوضها».

لقد بذل العرب بعض التضحيات من أجل فلسطين فبصرف النظر عن الحروب الباهظة التكاليف التى خاضوها من أجلها فانهم ساعدوا اللاجئين بطرق عديدة: فالأردن منحهم الجنسية، ووفتت لهم سوريا العمل واستقبلت مصر الآلاف منهم فى القاهرة ووفرت لهم اماكن فى جامعاتها، لكن الفلسطينيين عانوا ايضا الكثير على

ايدى بعض اخوتهم من العرب، ولا سيما فى الدول التى بها عدد كبير من اللاجئين والمتاحة لاسرائيل: سوريا والأردن ولبنان ولا يرجع السبب فى ذلك إلى أن أيا من هذه الدول غير متعاطفة مع القضية الفلسطينية، بل إلى وجود تناقض جوهرى بين متطلبات هذه الدول واحتياجات المقاومة.

فبوسع السورى، على سبيل المثال، أن يقول أنه يؤيد القضية الفلسطينية تأييدا مطلقا ويدلل على ذلك بالثمن الباهظ الذى تكبدته بلاده فى سبيل هذا التأييد. لكنه يقول فى الوقت نفسه أن ثمة حدودا لما هو مستعد أن يقدمه من تضحيات. وفى عام ١٩٧٦ استبدت الدهشة بالعالم حيث رأى الحليفتين السابقتين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية تتقاتلان على لبنان. والادهى من ذلك ان السوريين كانوا يساندون فى الواقع حركة لبنانية يمينية؛ أصدقاؤها الحميمون اسرائيل والامريكيون. وتدخلوا بهدف انقاذ هذه الحركة من الهزيمة العسكرية والحيلولة دون ان تحل محلها حكومة، يسيطر عليها القوميون العرب اليساريون من اللبنانيين ومنظمة التحرير الفلسطينية لو لم تكن ثمة اعتبارات أخرى لفضل السوريون، فيما يبدو، نظام حكم فى لبنان من الفلسطينيين والقوميين العرب، تربطهم به علاقات ايديلوجية وثيقة على نظام يمينى موال للغرب هم على خلاف معه زهاء نصف قرن. غير أنه لم يكن بوسع السوريين النظر اليها فى اطار السياسات الاقليمية، وعندئذ خلصوا الى أن انتصار القوميين العرب ومنظمة التحرير الفلسطينية وان كان مرغوبا من الناحية النظرية فانه قد يعنى كارثة بالنسبة لسوريا والمنطقة بأسرها.

ودفع السوريون بأنه لو تولت منظمة التحرير الفلسطينية الامور فى بيروت لا تنهى الأمر بغزو اسرائيل للبنان وجرهم إلى خوض غمار حرب شاملة سوف يخسرونها لا محالة. ومن ثم ذهبوا إلى لبنان وأوقفوا منظمة التحرير الفلسطينية.

أمـا الأردن فـهى الدولة التى تربطهـا عـلاقـات أوثق بالفلسطينيين وان كـانت مصالحها لا تزال تتعارض مع مصالح منظمة التحرير الفلسطينية فبعد قيام الملك عبد الله بضم الضفة الغربية، فى اعقاب حرب ١٩٤٨، وجدت المملكة الأردنية أنها باتت تضم سكانا غالبيتهم من الفلسطينيين، وبالاضافة إلى نصف مليون نسمة هم سكان شرق الأردن أصبحت البلاد تأوى ما يربو على ٨٥٠,٠٠٠ فلسطينى نصفهم تقريبا من اللاجئين من المناطق التى تم غزوها فى فلسطين والباقون من المقيمين فى الضفة الغربية . وكـان اللاجئون قـد جاءوا من اللد والرملة، ومن غرب القدس، ومن يافا والقطاع الصحراوى، ومن منطقة بئر سبع، ومن الجنوب الشرقى.

واستقر اغلبيتهم فى مخيمات اللاجئين حول نابلس ورام الله واريحا، لكن ما يزيد على ١٠٠ألف منهم عبروا نهر الأردن وانتقلوا إلى مخيمات تبعث على الرثاء بالقرب من عمان والزرقاء.

كان اللاجئون فى بداية الامر فى حالة من اليأس وعدم التنظيم فأحسوا بالامتنان للاردنيين الذين وفروا لهم المأوى ووافق معظمهم على ضم عبد الله للقدس والضفة الغربية على اساس انه الخيار العملى الوحيد.

لكن فى السنوات التى اعقبت عام ١٩٤٨ عندما لم تفعل الامم المتحدة من اجلهم سوى اصدار القرارات حسنة النية باتوا يشعرون بالمرارة والاحباط. وشرع بعضهم فى العودة إلى ديارهم فى الليل، معرضين انفسهم لخطر دوريات الحدود الاسرائيلية، وذلك لاحضار ممتلكاتهم الثمينة او حتى ثمارهم، فكثيرون لقوا مصرعهم برصاص الجنود الاسرائيليين وآخرون منعهم الأردنيون من التسلل. وكان التوتر قد اشتد على طول خطوط الهدنة عندما بدأت اسرائيل تشن غاراتها الانتقامية على قرى الضفة الغربية.

وفى اكتوبر عام١٩٥٣، وبعد ان لقى ثلاثة من المدنيين الاسرائيليين مصرعهم على اثر انفجار قنبلة قام الجيش الاسرائيلى بغارة انتقامية على قرية «قبية» منذ منتصف الليل قام بتدمير القرية باكملها فنسف البيوت بمن فيها وقتل ٦٦شخصا. كان من الواضح أنه لم يكن لسكان قرية قبية اى تدخل فى الهجوم السابق الذى شنه متسللون يائسون وليس قرويون آمنون، كان الاسرائيليون على بينةنمن هذا وبالرغم من ذلك قاموا بهجومهم.

لم يكن الاسرائيليون يهتمون بالعثور على المهاجمين الحقيقيين– فقدعرض الجنرال جلوب، قائد الجيش الأردنى، على الاسرائيليين التعاون معهم لمنع التسلل إلى حد السماح لهم بتتبع القتلة بكلابهم– بل كان اهتمامهم منصبا على اقامة مابات يعرف بالاسلوب الاسرائيلى فى التعامل مع المتسللين الفلسطينيين ويتمثل فى استخدام الارهاب بدون تمييز ضد سكان الدول العربية المجاورة حتى ترغم حكومات تلك الدول على حماية اسرائيل ضد الفلسطينيين بوضع حراسة على الحدود ومنع التسلل. وهذا الاسلوب هو ابعد ما يكون عن مبادىء الدفاع عن النفس الملم بها مثل حق «المطاردة الساخنة» كما أنه ليس الاتجاه لفكرة حق الانتقام وهى فكرة قديمة حيث ان اولئك الذين يتعرضون للهجوم ويعانون ليس هم من الحقوا الضرر باسرائيل. وبعد ان رفضت اسرائيل معالجة المظالم التى لها ما يبررها والتى تدفع إلى العنف الفلسطينى فانها كذلك ترفض ما تمخض عن ذلك من ضرورة الدفاع عن النفس بدون مساعدة جيرانها ضد المتسللين الفلسطينيين، وبدلا من ذلك فانها تعمل على ارغام تلك الدول على مشاركتها بـ«كبت جماح الاستياء والعنف الفلسطينى ضد اسرائيل، وهكذا فان المأزق الذى تفرضه اسرائيل على الحكومات العربية المضيفة هو عمل يشع بحق ولا يمكن الخروج منه الا على حساب مواطنيها او تأييدها للقضية الفلسطينية. وما من /أحد يلومها لو انها وضعت مصلحة شعبها فى المقام الاول.

لقد كان جلوب وعبد الله واقعيين؛ فكانا يدركان انهما خسرا الحرب وكانا على استعداد لاقرار ذلك والبدء فى بناء السلام، لكن الفلسطينيين والاسرائيليين على حد سواء رفضوا التعاون. ان نفرا قليلا من الفلسطينيين هم الذين كانوا على استعداد للتخلى عن وطنهم. واستاء الفلسطينيون من محاولات الأردن الرامية إلى دفعهم على ذلك، وفى الخمسينات تزايد انتقادهم للنضال الأردنى الذى كانوا يعتقدون انه استسلم للصهاينة، كذلك شعروا بكراهية لنظام الحكم ذاته الذى كانوا يعتبرونه مفارقة تاريخية اقطاعية يحمية الامبراليون البريطانيون وانه عدو للقومية العربية. وكان الفلسطينيون يشعرون بالاحباط من جراء وضعهم الجديد ويعتقدون انهم ينتمون إلى مجتمع اكثر تقدما من مواطنى شرق الأردن الذين كانوا يحتقرونهم ويصفونهم «بالبدو»– وان كان البدو فى عام ١٩٤٨ اقل من عشر عدد سكان شرق الأردن وكان امرا قاسيا على شعب كان يحكم من القدس ان يخضع لعمان، فاستاء الفلسطينيون من ذلك. فقد كانوا افضل تعليما من سكان شرق الأردن وكان عدد المتعلمين كبيرا وكانوا يشعرون انه لا بد وان يتولى شئونهم حكومة اكثر تعاطفا معهم ومع امانيهم.

وكان من الطبيعى أن يشعر سكان شرق الأردن بالقلق ازاء تدفق الفلسطينيين وبالرغم من وجود سكان زراعيين مستقرين فى الضفة الشرقية فى مناطق الصلت واريد لفترة طويلة، فانه كان مجتمعا مغايرا للمجتمع القائم فى فلسطين، وكان نفوذ البدو فى شرق الأردن أقوى بكثير منه فى الضفة الغربية وازداد هذا النفوذ عندما ولى البريطانيون عبد الله أمير على شرق الأردن، وعبد الله نت أصل حجازى، فهو ابن شريف مكة، الذى عندما جاء إلى عمان أحضر معه عددا كبيرا من اتباعه من البدو ذى البشرة السمراء، وقد شكل هؤلاء البدو فيما بعد أساس الفيلق العربى الذى كان ضباطه بريطانيين ويقوده جلوب، ولما كان هؤلاء يختلفون عرقيا وثقافيا اختلافا كبيرا عن عرب فلسطين فان الثقة بينهما لم تتوافر منذ البداية. وكان جلوب، مثله فى ذلك

مثل كثير من الانجليز الذين عاشوا مع البدو لعدة سنين، يساوره الشك فى عرب المدينة، وكان من رأيه أنهم ليسوا جديرين بالثقة ويشك فى أن يظلوا مخلصين للأسرة المالكة الأردنية. وفى حرب ١٩٤٨ وجد أن قواته من البدو قد هزمت الاسرائيليين فى الوقت الذى أهين فيه غيرهم من العرب، وبات مقتنعا بضرورة أن يظل أساس الفيلق العربى من البدو، وكان قد التحق بالفيلق عدد ضئيل من الفلسطينيين ولكنهم استخدموا أساسا كفئتيين وميكانيكيين.

هكذا يتضح أن الأردن فى الخمسينات كانت دولة مقسمة بشكل خطير، فمن ناحية كان هناك مجتمع شرق الأردن التقليدى الذى يتألف من أتباع الأسرة الهاشمية من البدو والفيلق العربى وعدد من الأعيان الفلسطينيين المحافظين الذين كانوا خلال فترة الانتداب يؤيدون جماعة عبد الله النشاشيبى. وكان من الناحية الاخرى يقابلهم اللاجئون والمثقفون السياسيون الذين كانوا لا يزالون على تأييدهم للمفتى فى منفاه بالقاهرة والذين رفضوا الموافقة على ضم عبد الله للضفة الغربية. أما المتحمسون لعبد الناصر والقومية العربية فكانوا يقيمون ما اعتبرونه سياسة النظام الانهزامية حول فلسطين واتهموه بالتواطؤ مع الاسرائيليين. وكانوا فى هجومهم على الحكومة الأردنية يتلقون تأييدا قويا وصريحا من مصر وسوريا وغالبية العالم العربى.

وفى عام ١٩٥٣ تولى الملك حسين (حفيد عبد الله) السلطة رسميا وهو فى الثامنة عشر من عمره، وحاول، فى بداية الامر، التوفيق بين الفريقين ولكن فى حين أن فريقا لم يحاول اخفاء كراهيته له ظل الفريق الآخر على ولائه دون تردد، فلم يمض وقت طويل حتى تحول إلى الائتلاف الذى كان جده قد شكله وقسم الأردن، طيلة حكم حسين، بين معسكرين، ومرارا ما بدا استمرار عرشه مشكوكا فى أمره.

ففى عام ١٩٥٨، عندما لقى ابن عمه فيصل الثانى ملك العراق مصرعه فى

بغداد وأخذ مد القومية العربية يقوى فى ربوع الشرق الاوسط استدعى حسين القوات البريطانية لحماية نظامه وخلال الاعوام التالية كان هدفا لسلسلة من المحاولات الرامية إلى اغتياله أو الاطاحة به، لكنه لم يواجه أشد الازمات خطورة الابعد حرب ١٩٦٧.

فقد جاء التحدى الجديد من رجال المقاومة الفلسطينية الذين أصبحوا يتمتعون بتأييد شعبى كبير فى أعقاب حرب يونيو وكانوا قد جندوا أعدادا غفيرة من اللاجئين، وفى غضون أشهر معدودة أصبحت المخيمات فى الضفة الشرقية مراكز لغارات الفدائيين داخل اسرائيل والمناطق المحتلة وكان حسين يكره منظمات المقاومة لأنها تستفز الاسرائيليين وتحملهم على الانتقام من الأردن، كما أنها كانت تشكل تحديا مباشرا لسلطته واصبحت اعداد غفيرة من الفدائيين المسلمين فوق ارضه- وكثيرون منهم ماركسيون يتطلبون إلى الاطاحة بالملكية- تشكل فى حد ذاتها خطورة. والادهى من ذلك، من وجهة نظر حسين، انهم كانوا يزعمون أنهم الممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطينى. وهذا ما لا يمكن أن يقبله الملك حسين فالاعتراف بأن رجال المقاومة هم الزعماء الشرعيون لثلثى رعاياه (بما فيهم من يخضعون للحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية) كان من شأنه أن يدمر اساس حكمه تماما، فبالنسبة لحسين فى ذلك الوقت كان الفلسطينيون فى الضفتين الشرقية والغربية مواطنين اردنيين وأنه حاكم لهم.

وكان الكثيرون من الأردنيين يراقبون بروز رجال المقاومة، بشيء من الفزع، ورأوا فيهم تهديدا محتملا سوف يزداد خطورة ما لم تتم السيطرة عليهم بسرعة، ومنذ البداية ومستشاروا الملك وقادة جيشه وحتى أخوه الحسن، ولى العهد، يحثونه على الحد من تواجد رجال المقاومة ومن نطاق أنشطتهم كذلك حرض الامريكيون على الحد من نشاط رجال المقاومة ووقع الاختيار على والمريكيون يشجعون الأردن على ارسال ضباط جيشه إلى الولايات المتحدة للتدريب على مقاومة التمرد فأرسل معظمهم إلى «فورت

فراج» بشمال كارولينا بينما تلقى غيرهم تدريبا مماثلا فى تايوان، فى هذه الاثناء تمكن أعضاء المخابرات من التسلل إلى صفوف معظم منظمات المقاومة ولا سيما جماعة تدعى «كتائب النصر» وقد أسهمت فى تيسير هذه العملية معركة الكرامة التى وقعت فى نوفمبر من عام ١٩٦٨ التى اكتسب رجال المقاومة على اثرها سمعتهم ودفعت الآلاف من المتطوعين إلى طلب الانضمام ووافقت المقاومة على انضمامهم لصفوفها دون أن تتمكن من التحقق من أغلبيتهم، مما مكن ضباط المخابرات الأردنية من الانضمام دون مشقة.

ويبدو أن الدور الرئيسى للمخابرات كان يتمثل فى استفزاز الجيش الأردنى ودفعه إلى مجابهة مع رجال المقاومة تسفر عن هزيمة المقاومة وضياع قوتها ومكانتها. وبناء على ذلك، تمكن عناصر المخابرات التى كانت قد تسللت إلى صفوف كتائب النصر من جر الطرفين إلى اشتياك فى نوفمبر من عام ١٩٦٨ . واستدعى الجيش الأردنى للتعامل مع الكتائب، غير أنه انتهز الفرصة المتاحة لضرب المنظمات الاخرى ولم تدع الحكومة إلى وقف اطلاق النار الا بعد ان ادركت مدى قوة المقاومة، وقدمت إلى الطرفين بعض التنازلات وهذا الموقف انتظارا لجولة قادمة. ونشب القتال من جديد فى فبراير عام ١٩٧٠ ، وعندما تفاقمت الازمة تعرض حسين من جديد لضغوط لضرب رجال المقاومة وكانوا قد وحدوا صفوفهم فى منظمة التحرير الفلسطينية التى تسيطر عليها فتح، والواقع أن حسين كان اكثر حذرا واعتدالا من مستشاريه وكان يأمل التوصل إلى نوع من التسوية مع عرفات، لكن بينما كان الملك يواجه صعوبة كبت جماح مؤيديه كان زعيم منظمة التحرير الفلسطينية يواجه مشاكل مع حبش وحواتمة. فكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تحث على الدخول فى معركة مع النظام منذ فترة، وكانت تعتقد، وربما على حق، فى النصف الاول من عام ١٩٧٠ كان يمكن للمقاومة هزيمة الأردنيين غير ان عرفات الدبلوماسى رفض الاستيلاء على

الحكم واصر على محاولة التوصل إلى اتفاق مع الحكومة، وكان يعتقد انه لو تسنى للفدائيين هزيمة حسين فان الاسرائيليين، بتأييد من الامريكيين سيتدخلون ضدهم. وجاء رد فعل حبش بان دفع إلى نشوب ازمة جديدة فى يونيو عام ١٩٧٠ عندما احتجز رجاله ٨٠ ضيفا «بفندق انتر كونتننتال» فى عمان كرهائن، ومع ذلك ظل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية يرفض التحرك فما كان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى اوائل شهر سبتمبر ان جعلت الحرب الاهلية امرا مؤكدا عندما افلحت فى اختطاف اربع طائرات دولية ونسفت ثلاث منها فى مطار صغير بشمال الأردن.

استشاط عرفات غضبا واوقف عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وحمى غضب حسين واحس بالمهانة لحدوث مثل هذه الانتهاكات فوق ارضه وعجز عن الحيلولة دونها، ومع اصرار قادة جيشه على القتال ادرك الملك انه لا سبيل الآن إلى تجنب المواجهة، هذا فضلا عن انه بات الآن اشد قوة واكثر ثقة عن ذى قبل. وكانت دبلوماسية عرفات واستعداده الدائم للتفاوض قد زودا حسين بفسحة من الوقت لتدعيم مركزه فتمكن من استبعاد الضباط الموالين للفلسطينيين فى الجيش، كما ان تطرف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حول الكثيرين ضد المقاومة، وجعل الرأى العام اكثر تأييدا للملك. وفى شهر سبتمبر كان الملك فى مركز اقوى بكثير عما كان عليه فى فصل الربيع.

وفى السابع عشر من سبتمبر اطلق العنان لجيشه ليهاجم مخيمات اللاجئين فى عمان واندلعت الحرب. حقق الفدائيون فى بادىء الامر بعض الانتصارات فى الشمال واستولت الجبهة الديمراطية الشعبية، بقيادة حواتمه، على مدينة اريد، التى اطلقوا عليها «اول سوفييت عربى» وشكلوا «مكتبا سياسيا» لادارتها. ثم قامت دبابات سورية ضخمة، بعد ذلك بيومين بغزو البلاد لتدعيم المقاومة وشعر الكثيرون من الأردنيين،

بما فيهم الملك، انهم سيهزمون، وشرعت اسرائيل والولايات المتحدة فى خطط طارئة لشن هجوم على منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها السوريين ولكن سرعان ما بدأ رجال المقاومة وبصورة غير متوقعة، يفقدون زمام المبادرة،، السبب الرئيسى فى ذلك هو ان مؤيدهم العرب لم يكونو على استعداد لمساعدتهم، فمنذ بداية الازمة تعهد العالم العربى كله تقريبا بتأييد المقاومة. ففى مصر كانت اذاعة القاهرة تندد بحسين بصفة مستمرة بينما أمره الرئيس عبد الناصر أن يطير إلى القاهرة لتوضيح تصرفه، أما العراق الذى لم يكن اقل من القاهرة سخطا، فقد اتيحت له فرصة طيبة للتأثير على سير القتال، حيث كان يرابط على الاراضى الأردنية ١٢٠٠٠ جندى عراقى لمساعدة رجال المقاومة ضد اسرائيل. وناشدهم عرفات الذى كان قد تأكد من تأييدهم، اثر زيارة قام بها مؤخرا لبغداد، الانضمام إلى المعركة، لكن الحكومة العراقية التى كانت على استعداد ان تشجع كل من يقاتل حسين وان كانت غير مستعدة للقيام بذلك بنفسها، سحبت قواتها إلى ارض الوطن.

وكان هناك عامل آخر من عوامل الفشل تمثل فى مسلك السوريين، فلو ان النظام السورى ساند رجال المقاومة باخلاص لما كان هناك شك فى الاحاطة بحسين، لكن حكومة دمشق كانت منقسمة على نفسها ولم تكن على يقين مما ستفعل، ولم تكن الاوامر قد صدرت إلى قوة الدبابات للتحرك داخل الأردن بناء على تعليمات من الحكومة، وانما قامت بارسالها احدى الجماعات المتنافسة برئاسة اللواء صلاح نجيب، وقد تم ذلك دون موافقة اللواء حافظ الاسد وزير الدفاع. وكان الاسد، الذى اصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية يعارض عملية الغزو اعتقادا منه بانها من المؤكد ان تندفع اسرائيل إلى التدخل وربما تؤدى إلى حرب واسعة النطاق، وعلى الرغم من انه لم يستطيع منع الدبابات من دخول الأردن فانه تمكن من منع السلاح الجوى من توفير غطاء جوى للدبابات، ومن ثم استطاع الجيش الأردنى، الذى جانب الجانب الآخر

يفوقه عددا فى الشمال، وقف الغزاة حتى وصل السلاح الجوى الأردنى إلى ميدان المعركة ودمر معظم الدبابات السورية. وعندما عادت بقايا قوة الغزو إلى سوريا كانت الحرب تشرف على النهاية وكانت مهمة حسين الوحيدة الباقية هى تطويق قواعد المقاومة فى بقية البلاد– وهى عملية طلبت منها قواته فى شهر يوليو بصورة شاملة وبعنف، وفى خريف ١٩٧١ لم يبق فى الأردن اى رجال للمقاومة.

لقد اظهرت الحرب الاهلية الأردنية للفلسطينيين انهم، فى ضوء التحليل النهائى، لا يستطيعون الاعتماد على احد من اصدقائهم فى العالم العربى، فقد وقفت مصر والعراق وغيرهما تهلل من بعيد ولكنها لم تجروء على التدخل، بينما كانت مساعدة سوريا عديمة الجدوى، واخيرا ادرك الكثيرون من الفلسطينين ان شن حرب العصابات على النمط الجزائرى لم يكن ممكنا لانهم ما من دولة عربية مستعدة لان توفر لهم قاعدة ينطلقون منها والاستعداد على ما يمكن ان يترتب على ذلك من جانب اسرائيل ولذلك اتجه بعضهم للعمل سرا وآثروا شن حملات مختلفة من الارهاب السرى وبدأت منظمة تعرف باسم «ايلول الاسود» وقد سميت بالشهر الذى نشبت فيه الحرب الأردنية، الانتقام من كل من اعتبرته عدوا للثورة الفلسطينية. وفى نوفمبر عام ١٩٧١م وجهت اولى ضرباتها، ولم تأسف قلة من الفلسطينيين على ان يكون أول ضحاياها وصفى التل، رئيس الوزراء الأردنى الذى تولى توجيه الحرب.

فى عامى ١٩٧٠م و١٩٧١ تعرضت منظمة التحرير الفلسطينية لاقصى هزيمة عسكرية ومع ذلك استطاعت ان تبقى كمنظمة بل وان تعزز من مكانتها فى الاعوام التالية، ولعله كان يتفق والاوضاع السائدة ان يمنع العالم العربى دائما المقاومة من ان تصبح قوة عسكرية خطيرة فى الوقت الذى يسمح لها فيه بان تكون عاملا سياسيا رئيسا فى المنطقة. ففى ربيع عام ١٩٧٢ وبعد أقل من عام من انتصاره الساحق على

المقاومة رفض العالم العربى محاولة حسين المطالبة من جديد بالضفة الغربية كما رفض العالم العربى بالاجماع تقريبا مشروعه الخاص باقامة مملكة عربية متحدة تقوم على اساس فيدرالى ويكون لها عاصمتان اقليميتان فى القدس وعمان. وكانت منظمة التحرير الفلسطينية رغم ما لحق من قواتها من شبه ابادة فى ميدان القتال، لا تزال تتمتع بولاء الدول العربية. وفى عام ١٩٧٤، فى مؤتمر القمة الذى عقد فى الرباط فانه حتى حسين ارغم على الاعتراف بما احرزه الفلسطينيون من انتصار سياسى واقر بقية الدول الاعضاء فى الجامعة العربية بان منظمة التحرير الفلسطينية هى «الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى»

لم تكن الأردن سوى اول دولة عربية تدخل فى مواجهة عسكرية شاملة مع منظمة التحرير الفلسطينية، فقد اعقبها فى ذلك لبنان وسوريا، وسنتناول بالوصف ما قام بينهم من نزاع فى الفصول التالية. غير ان الكثيرون من الفلسطينيين يرون ان اكبر خيانة جاءت من مصر التى كانت اول دولة عربية تتخلى عن القتال من اجل فلسطين وتعقد صلحا مع اسرائيل.

وعلى الرغم من ان الرئيس المصرى انور السادات لم يوقع على المعاهدة المصرية الاسرائيلية حتى عام ١٩٧٩ فانها كانت تتويجا لسنوات عديدة من الدبلوماسية. وهناك من يرى ان عملية السلام بدأها سلفه جمال عبد الناصر فى عام ١٩٦٧ عندما وافقت مصر على قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة رقم ٢٤٢، ومن ثم منحت اسرائيل اعترافا ضمنيا مشروط بابرام معاهدة صلح وان لم يكن محتملا ان عبد الناصر كان سيذهب إلى حد عقد صلح منفرد مع اسرائيل. وكان اللاجئون الفلسطينيون منذ الخمسينات يتطلعون إلى عبد الناصر من اجل تحرير بلادهم بيد انه من غير المحتمل ان عبد الناصر قد فكر جديا ذات يوم فى غزو اسرائيل وبات واضحا بعد عام ١٩٦٧ انه

لم يكن يهتم الا باستعادة الاراضى التى تم احتلالها فى حرب يونيو وتحقيق العدالة للاجئين– فقبوله لمقترحات السلام الامريكية فى عام ١٩٧٠ برهن على انه ليست لدية مخططات حول اسرائيل نفسها، فقد كان يرغب فى الصلح مع اسرائيل على اساس حدود ما قبل عام ١٩٦٧ وظل هذا هدفا اساسيا لأنور السادات عندما تولى الرئاسة عند وفاة عبد الناصر. وفى اوائل عام ١٩٧١ ابلغ جوزيت سيسكو، مساعد وزير الخارجية الامريكية الاسرائيليين انهم (اى السادات) يرغب فى الاتفاق مع اسرائيل ولكنه اتفاق يتسنى له الدفاع عنه وتبريره امام العرب.

وفى اكتوبر من عام ١٩٧٣ شنت مصر وحلفاؤها السوريون هجوما على القوات الاسرائيلية فى سيناء ومرتفعات الجولان، بيد انها كانت حربا سياسية بقدر ما هى حرب عسكرية واستهدفت تحقيق اهداف محدودة. فكان هدف السادات هو استرداد الاراضى المحتلة سواء عن طريق القتال او المفاوضات التى تعقب الحرب بين كافة الاطراف إلى جانب الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. وعلى الرغم من الفضل فى تحقيق هدفه فقد كان يصر انه لن يكون هناك «مزيد من الحروب» وانه من الممكن حل النزاع العربى الاسرائيلى عن طريق الدبلوماسية. وكان يعتقد انه اذا ما مضت الدول العربية التى تؤيدها روسيا فى قتال اسرائيل التى تحظى بمساندة امريكا فلن يمكن احراز أى تقدم وان الشيء الحيوى بالنسبة للعرب هو كسب الصداقة الامريكية حيث ان الولايات المتحدة الدولة الوحيدة فى العالم القادرة على ممارسة ضغط على اسرائيل للتخلى عن الاراضى العربية.

ان استعداد مصر لان تسبق الدول العربية فى الوصول إلى حل للمسألة الفلسطينية يرجع إلى حد كبير إلى اعتبارات داخلية. فكانت مصر طيلة القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين واحدة من اكثر دول الشرق الاوسط بعد اليمن الشمالية

واليمن الجنوبية. وكانت القاهرة فى السبعينات من اشد دول العالم فقرا وكادت ان تضاهى كلكتا فى الازدحام بالسكان، ويعيش اكثرية سكانها البالغ عددهم تسعة ملايين نسمة فى حالة مروعة من القاطة دون ان يجدوا ما يكفى قوتهم، وقامت فى ١٩٧٧ اضطرابات الخبز التى راح ضحيتها عدد كبير من افراد الشعب، وبينما ماتعانى منه مصر من فقر ينسب اساسا الى الزيادة الكبيرة فى السكان التى تعذر على المساحة المحدودة لاراضى وادى النيل ان تعولها، كان من الواضح ان الجيش العامل المهول اللازم لمحاربة اسرائيل يستنزف جانبا كبيرا من موارد البلاد، وزاد مما تعانيه من فقر استيلاء اسرائيل على سيناء وفقدان ان الدخل نتيجة لاغلاق قناة السويس وغارات القصف التى شنتها اسرائيل فى عام ١٩٧٠ والتى اسفرت عن تدمير مدن منطقة القناة ومدن وقرى الدلتا.

كانت الطبقات التجارية،التى ترى فى الالتزام العسكرى الضخم والتحالف القوى مع الاتحاد السوفيتى(الذى كان لديه ٢٥ ألف خبير يرابطون فى مصر قبل عام ١٩٧٢) ما يحول دون عودة الرخاء، اول من طالبوا بالانسحاب من الصراع العربى الاسرائيلى واقامة علاقات اوثق مع الامريكين. لكن كان هناك شعور سائد فى جميع انحاء مصر بأن البلاد بذلت الكثير من اجل الفلسطينين ويتعين عليها الأن الاهتمام بمصلحتها الخاصة. وشكى الناس من أنه قد تمت التضحية بمصلحة اربعين مليون مصرى من اجل مليونى لاجيء ينعم الكثيرون منهم بما هو أفضل من حياة المصريين انفسهم. لقد قادت الدولة العالم العربى وشاركت فى المحاولات القومية الكبرى مثل حرب فلسطين والوحدة مع سوريا والدفاع عن الثورة اليمنية- وكل ما نتجحت فى تحقيقه هو انهيار اقتصادها. وكان الزعم هو ان مصر قدمت تضحيات جسيمة من اجل العالم العربى، بما فى ذلك الفلسطينيون ولم تحصل على مقابل يذكر. وحتى دول النفط الغنية قد برهنت بصورة تدعو للدهشة على شحها الشديد فى مساعدة المصريين

فى التغلب على مشاكلهم الاقتصادية.

عندما قام السادات بزيارة القدس فى اواخر عام ١٩٧٧ أيدته غالبية كبيرة من ابناء بلده، فقد كانوا يعتقدون انه ليس امامهم من خيار سوى عقد صلح وأيدوا محاولة زعيمهم فى تحقيق ذلك وكتب المؤلف المسرحى يوسف ادريس: «اننى اؤيد مبادرة السادات المصرية الشعبية السلمية، وهو موقف قد لا يعيبه اشقاؤنا العرب......ونحن فى مصر لا نملك وسائل الرفض او الحرب فالرفض يحتاج الى اقتصاد قوى يمكنك بأن تقول لا دون الموت جوعا، أو تعريض نسائك وبناتك للدعارة لشيىء من الخبز»

والواقع ان رد فعل الاشقاء العرب للمبادرة كان سيئا فاتهموا السادات بالخيانة وبالانانية فى محاولة استرجاع اراضيه على حساب العرب الأخرين وحمى غضبهم اكثر باتفاقيات كامب ديفيد التى تم التوقيع عليها فى سبتمبر ١٩٧٨، ثم معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية بعدها بستة أشهر.كانت هذه بالنسبة للفلسطينيين تمثل الخيانات العظمى ان تقوم اكبر دولة عربية، وكانت يوما من الايام مثلا اعلا للوحدة العربية، بعقد صلح مع اسرائيل بينما لايزال كل شبر فى فلسطين فى ايدى الصهاينة— كانت هذه بالنسبة لهم تمثل خيانة وضربة قاضية توجه الى قضية القومية العربية. اذ كان ذلك، من ناحية يمثل نكسة للفلسطينيين أشد سوءا من هزائمهم الأردنية واللبنانية فى اوائل العقد لانهم بينما كان الرئيس الاسد يهاجم بعنف منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٧٦ ظل متفقا مع موقفها السياسى الرئيسى. لقد اختلف مع عرفات بشأن السيادة الفلسطينية فى لبنان لكنه أيد سياسة عرفات بالنسبة لفلسطين ذاتها وهى: الانسحاب الاسرائيلى من الاراضى العربية المحتلة فى عام ١٩٦٧ ، بما فيها القدس الشرقية وحق تقرير المصير للفلسطينيين.

بدا الرئيس السادات للفسطينيين وقد تخلى عنهم كلية، وعندما ادلى السادات

بخطابه فى الكنيست الاسرائيلى لم يشر إلى منظمة التحرير الفلسطينية ولم تتضمن الوثائق التى وقعها فى كامب ديفيد وواشنطن اى دور للمنظمة، التى وافق فى وقت سابق بالرباط على انها «الممثل الشرعى الوحيد» للشعب الفلسطينى. ان توقيعات السادات لم تعط شيئا للفلسطينيين باستثناء التزام اسرائيلى بمنح الحكم الذاتى لسكان الضفة الغربيةوغزة – وهو التزام تنكرت له اسرائيل فيما بعد فضلا عن انها اغفلت بالفعل معظم المسائل الهامة كمسألة اعادة توطين لاجئى ١٩٤٨ ومستقبل القدس.

وراح الفلسطينيون يراقبون السادات وهو يتخلى عن حقوقهم بدهشة. فلقد كانت فلسطين دائما قضية عربية وعلى حين غرة وجد الفلسطينيون الدولة العربية الرائدة تنفض يديها طواعية عن وطنهم. أما بالنسبة للاجئين فى كافة ارجاء الشرق الاوسط فكانت الضربة اشد اضعافا لروحهم المعنوية من أية ضربات اخرى. فقد كان الامل الذى راود الذين لم يروا فلسطين منذ ثلاثين عاما هو العودة إلى ديارهم فى يوم من الايام «ان لم يكن فى الحرب القادمة وفى الحرب التى تليها اوتلك التى تليها......» عندما يتحقق النصر للعرب فى نهاية المطاف، ولكن عندما وقع السادات على المعاهدة فى واشنطن، وجالس، عن طيب خاطر، الرئيس كارتر ورئيس الوزراء الاسرائيلى على المروج الخضراء فى البيت الابيض بدد بذلك آخر امل كان يراود على الاقل الطاعنين فى السن الفلسطينين.

الفصل الثالث

لبنان والفلسطينيين

كان لبنان حتى عام ١٩١٧ ، لايزال حزءا من الامبراطورية العثمانية شأنه فى ذلك شأن فلسطين، فكان يعتبر جزءا من المنطقة المعروفة بسوريا الكبرى، كما كان، مثل فلسطين، مطمعاً لقوة خارجية، وفى نهاية الحرب العالمية الأولى جرى بحث مستقبل القطرين بنفس الأسلوب تقريباً، ووجدت فى الحالتين إعداد غفيرة من الوطنيين العرب ممن أرادوا أن يظل قطرهم مستقلاً وعربياً وفى كلتا الحالتين كانت هنالك دولة غربية تواقة إلى فرض سيطرتها لمصلحتها الخاصة ولمصلحة محمية لها بعينها، وفى فلسطين، تعهدت بريطانيا بإقامة وطن قومى يهودى للصهاينة، فى لبنان أصرت على أقامة دولة موالية للفرنسيين تهيمن عليها حليفتها القديمة، الطائفة المارونية الكاثوليكية.

وكان السنيون، حتى مطلع القرن العشرين، أهم الطوائف الدينية فى المنطقة، وكان طبيعيا أن يكونوا، وهم على نفس مذهب الحكام العثمانيين ويشكلون الغالبية فى سوريا الكبرى، أقوى الجماعات وأكثرها تمتعا بالأمتيازات أما السنيون فى الأقليم الذى عرف فيما بعد بلبنان فكانوا دائماً يعتبرون أنفسهم جزءا من منطقة ثقافية وسياسية واسعة، وكانت ارتباطتهم مع دمشق والمناطق الداخلية السورية أوثق منها مع منطقة جبل لبنان الأقرب، وإن تكن المعادية فى غالب الأحيان، التى هى موطن المارونيين والدروز، ومن المتوقع أن يكون من أشد المؤيدين لهدف القومية العربية حماسا منذ سنوات إنهيار الأمبراطورية العثمانية.

وهناك طائفة واحدة لم تظهر قط الولاء للأمبراطورية العثمانية ولا حماسا للوطنيين العرب وهى طائفة الموارنة الكاثوليك. كانت هذه الطائفة متأصلة فى جبل

لبنان ولم تكن على استعداد لأن تفقد وضعها شبه المستقل التى كانت تتمتع به فى ظل العثمانيين، وعلى الرغم من أن الموارنة كانوا يتمنون، ولا شك، التخلص من الأتراك فإنهم لم يكونو يريدون أن تبتلعهم سوريا الكبرى ويذوبون فى أمبراطورية عربية يهيمن عليها المسلمون .

ويعتبر الموارنة، وهم طائفة جبلية لا تشكل سوى نسبة ضئيلة من سكان الساحل، أكثر شعوب الشام استقلالية، ومن المؤكد أنهم لم يكن لهم أرتباط ثقافى أو تاريخى يذكر بالطوائف المسيحية الصغيرة فى المدن الساحلية. وفقا لما ذكره اصطفان الدويحى، وهو بطريرك مارونى من القرن السابع عشر «فإن تاريخ الطائفة المارونية يعد نضالا متواصلاً من أجل الحفاظ عل شخصية قومية فى بيئة يهيمن عليها المسلمون (وتصدق هذه الملاحظة اليوم وإن كان يجب أن نضيف إليها إن الأساليب المارونية لحماية هذه الشخصية غالباً ما تتسم بالأستفزاز) فهى طائفة واعية جداً بتاريخها ولاتزال تذكر المحاولات المتكررة من جانب البيزنطيين والمماليك والعثمانيين الرامية للسيطرة عليها» .

ومن ثم فإن الرمزية الدينية والتاريخية تلعب دوراً هاماً بين صفوف الطائفة، فعلى سبيل المثال، تحمل ميليشيات الحرب الأهلية التابعة لها القابا دينية غريبة لتعيد إلى الأذهان الحملات الصليبية مثل: فرسان العذراء وخشبة الصليب وشباب القديس مارون وغيرها. وقد خاض الكثيرون منهم المعركة وهم يعلقون صلبانا ضخمة على الزى العسكرى .

وبسبب عزلتهم المحلية اضطر الموارنة إلى البحث عن حلفاء فى أماكن أخرى ووقع أختيارهم على أوروبا وخاصة فرنسا. ويرجع أهتمام فرنسا بالمنطقة إلى عهد شارلمان. وفى عام ١٢٥٠ كتب لويس الحادى عشر يقول: «نحن على يقين من أن

هذا الشعب الذى سمى بأسم القديس مارون يعتبر جزءا من الشعب الفرنسى» وعلى الرغم من عدم وضوح الأساس الذى أقام عليه لويس الحادى عشر زعمه، فإن الفرنسيين صدقوه وأوجز لامارتين، مشاعر الكثيرين من أبناء وطنه عندما وصف لبنان «بأنها مستعمرة فرنسية رائعة فى أنتظار فرنسا». ومن المؤكد أنه أبتداء من القرن السادس عشر عندما تم توقيع معاهدة بين فرنسيس الأول وحليفة سليمان العظيم يعتبر الموارنة فرنسا الحامية لهم ويصفونها «بالأم الحنون» .

استعذب الفرنسيون الدور وغالبًا ما كان قنصلهم فى بيروت، أبتداء من عام ١٦٥٥، شيخا مارونيا، وفى غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذ الموارنة يعتمدون أكثر فأكثر على الفرنسيين الذين قاموا فى عام ١٩٦٠ بحملة عسكرية لأعادة النظام بعد قتال واسع النطاق بين الموارنة والدروز. وكانت العلاقة بين المورانة وفرنسا وثيقة إلى حد أن أعرب بطريرك الموارنة فى عام ١٩١٥عن أمتنان بلاده من فرنسا جهاراً، رغم حقيقة أن لبنان، بأعتبارها جزءا من الأمبراطورية العثمانية كانت فى حرب مع الجمهورية الفرنسية .

وعندما أحتل الفرنسيون الأقليم فى عام ١٩١٨ أعلن القائم بالأعمال الفرنسى على الملأ أن السبب الرئيسى لتواجد الفرنسيين هو حماية أصدقائهم الموارنة .

هكذا كان الموقف المارونى يحكمه عاملان: تاريخ مضطرب عنيف وصداقة مع فرنسا. واسفر هذان العاملان عن العقيدة المارونية أو «النزعة اللبنانية، وتقوم على تأكيد النزعة الفردية والأكتفاء الذاتى ورفض الأسلام والعالم العربى والأرتباط الوثيق بالغرب وبعض القيم الغربية والأصرار على بقاء لبنان بلدا مسيحيا ديمقراطيا فى قلب الشرق الأوسط .

لقد ترك إنهيار الأمبراطورية العثمانية وراءه الطائفتين الدينيتين الرئيسيتين فى

الشام فى حالة من العداء العقائدى المتزايد، فكان مفهوم السنيين للقومية، فى اطارها العربى الشامل أبعد ما يكون عن الهدف المارونى المتمثل فى أقامة دولة صغيرة موالية للغرب تحت سيطرة المسيحين، مما جعل التوصل إلى حل وسط أمرا مستحيلا. وكانت لجنة الملك كرين التى بعث بها الرئيس ويلسون فى أعقاب الحرب العالمية الأولى تميل بشدة إلى وجهة النظر القومية العربية وأوصت بالحفاظ على وحدة سوريا ومنح قدر من الحكم الذاتى للموارنة والدروز داخل دولة قومية سورية. ومن المؤسف أن الدولة الغربية المنتصرة لم تعر التقرير أى أهتمام بل تجاهلت أعلان أعضائها بإن آخر ما تبتغيه الغالبية العظمى من الشعب هو الخضوع لأى نوع من السيطرة الفرنسية وفى نفس الوقت بعث الموارنة بوفود إلى مؤتمر الصلح الذى عقد بفرنسا للمطالبة بإنتداب فرنسى على لبنان. فقد كانوا يدركون إنهم بحاجة إلى الفرنسيين بقدر ما الفرنسيون فى حاجة إليـهم. فـهم بذلك يكونون بمأمن من مطامع القـوميين العرب فى مـقـابل أن يوفروا لفرنسا تأييدا يمكنها الأعتماد عليه إذا حدث وأستعدت بقية السكان بسبب معارضتها للقومية العربية، وفى سان ريمو نجح التحالف الفرنسى المارونى وعرض على فرنسا فى إبريل ١٩٢٠ الأنتداب على سوريا ولبنان. كانت أقامة «لبنان الكبرى» أول وأهم ما قام به الفرنسيون من أعمال، لقد كان قراراً مدمراً لأن الحدود التى رسمها الفرنيسون كانت حدوداً مصطنعة تماماً إذا لم يكن لها أساس تاريخى. كذلك لم تضع فرنسا فى الأعتبار العوامل الثقافية أو الأقتصادية عند تحديد هذه الحدود، فكان قراراً سياسياً خالصاً لم يراعى غير مصالح الفرنسيين والموارنة، ومن ثم جعل نشوب حرب أهلية أمراً مؤكداً .

وفى المطالب التى تقدم بها الدول الغربية طالب الموارنة، بالإضافة إلى جبل لبنان بمنطاق أخرى من لبنان الحديث تشمل وادى البقاع ومنطقة عكار فى الشمال وصور صيدأ فى الجنوب وأهم مينائين: بيروت وطرابلس وكان هدفهم أقامة دولة مستقلة

يمكنها البقاء وتسيطر عليها الطوائف المسيحية ومع ذلك فأن إضافة هذه المناطق أكذ فى واقع الأمر آن المسيحيين أصبحوا أقلية على المدى البعيد، لأنه بينما كان الموارنة غالبية فى جبل لبنان نفسه، أصبحوا يشكلون أقل من ثلث سكان لبنان الكبرى، لأن المناطق الجديدة التى أصروا عليها كانت تضم غالبية مسلمة. لقد كان هذا التوسع منطقياً من الناحية الأقتصادية لأن جبل لبنان فى حد ذاته لا يمكنه تحقيق الأكتفاء الذاتى ويعد سياسة قصيرة النظر لو أننا حكمنا عليها بمعايير أخرى حيث أن الوطنيين العرب رفضوه بشدة وطالبوا بأتحاد فيدرالى مع سوريا المزقة.كان إستياء الوطنيين العرب من بينهم أعداد غفيرة من اليونان الأرثوذكس وغيرهم من الطوائف المسيحية والسنيون والمسلمون غير المتشددين – وشعورهم بخيبة الأمل، وقد وجدوا أنفسهم فى دولة ذات صبغة غربية تعذر عليهم الأندماج فيها هو العامل الأساسى الذى يتحكم فى السياسة اللبنانية منذ عام ١٩٢٠، والسبب الرئيسى للحرب الأهلية برمتها بما فى ذلك الحرب التى نشبت فى عام ١٩٧٣.

لقد بدت السياسة الفرنسية طيلة فترة الأنتداب، كما لو أنها عاقدة العزم على إتمام الأنقسام بين البنانين الذين يتطلعون إلى الغرب وأولئك الذين ظلت ثقافتهم ووجهات نظرهم عربية، ومضى السنيون فى إنكار الشريعة الجديدة والقلة منهم هى التى أمكن أقناعها للقيام بدور حكم البلاد، وكثيراً ما طالبوا بضم المناطق الأسلامية إلى سوريا، وفى مرات عديدة، ولاسيما فى عام ١٩٣٦، وقعت أعمال العنف فى طرابلس وبيروت بين مؤيديهم والجماعات المارونية وأصبحت تسمى نفسها بالوطنيين اللبنانيين.

وبعد أن آستولى البريطانيون وقوة من الفرنسين الأحرار على السلطة فى لبنان من حكومة فيشى فى ١٩٤١، كان من الممكن أن يفضى تنفيذ أتفاقية ما قبل الحرب من أجل الأستقلال من فرنسا، إلى صراع مباشر لولا حماقة السياسة الفرنسية التى نفرت حتى بعض أصدقائها الموارنة، فإحجام ديجول عن منح الأستقلال وسجنه لأعضاء

مجلس الوزراء اللبنانى الذى أعلن الأستقلال قد أقنع الكثيرين بأن الفرنسيين قد أستنفذوا الأستفادة منهم، فما كان منهم إلا أن قاموا بتشكيل وحدة بين الطوائف اللبنانية لن تتكرر أبداً .

كما حالف لبنان الحظ بوجود زعيمين قادرين على وضع أساس مقبول للتعايش،: بشارة الخورى، الرئيس المارونى الجديد ورياض الصلح، رئيس الوزراء السنى.

أدرك الزعيمان الجديدان آن التعاون بين الطوائف هو السبيل الوحيد الذى حول دون تصدع لبنان، وأنه لا ينبغى السماح لأية طائفة بمعاداة الطوائف الأخرى ولاسيما حول السياسة الخارجية، ولا ينبغى على الموارنة أن يؤيدوا التحالف مع الغرب كما يتعين على السنيين كبت جماح تحمسهم للوحدة العربية الشاملة. كان هذا هو أساس الميثاق الوطنى غير المكتوب بين الطوائف اللبنانية .

وكان الأسلوب الذى اُتبع لضمان عدم حصول أية طائفة على أكثر من نصيبها العادل هو خلق مناصب فى الأدارة لا يشغلها سوى أفراد من طائفة بعينها. فعلى سبيل المثال كان رئيس الجمهورية مارونيا ورئيس الوزراء سنياً ورئيس النواب شيعياً. فكان أول حكومة لبشارة الخورى تضم ممثلين من كافة الطوائف الرئيسية، وأستمر الحال على هذا المنوال منذ ذلك الحين. كذلك أستطاع الخورى أن يوزع المناصب بين المسيحين والمسلمين بعدالة أكثر، ومن ثم أستطاع أمتصاص غضب السنين. لم يكن النظام كاملاً بحال من الأحوال، غير أنه ربما كان النظام الوحيد الممكن آنذاك، إذ وفر للطوائف المسيحية، ولاسيما الطائفة المارونية هيمنة ربما وجدت لها مبرراً فى عددها وتطورها السياسى، مما أدى إلى منحهما إمتيازا يقضى بأن تكون نسبة التمثيل النيابى ٦ :٥، كما عهد إلى الموارنة إلى جانب منصب الرئيس بقيادة الجيش وكتب مدير عام الأمن العام .

ولقد أتبعت هذه السياسة منذ عام ١٩٤٣ وقبل نشوب الحرب الأهلية وهكذا أصبحت الطائفية المبدأ الأساسى فى الحياة اللبنانية، ومع ذلك فشلت فى حل مشكلة للبنان، وأن كان على أحسن الفروض، قد خففت من حدتها، ولاتزال المشكلة التى خلقها الأنتداب الفرنسى قائمة وهى: هل يتجه لبنان إلى الشرق أم الغرب؟ وعلى الرغم من حكومة بشارة الخورى التوفيقية ظلت الشكوى بين الموارنة والوطنيين العرب قائمة لكن الموارنة قد فقدوا حمياتهم، وعلى الرغم من النهج الذى كانوا يحكمون به لزم الكثيريون منهم على رحيل الفرنسيين، أما الوطنيون العرب فعلى الرغم من أنهم تقبلوا بصورة أو بأخرى توسيع نطاق الحدود اللبنانية فى عام ١٩٢٠ فأنهم لم يحققوا سوى القليل من أهدافهم، وظل الموارنة يسيطرون على الدولة فهم منحازون سياسياً للغرب ولا يبدون أهتماماً يذكر بقضايا الدول العربية الأخرى، هذا فضلاً عن أن أمال الوطنيين فى أن تتمكن جامعة الدول العربية التى تأسست فى أعقاب الحرب العالمية الثانية من تحقيق درجة من الوحدة العربية، سرعان ما تبين أنه درب من الأوهام.

وفى حين أن سلسلة من العوامل الجديدة قد أدت إلى تعقيد السياسات اللبنانية خلال الخمس والعشرين عاماً الماضية، ظل الصراع بين الوطنيين العرب والموارنة الذى إحتواه الميثاق الوطنى وأن لم يضع له حدا أساس مشكلات البلاد. ومع ذلك حدث مرة واحدة قبل عام ١٩٧٥ إن النظام الطائفى قد أنهار تماماً وأستقطبت البلاد خلف المؤسسات المارونية والسنية، كان ذلك فى عام ١٩٥٨ ، عندما وافق كميل شمعون، رئيس الجمهورية وقتئذ، على مبدأ ايزنهاور وسعى إلى دفع لبنان إلى التحالف مع الغرب، مما كان يشكل، بطبيعة الحال، إنتهاكاً لأول مبادئ الميثاق الوطنى، إلى جانب كونه صفعه توجه إلى الوطنين العرب. وكان الوطنيون حينذاك قد أزداد غضبهم من جراء تلاعب الحكومة فى أنتخابات عام ١٩٥٧ ، مما أدى إلى أستبعاد معظم الزعماء الوطنيين من البرلمان وأعتزام شمعون تعديل الدستور بما يمكنه من تولى منصب

الرئاسة لفترة ثانية. كان من الصعب فى غمرة الحماس الشديد للوحدة العربية الشاملة فى عام ١٩٥٨ أن يظل الوطنيون بدون إكتراث وجاءت ثورتهم المتوقعة. كان عبد الناصر بطلهم وأخذ الزعيمان السنيان صائب سلام ورشيد كرامى، يرددان صراحة تصريحات الرئيس المصرى حول الوحدة العربية الشاملة، لكنهما كانا يدركان أنهما لايستطيعان المضى مع عبد الناصر على طول الخط حيث أن ظروف لبنان الخاصة تتطلب تقرير كل شئ للتوصل إلى الحل الوسط عندما أنهت السياسة الحكيمة للرئيس الجديد الجنرال شهاب الثورة عاد لبنان إلى سياسيته السابقة فى أقامة علاقات صداقة وليس تحالفا مع الغرب وأقامة تحالف وليس وحدة مع الدول العربية .

ولعل المؤسسة السنية راعت الطبيعة الخاصة للبنان ولكن هناك الكثيرين لا يراعون ذلك وبصورة متزايدة. وتقبل مسئولية ذلك من ناحية على الوضع الأجتماعى– فبينما كانت ثروة البلاد تنمو بسرعة ظلت مستويات معيشة الكثيرين على ما هى عليه، وأن نسبة ضئيلة من هذه الثروة وجدت طريقها إلى المناطق المتخلفة، وأدى الأفتقار إلى وجود نظام للرعاية إلى ترك الأعداد المتزايدة من سكان المدن – وأكثريتهم مهاجرون من الريف – دون مسكن أو خدمات أساسية. وبدأ الجيل الجديد للوطنيين، بالهام من عبد الناصر، يطالب بنصيب عادل من السلطة السياسية والثروة. وراح يتساءل لماذ يحتفظ المسيحيون بأغلبية مقاعد البرلمان فى الوقت الذى يعلم فيه الجميع أنهم أصبحوا الأن أقلية فى البلاد؟ ولماذا يشغل الموارنة أهم المناصب وما السبب فى أن الأغلبية الساحقة من ضباط الجيش مسيحيون؟ .

وإلى جانب المشكلة الأجتماعية كانت هناك مسألة الفلسطنيين الذين كانت مصالحهم تلتقى مع مصالح الوطنيين فى نواحى كثيرة. لقد كان النصر الذى حققته إسرائيل فى عام ١٩٦٧ مهيناً للعرب جميعاً وأنتهى بالأحتلال الصهيونى لاجراء من سوريا والأردن ومصر ولفلسطين بأسرها .

ومنذ ذلك الحين أصبح النضال الفلسطين يعنى بالنسبة للوطنيين العرب ما كان يعنيه نضال عبد الناصر ضد الغرب بالنسبة للجيل السابق، وفى داخل لبنان نفسه لم يكن وضع الفلسطنيين يختلف كثيراً عن وضع المسلمين الفقراء، فكان كلاهما يعيش فى الأحياء القذرة المقذذة التى تحيط بالعاصمة، كما عانوا معاً فى الجنوب من الغارات التى تشهنا إسرائيل .

فى أواخر الستينيات أرتبط الكثيرون من الزعماء السنيين القدامى بالنظام الحاكم لدرجة أنهم فقدوا الكثير من ثقة الجيل الجديد من الوطنيين العرب الأكثر تقدمية، وتولى زعامة الحرب الوطنية كمال جنبلاط، وهو زعيم دروزى كون الحركة الوطنية حول حزبه الخاص المسمى بالأشتراكيين التقدميين وكان هذا الائتلاف غير المنظم والذى لم يكن قد تبلور فى عام ١٩٦٠ عندما أدرك التقدميون أن الزعماء الوطنيين تقليد لم يعودوا قادرين على تحقيق مطالبهم. وكانت الحركة تضم عدداً من الناصريين والجماعات القومية الأخرى والأحزاب الشيوعية والأفرع اللبنانية لحزب البعث السورى والعراقى وغيره .

كان من المتوقع أن يلاحظ الموارنة هذه التطورات بقلق والواقع أنه، فيما يبدو، أعتبروا مخططات الوطنيين وحلفائهم الفلسطينيين أعادة مألوفة للتاريخ، وأعتقد الموارنة مثلما حدث مع البيزنطيين والمماليك أن ثمة خطرا يتهددهم وتصرفوا بنفس طريقة تصرفهم الدائمة وهى رفض التوصل إلى حل وسط. ولقد تأثر موقفهم بشدة بالوضع السياسى داخل طائفتهم حيث فقد السياسيون المعتدلون من أنصار بشارة الخورى والجنرال شهاب دعامتهم وخلفهم زعماء متشددون، وأصبح يقرر بصورة متزايدة السياسة المارونية الرئيس السابق شمعون وكذلك حزب الكتائب بزعامة بيار الجميل وحزب الكتائب، منظمة غوغائية شبه عسكرية تم تشكيلها أثر زيارة قام بها زعيم المنظمة الألمانية النازية لعام ١٩٣٦ .

كانت المسألة الفلسطينية هى السبب فى تجدد الصراع بين الموارنة والوطنيين العرب، ويتألف سكان لبنان الفلسطينيون أساساً من المسلمين السنيين الذين فروا من الجنوب فى عام ١٩٤٨ عبر التلال الواقعة شمالى فلسطين أو هربوا فى زوارق من حيفا. كما حدثت هجرات صغيرة فى عام ١٩٦٧ عقب حرب يونيو، وكذلك عام ١٩٧٠م عندما أرغم الكثيرون من الفلسطينيين على مغادرة الأردن. وفى عام ١٩٧٥ أرتفع عـدد اللاجـئين الأصلى من ١٤٠٠٠٠ لاجئ إلى مـا يزيد على ٣٠٠٠٠٠ لاجئ يقـيم ثلثـهم فى مخيـمـات للاجئين موزعة فى أجـزاء البـلاد. لكن عـدد الفلسطينيين ليس هو الذى أثار المارونيين على هذا النحو بل حقـيقـة أن بيروت قد أصبحت مقراً لحكومة المقاومة الفلسطينية .

وبحلول عام ١٩٧١ كان لبنان هو الدولة الوحيدة الباقية التى يمكن للفدائيين مهاجمة إسرائيل منها فقد الفدائيون فى حرب ١٩٦٧ قواعدهم القديمة فى الأراضى التى كانت تخضع لسيطرة المصريين، وفى عامى ١٩٧٠، ١٩٧١ طرد الفدائيون من الأدرن، وفى سوريا تكاد حريتهم فى الحركة قد قيدت تماماً. لكن فى لبنان حيث الحكومة أضعف من أن تقمع المقاومة سمح للأخيرة أن تعمل كيفما شاءت. وكانت الحكومة اللبنانية قد أشترطت، فى بادئ الأمـر عندما تم تشكيل جيش التحرير الفلسطينى ليكون بمثابة الذراع العسكرى لمنظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٦٤، عدم أقامة قـواعد فى لبنان. وعلى الرغم من ذلك جرى تدريب عدد محدود من الفدائيين فى الأراضى اللبنانية وهو ما سمحت به السلطات لفترة، لكن هذا العدد لم يكن يمكن من شن غارات على إسرائيل من جنوب لبنان. لكن بعد حرب ١٩٦٧ تغير هذا كله. فنظرا للتأييد الشعبى الهائل الذى حظى به رجال المقاومة فى أنحاء العالم العربى كافة وجدت الحكومة اللبنانية من الصعب فرض سيطرتها على المقاومة دون أشارة هجوم شديد من جانب كل الدول العربية الأخرى، ومن أنصار المقاومة

داخل لبنان وشهد عام ١٩٦٨ تزايدا سريعا لنشاط الفدائيين فى جنوب البلاد حتى أنه فى أكتوبر من ذلك العام أصبحت المناوشات بين الفدائيين والقوات الإسرائيلية تقع عدة مرات فى اليوم الواحد .

كان القلق الذى شعر به اللبنانيون مفهوماً، فمن ناحية كان اللبنانييون يخشون الأنتقام الإسرائيلى إذ كان يسود الدوائر العربية أعتقادا بأن إسرائيل طامعة فى منطقة جنوب لبنان المعروفة بحوض الليطانى - وهو أعتقاد عززته ملاحظة الجنرال دايان عقب حرب يونيو ١٩٦٧ بأن حدود إسرائيل أصبحت الآن نموذجية فيما عدا حدودها مع لبنان. وكان هذا فى حد ذاته أحد الأسباب التى جعلت الحكومة اللبنانية حريصة على الأ توفر لإسرائيل ذريعة لغزو البلاد. وحدث أن قرر الإسرائيليون فى ذلك الوقت عدم ضم المنطقة وأكتفوا بالرد بقصف أهداف مختارة بعناية فى لبنان، وكانت أكثر العمليات أثارة تلك التى وقعت فى نهاية عام ١٩٦٨ عندما هبطت قوات بطائرة عمودية بمطار بيروت الدولى نسفت ثلاث عشر طائرة مدنية .

ومن ناحية أخرى كانت السلطات اللبنانية قلقة بحق من أن نشاط المقاومة وما تثيره من غارات أنتقامية من جانب الإسرائيليين أخذ يوسع شقة الخلاف بين الموارنة والوطننين العرب .

فقد كان من الطبيعى أن يتصدى الوطنيون العرب لإسرائيل ويتحملون نتائج ذلك. فلسطين قضيتهم ومن ثم طالبوا برفع كافة القيود المفروضة على تحركات الفدائيين. أما المؤسسة المارونية، ومن جانبها، فقد زعمت بأن لبنان يتجنب عادة الأشتراك فى معارك النضال العربى ودفعت بأنه طالما أن الإسرائيلين هم الأقوى فى المنطقة فأنه عمل أنتحارى المضى فى استفزازهم، ومن سؤ الحظ أن زعماء البلاد بدأوا فى أتخاذ الموقف إلى جانب أو أخر، بل أن رئيس الوزراء السنى فى ذلك الوقت، عبد

الله اليافى، ذهب إلى حد القول جهاراً أنه ينبغى السماح للمقاومة بالحرية الكاملة للقيام بأى عمليات يرغبون القيام بها. وكان لأبد الجانب الآخر، لن تلحق الضرر الأ بالتوازن الطائفى الدقيق الذى أعتمدت عليه البلاد فى بقائها .

أما موقف الجيش اللبنانى فكان مثالاً لمدى حساسية هذا التوازن فلم يشكل الجيش أطلاقاً قوة ثلاثية وكانت قواته وقوامها ١٤٠٠٠ مقاتل تستخدم فى الحفاظ على الأمن الداخلى وليس كجزء من الجبهة العربية ضد إسرائيل، لكنه كان المؤسسة الوطنية الوحيدة التى خرجت من أزمة ١٩٥٨ دون أن تلطخ أو تمس بأذى، وأحتفظ قائدها، اللواء شهاب، بموقف حيادى كامل ورفض الأذعان لأوامر الرئيس بأستخدام الجيش إلى جانب المؤسسة المارونية، وفى الجيش كما هو فى كل شئ آخر فى لبنان تتمثل مختلف الطوائف الدينية، ففى حين أن غالبية الضباط من المسيحيين، وعادة من الموارنة، فأن غالبية الرتب الأخرى من الطوائف الأسلامية. ولا يمكن لجيش، على هذا النحو من التشكيل، أن يستمر إلا إذ أستخدم داخل البلاد بحياد تام، لقد كان شهاب يدرك هذه الحقيقة ومن ثم رفض وضع قواته تحت تصرف لا تمثل سوى وجهة نظر الموارنة .

أما الموقف الذى وجدت الحكومة نفسها فيه إزاء المقاومة الفلسطينية فكان أكثر صعوبة، فبحلول عام ١٩٦٩ كان الفدائيون قد أقاموا عدداً كبيراً من القواعد فى العرقوب، وهى منطقة جبيلة تقع جنوب شرق البلاد، أصبحت تعرف فيما بعد، «بأرض فتح». وزعم الموارنة أن لبنان أصبح عاجزاً الآن عن ممارسة سياسته الشرعية فى هذه المنطقة، ولم يكن هذا الوضع مقبولاً لزعماء الموارنة وكان الكثيرون منهم لا يؤيد القضية الفلسطينية ألا نفاقا بينما يبدون أعجابهم سرا بالكثير فى الدولة الإسرائيلية. واخذوا يطالبون بأستعادة السيطرة اللبنانية على منطقة العرقوب ووضع حد لمناوشات الفدائيين مع الإسرائيليين وكما ذكر بيار الجميل، بشئ من التبرير، فى مؤتمر لحزب

الكتائب: «لو كانت المقاومة قادرة على حماية الحدود أو حماية نفسها أو لو كنا نحن قادرن مع المقاومة بل مع القوات العربية بأسرها على حمايتهم ربما كنا على أستعداد للتنازل عن هذه المنطقة للمقاومة. لكن حقيقة أن تصر المقاومة على حق التصرف فى حدودنا فى حين نعجز جميعاً عن حمايتها أمر يدعو للغرابة حقاً»[٢].

وكان ما يريده الموارنة هو أن يحكم الجيش سيطرته على المقاومة لكنهم لم يكن يدركون إن تنفيذ مثل هذه السياسة كان من شأنه أن يؤدى حتما إلى عواقب وخيمة، فلو أن الجيش هاجم الفدائيين لترتب على ذلك ثلاث نتائج محتملة يمكن جميعها يؤدى إلى كارثة: أولاً قد يهزم وإن كان هذا أقل أحتمال وثانيا قد يحدث أنشقاق فى صفوفه عندما يرفض صغار الضباط والجنود المسلحون محاربة قضية هم مرتبطون بها غير أنه حتى لو لم يقع أى من هذين الأحتمالين فمن المؤكد أن العناصر الوطنية العربية فى البلاد سوف تحتج ليتبع ذلك نشوب ثورة على غرار المواجهة التى وقعت فى عام ١٩٥٨.

ومن ثم كان من المستحيل فى عام ١٩٦٠ أن تتخذ الحكومة أجراءاً حاسماً ضد الفدائيين الذى قام به الملك حسين فى العام التالى، ولكن أذا لم تقم بأى أجراء فأن إسرائيل لن تتردد فى تصعيد عملياتها الأنتقامية ضد لبنان، وعندئذ راحت الحكومة تتخبط فى أطار نفسها من الورطة لأصدار الأوامر للجيش للقيام بأجراء محدود ضد الفدائيين، لكن سرعان ما أعقبت ذلك موجة من الأضطرابات عمت البلاد، وقام التقدميون والوطنيون العرب بمظاهرات تأييداً للمقاومة، وبدأ تصرف الجيش آنذاك وكأنه أجراء يفتقر إلى الحكمة .

فعند قمع مظاهرة غير شرعية فى صيدا لقى عدد من الأشخاص مصرعهم وأمتدت الأشتباكات بين الجيش والفدائيين إلى بيروت وطرابلس وأستمرت على نحو

متقطع من إبريل ١٩٦٩ حتى نوفمبر من نفس العام. فى هذه الأثناء أصاب الشلل الحكومة اللبنانية وظلت بدون رئيس للوزراء معظم العام لأن رشيد كرامى كان قد أستقال فى شهر إبريل رافضاً للمساهمة فى سياسة معادية للفلسطينين .

فى وسط هذه القلاقل أنهارت الأنتقادات على الحكومة اللبنانية من جانب الدول العربية التى أستنكرت كافة المحاولات الرمية لآعادة الفدائيين. الأمر الذى كان ينطوى على قدر كبير من الرياء: فالحكومات العربية التى حثت لبنان على أطلاق يد المقاومة لم تكن ممكنا أن توافق على هذا المبدأ فى بلادها. فالسوريون، الذين كان أحتجاجهم أقوى أحتجاج رفضوا السماح لأى نشاط للمقاومة من أراضيهم وأخضعوا فدائيهم المحليين لامرة الجيش السورى وكذلك الحال بالنسبة لمصر التى فقد معظم الفدائيين فيها أثناء حرب ١٩٦٧ فقد شعرت بحريتها فى توجيه النقد لأى تحرك ضد المقاومة وأكدت رسالة صدرت من مجلس الأمة المصرى أثناء دولة لاحقة من القتال. «أن حماية العمل الفدائى واجب مقدس يقع على عاتق كل مواطن عربى من كل بلد عربى وأن الفدائيين الفلسطينيين فى خوضهم المعركة من أجل فلسطين أنما يخوضون فى واقع الأمر، معركة من أجل لبنان»[٣] .

كان المخرج الوحيد من هذه المشكلة هو التوصل إلى حل وسط، وفى نوفمبر ١٩٦٩ وقع قائد الجيش اللبنانى ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية على ما بات يعرف فى وقت لأحق «بأتفاقية القاهرة». والواقع أنها لم تكن تسوية بقدر ما كانت أستسلاماً تاماً للموقف الفلسطينى، وعلى الرغم من أن الأتفاقية قد أعلنت أن «السلطات العسكرية والمدنية اللبنانية ستواصل ممارسة حقوقها الكاملة على كافة المناطق اللبنانية فى كافة الظروف» فأن هذه الفقرة جردتها البنود الأخرى من كل معناها. فقد تنازلت الحكومة اللبنانية عن موقفها السابق فيما يتعلق بثلاثة مسائل هامة: فسمحت لأى فلسطينى فى لبنان بالأشتراك فى الثورة الفلسطينية من خلال النضال المسلح ومنحت

الفدائيين سيادة كاملة على مخيمات اللاجئين التى سرعات ما خفقت أعلامهم فى سمائها، والأدهى من ذلك كله أنها وافقت على مساعدة المقاومة فى تصعيد عملياتها من أرض فتح، وفى مقابل ذلك تعهد قادة منظمة التحرير الفلسيطنية بكبح جماح المتطرفين الفلسطينيين وهو تعهد كانوا يدركون أنهم لا يستطيعون تنفيذه، أما التنازلات الأخرى التى أعتبر الكثيرون من زعماء الموارنة أتفاقية القاهرة خيانة، فكانوا يرون أن المقاومة الفلسطينية تتعدى على أستقلالهم مثل ما فعل غيرهم من قبل، ومن ثم قررت رفض الأتفاقية وأكدوا بأنه أذا ماعجزت السلطات عن حفظ النظام فأن الموارنة سيقدمون لها العون. وفى الوقت نفسه قرر الموارنة تسليح أنفسهم أستعدادا للصراع الذى أعتبره الكثيرون منهم أمرا لا مناص منه .

ووقع أول أشتباك بين الفلسطينيين والموارنة فى مارس ١٩٧٠ بمجابهة مباشرة بين ميلشيا حزب الكتائب ورجال المقاومة على مشارف بيروت. ومع رفض كرامى وجمبلاط، وكأنا يشغلان آنذاك منصبى رئيس الوزراء ووزير الداخلية، توريط الجيش فى حرب ضد الفلسطينيين نصبت ميليشيا الكتائب نفسها حاميا للسيادة اللبنانية. غير أن القيادة المارونية أدركت بعد مزيد من القتال فى عام ١٩٧٣ أنه يتعين عليها تعزيز قواتها بشدة أذا أرادات السيطرة على الفلسطينين. ومن ثم ففى الأشهر التالية وصلت شحنات ضخمة من الأسلحة إلى ميناء بيروت بموافقة تامة من الرئيس المارونى سليمان فرنجية. كما وصلت شحنة أخرى عن طريق نادى اليخت فى جونية تمت بواسطة كولونيل متقاعد من السلاح الجوى الأمريكى، وكانت عملا لوكالة المخابرات المركزية يعمل صحفياً فى بيروت. وكانت الأسلحة فى الحالتين خاصة بحزب الكتائب وحليفة حزب الأحرار بزعامة كميل شمعون .

كانت بعض أعتراضات الموارنة على المقاومة الصحيحة، فقد أتسم الفدائيون بالغطرسة ودأبوا على التجول حول بيروت وهم يلوحون ببنادقهم، وكانوا يوقفون

السياسات كيفما ويفحصون بطاقات الهوية .

أما المشاكل الأخطر فكانت تلك التى جلبها نشاط الفدائيين على جنوب لبنان ولكى تشجع الحكومة على أتخاذ نفس الأجراء الذى أتخذه الملك حسين ضد المقاوم فى عام ١٩٧٠بدأت إسرائيل فى شن حملة منتظمة من الأرهاب على القرى اللبنانية فى الجنوب، وكان يعقب الغارات الجوية على مخيمات اللاجئين الأعتداء على أية قرى يشتبه فى إيوائها للفلسطينن. وكان الإسرائيليين، فى كل مرة ينسفون المنازل والجسور ويدمرون الشوارع والمحاصيل، وكثيراً ما كان يأسرون القرويين أنفسهم ويحملونهم إلى إسرائيل لأستجوابهم.

ولما شرع الفدائيون فى القيام بعملياتهم من خارج الدول العربية تزايدات الغارات الجوية الأنتقامية الإسرائيلية على لبنان. فبعد الهجوم على مطار اللد فى إسرائيل فى مايو ١٩٧٢ فأن اللبنانيين هم الذين عانوا من جراء ذلك على الرغم من تساؤل الرئيس فى الحاج: «كيف يمكن لبنان أن يتحمل مسئولية عمل قام به أجانب أقلتهم إلى إسرائيل طائرة أجنبية فى عاصمة أجنبية؟» [٤] وأعقب حادث اللد حادث ميونخ، ونتيجة لذلك أيضاً قتل الكثيرين تطبيقاً لمبدأ إسرائيل العين بالعين، وعلى الرغم من أن هذه الغارات الأنتقامية تسفر عن العادة عن خسائر فى الأرواح تصل إلى نسبة١٠ أو٢٠ عينا مقابل عين واحدة فقد غارت إسرائيل فى الغارات الجوية التى أعقبت حادثميونخ وحتى عندما وافق الفلسطنييون على وقف عملياتهم على طول الحدود فى عام ١٩٧٤ أستمرت سياسة إسرائيل الإنتقامية فقد كان مخطط إسرائيل يهدف إلى أثارة الأضطرابات فى لبنان وقد أفلحت ويمكن الحكم على درجة نجاحها بواقعة واحدة حدثت فى إبريل من عام ١٩٧٣ . ففى اليوم التاسع من ذلك الشهر وصلت إلى بيروت فرقة أرهاب إسرائيلية بواسطة زورق وقامت بقتل ثلاثة من زعماء فتح (من

بينهم الشاعر كمال نصر) وعدد من الأشخاص الأخرين. وأستطاع الإسرائيليون السيطرة على إحدى مناطق ببيروت فى عدة ساعات بل قاموا بتوجيه حركة المرور. ومع هذا لم يطلق الجيش اللبنانى رصاصة واحدة، بل لم يفعل شئ على الأطلاق على الرغم من الأوامر التى صدرت إليه من صائب سلام رئيس الوزراء. وسرعان ما قامت مظاهرات ضخمة إحتجاجاً على عدم كفاءة الجيش وطالب سلام نفسه بإقصاء قائد الجيش المارونى، أسكندر غانم، بيد أن غانم كان صديقا للرئيس فرنجية الذى رفض إقصاءه. فما كان من سلام إلا أن أستقال من منصبه لتعقيب ذلك أزمة سياسية طاحنة. إذ بعد ثلاثة أسابيع نشب قتال بين الفدائيين والجيش اللبنانى لأول مرة منذ أتفاقية القاهرة .

ومع أستمرار الغارت الأنتقامية الإسرائيلية بدأت عمليات إخلاء قرى الحدود من السكان، وتدفق سيل اللاجئين من أتباع المذهب الشيعى أساسا على بيروت وإحتجت الجماعات المارونية على تشريد المواطنين اللبنانيين بسبب صراع لا دخل لهم فيه. وكتب جان بابير حداد، أحد الموارنة يقول: «لقد رحبنا باللاجئين الفلسطنين ومنحناهم مأوى، ثم سمح للفدائيين بالتصرف كيفما يحلو لهم، وعلينا أن نرحب بالاجئين الذين طردوا من ديارهم من جراء أعتداءات الفلسطنيين على إسرائيل» لكن عطف الموارنة على اللاجئيين الجدد لم يكن مقنعاً، فلو كان الموارنة يعنيهم حقاً مصير الشيعة لقدموا لهم يد العون عندما وصلوا إلى بيروت وهم فى عوز شديد، فحقيقة أن اللاجئين ظلوا بلا مأوى وبدون عمل ويعيشون فى فقر كبير فى أحياء الأكواخ حول العاصمة – هذه الحقيقة تدل على أن إحتجاجات الموارنة أنما كانت تطيها أعتبارات ثلاثية وليست أى مشاعر إيثار جديدة .

ولعل الأعتراض المارونى الرئيس على المقاومة هو أنها الوسيلة التى تعلقت بها

كافة الأحزاب اللبنانية التقدمية، وهذا عين ماحدث. فقد كانت قوة التقدميين مبعثرة عدد كبير من الأحزاب الصغيرة، بعضها شيوعى وبعضها وطنى عربى أو ناصرى وغيرها ممن يؤيد الجماعين السورى والعراقى لحزب البعث. لم تكن هذه الأحزاب فى حد ذاتها ذات أهمية إذ كان مؤيدها قلة ولا تتمتع بأى قوة برلمانية، وعندما أنضمت هذه الأحزاب التقدمية بشكل أو بأخر إلى المقاومة أو إلى حركة كمال جمبلاط الوطنية، التى تؤيد المقاومة بكل أخلاص، أصبحت أكثر قوة وبدأت فى مطالبة الحكومة بسلسلة من الأصلاحات. لم تكن هذه المطالب متطرفة وكان يمكن لأية حكومة غربية أن توافق على معظمها دون تردد، بيد أن الموارنة تصرفوا بعنادهم المعهود ورفضوا قبول أى شئ من اليسار. وكانت التمثيل النيابى هو أحد هذه المسائل، فنسبة الستة مسيحين لكل خمسة مسلمين كانت قد تحددت عند الأستقلال بناءاً على أفتراض أن المسيحيين كانوا يشكلون غالبية محدودة فى الدولة. ربما كان هذا صحيحاً، وربما لم يكن، لكن لم يجر تعدادا للسكان لمعرفة ذلك. وعلى الرغم من ذلك فأنه خلال الثلاثين عاما التالية فأن معدل المواليد المرتفع بين المسلمين، ولاسيما بين الشيعة وهجرة الكثيرين من الموارنة قد أحدثا تغييرا كاملا فى التوازن وبات وأضحا فى السبعينيات من القرن العشرين أن المسلمين يشكلون حوالى ٦٠ ٪ من عدد السكان، وليس ثمة خلاف على ذلك حتى من جانب الموارنة ومع ذلك رفض الموارنة رفضا تاما بحث تغيير النسبة أو حتى القيام باحصاء سكانى لمعرفة الأعداد الحقيقية .

ومن بين أمور أخرى سعى التقدميون والوطنيون العرب إلى القضاء على الطابع الطائفى للدولة، وهو أصلاح كان حزب الكتائب قد أقترحه قبل ذلك بأعوام كثيرة. لكن المؤسسة المارونية أدراك أيم تكمن مصالحهم الحقيقية وهم، من الناحية السياسية، فى موقف الدفاع يدركون أن أعدادهم أصبحت قليلة كما قلت مبادرات ما ينعمون به من إمتيازات، وأختاروا بغير مبرر، الوضع الذى تكون فيه «ظهورهم إلى الحائط»

وأعتبروا تحالف التقدميين والوطنيين العرب والفلسطينيين مؤامرة من جانب اليسار العالمى، هذا فضلاً عن أن رفضهم تقديم أية تنازلات على الأطلاق قد أرغم الكثيرين من السنيين المعتدلين على الأنضمام للمعسكر التقدمى .

وكان زعماء الموارنة المتشددون يستعدون منذ وقت طويل لمعركة فاصلة ... آل شمعون وحزب الأحرار الذى يتزعموه، على سبيل المثال، لم يكن قد وأفقوا، وذلك فى السر، على «أتفاقية القاهرة» ولم يكن يهتمون بأستمرارها فكميل شمعون لا يشعر بأى تعاطف مع الاجئين بل يكره الفلسطينيين وقد أشار إليهم فى وقت لأحق بأنهم «قتلة لبنان»[٦]، ويشاركه ابنه دورى، أمين عام الحزب نفس الآراء، فكان يشير إلى الفلسطينيين سرا بأنهم عنصر من الجبناء وأن حياة اللاجئين هى ما يستحقون [٧] وزعم بأن جميع اللبنانيين يكرهونهم وكلما كان طردهم أسرع كلما كان ذلك أفضل وأن لزم الأمر فسوف نقذف بالفلسطينين إلى البحر، أنهم سيلوثونه وهذا أمر فى غاية السؤ.

وبحلول عام ١٩٧٥ كانت أعداد وفيرة من الطائفة المارونية قد أقتنعت بأن المقاومة تنوى بجد الأستيلاء على مقاليد الأمور فى البلاد. ووفقاً لجان بيير حداد فأن هدف الفلسطينيين هو «تصفية المقاومة اللبنانية سياسياً وجسدياً وأقامة جمهورية شعبية يسيطر عليها فليسطينو فتح وحلفاؤهم الماركسيون» [٨] وهو الأمر الذى يعتبر أبعد ما يكون عن الحقيقة، فآخر ما كانوا الفلسطينيون يريدونه هو القتال داخل لبنان، وليس أدل على ذلك من دبلوماسية عرفات أثناء الحرب. فكلما كان الفلسطنييون يبغتونه هو الأحتفاظ بالقاعدة الوحيدة الباقية لعملياتهمم ضد إسرائيل ولم يكن يرغبون فى إستفزاز اللبنانيين حتى ينتهجوا نفس السياسة التى إنتهجها ضدهم الملك حسين ولا فى المخاطرة بضياع مكانتهم الحالية التى بلغت، عقب خطاب عرفات فى الأمم المتحدة فى نوفمبر عام ١٩٧٤، ذروتها لا فى الدول العربية فحسب بل وفى جميع أنحاء

العالم على حد سواء.

ومع ذلك أعتقد الموارنة أو على الأقل تظاهروا بالأعتقاد، بأن بلدهم فى خطر، ورأوا أنهم لو اريد للبنان البقاء لتعين سحق المقاومة وطرد الفلسطينيين وأشاروا إلى أن لبنان يعد أصغر دولة فى العالم العربى وأكثرها كثافة سكانية فلماذا يتعين عليه إيواء مثل هذا العدد الهائل من اللاجئين ولماذا لا يوزعون فى جميع أنحاء الشرق الأوسط؟ ولقد أيد الرئيس فرنجية هذا الرأى أبان الحرب فأعلن أنه ينبغى «توزيع الفلسطينيين بين جميع الدول العربية وفق لأمكانيات كل منها» [٩]، بل ذهب البعض إلى ما هو أبعد من ذلك. فأحدى الجماعات المارونية وتطلق على نفسها أسم «حماة الدروز» رفعت شعار لا فلسطين واحد فى لبنان» .

هكذا أخذ الهدف المارونى الرئيس يتضح شيئاً فشيئاً وهو قمع المقاومة الفلسطينة فى لبنان، ثم يتبع ذلك كهدف فرعى أبعاد بعض اللاجئين على الأقل. ووفقاً للنظرية المارونية فإن هذا من شأنه حل أكبر مشكلتين تواجههما اللاد. فتصفيية المقاومة وأستعادة السيطرة اللبنانية على منطقة العرقوب ومخيمات اللاجئين من شأنه أن ينهى وضع الفلسطينيين «كدولة داخل دولة»، وهو ما تعارضه الموارنة كما كان يفترض أن ذلك سوف يضع حداً لغارات إسرائيل الأنتقامية .

ثانياً فإن قوة الجماعات التقدمية والوطنية العربية التى طالبت بالأصلاح السياسى ووضع حد للإمتيازات الموراتية سوف تضعف إلى حد كبير إذا ما غادر الفلسطينيون البلاد .

لكن الموارنة أدركوا أنهم لايستطيعون القيام بهذه المهمة بمفردهم فلم يكن يملكون القوة ولا الرغبة فى القيام بذلك. فالصدام مباشر بين الموارنة والفلسطينيين سوف يكون مدمرا ليس فقط من الناحية العسكرية. فأن أراد الموارنة تحقيق النجاح

عليهم إبراز صراعهم على أنه صراع بين الفلسطينين واللبنانيين أعتقاداً منهم بأنهم فى هذه الحالة يمكنهم أرغام الجيش على التدخل إلى جانبهم وسحق رجال المقاومة.

على هذا الأساس أنطلق الموارنة وأتباعهم فى تنفيذ مخططهم وراحوا ينشرون أسطورة إلى الأزمة اللبنانية لا علاقة لها بالمشكلات بين اللبنانيين فالعداء التقليدى بين الموارنة والوطنيين العرب والصراعات السياسية بين اليسار واليمين والمشاكل المتعلقة بالعلاقات الأسلامية المسيحية والظلم الأجتماعى الصارخ – كل هذه تم أستبعادها كأشياء وهمية وزعموا أن المشكلة ببساطة هى بين اللبنانيين والفلسطنيين الذين أساءوا إلى كرم الضيافة وعقدوا العزم على تدمير «الديمقراطية الحقيقية الوحيدة» فى العالم العربى، وهب الموارنة لمواجهة هذا التحدى وذكرت السيدة كوشران أن حزب الكتائب إنما يشكل «دولة المقاومة اللبنانية ضد العدوان والأحتلال الأجنبى »[١٠]. أما كميل شمعون، الذى أثار بنفسه المواجهة اللبنانية البحتة فى عام ١٩٨٥، فقد كان فيما يبدو، يتوقع أن يؤخذ مأخذ الجد حين قال: «على الرغم من التدخل الخارجى الذى يؤجج الصراع فليس هناك ما يمنع الوفاق بين اللبنانين» [١١]

كانت هذه النظرية منافية للمنطق بشكل مفضوح حتى أنأحداً لم ينخدع بها، ذلك لأن الموارنة قدعجزوا تماما عن تفسير حقيقة وأضحة واحدة وهى: إذا كان الفلسطينيون أعداء للبنان لماذا يفضلهم ثلاثة أخماس الشعب اللبنانى على الأقل عن الموارنة ؟ ولم يكن ثمة جواب بطبيعة الحال. وفى محاولة فاشلة لتفسير تحالف الفلسطينين واللبنانيين المسلمين وجهت السيدة كوشران اللوم إلى الدعاية اليسارية «التى رفضت القضية الفلسطينية بقضية الأسلام » [١٢]زعم آخرون أن بعض المسلمين شيوعون لا يدينون بالولاء للبنان وأن ولاءهم الأول للثورة وكانوا يرون فى كمال جمبلاط أداة للجماعات المعادية للبنان ومن ثم لجأوا إلى الكذب السافر بأنهم إنما

يقاتلون الأجانب (أى روسيا)، وذات يوم كان النزاع الذى يثيره الموارنة بهدف قمع المقاومة يصوره بيار الجميل على أنه «إعتداء شيوعى» يصفه دورى شمعون بأنه «مؤامرة اليسار العالمى» «بأوامر من موسكو».

هكذا أعلنت الحرب اللبنانية، وفى سبيل التخلص من مصدر للأزعاج دفع الموارنة البلاد إلى حرب أهلية لأنهم أساؤا تقدير الموقف ولم ينخدع أحد بدعايتهم ولاسيما اللبنانيون الأخرون الذى أنضم معظمهم إلى صفوف العدو. كذلك لم يكن لأعتمادهم على الجيش ما يبرره، فقد أنقسم الجيش على نفسه وأنضمت أكثر عناصر فعاليه إلى الجانب الآخر، هكذا وجد الموارنة أنفسهم يقاتلون بمفردهم فخسروا المعركة ولم يحل دون هزيمتهم الكاملة سوى تدخل جيش أجنبى.

الفصل الرابع

الحرب الأهلية اللبنانية

كان القصف الأيطالى لبيروت فى عام ١٩١٢، بالنسبة لشاعر بريطانى هو جيمس اللروى فليكر، مشهدا كبيرا بأن يذكر: «فلا ينسى دوى المدافع وهو يهز زرقة البحر والسماء، ولم تكن ثمة نسمة تحرك أشجار النخيل، ولم تخيم سحابة فوق ثلوج لبنان التى هى أشبه ما يكون بالأوز العراقى». أما القصف الذى وقع فى عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦ فكان أقل شاعرية، فلم تعد هناك أشجار النخيل التى أرتفعت فى مكانها صفوف من المبانى الشاهقة الجديدة... كانت المبانى فيما مضى بيضاء تطل فى خيلاء فأصبحت ملطخة مليئة بالثقوب وفى سماأء المدينة تندفع سحب كثيفة من الدخان لتخفى ثلوج لبنان الشبيهة بالأوز العراقى. لم يكن هناك دوى للمدافع وأنما أنفجارات قنابل متواصلة وطلقات البنادق الروسية والامريكية التى لأتتوقف .

لايمكن أن نحدد بدقة متى بدأت الحرب الأهلية اللبنانية بل أن العالم الذى بدأت فيه هو موضع شك، فالبعض يعتقد أن أزمة ١٩٧٥ ليست سوى أستمرار لما حدث فى عامى ١٩٦٩و ١٩٧٣. وربما لم تكن هناك بداية حقيقية للحرب الأهلية تماما كما يبدو وأنها بغير نهاية، أما الشئ المؤكد فهو أنه لم يسبقها أنذارات أو بيانات طنانة، وكلما حدث هو أنها تفاقمت من أحداث صغيرة متفرقة ليتسع نطاقها شيئا فشيئا لتصبح فى نهاية الأمر أحداثا متلاحقة يتعذر ولعل الرصاصات الأولى أطلقت فى نزاع لا علاقة له بالفسطينيين أو فى أى قضايا أخرى هامة تمس البلاد، ففى فبراير عام ١٩٧٥ حدث أضطراب فى صيدا حول حقوق الصيد فقد أعتقد الصيادون المحليون أن ثمة خطر يتهددهم من جراء أنشاء جماعة صيد أطلق عليها «شركة البروتين» وهى شركة لبنانية- كويتيلا مشتركة) يرأسها كميل شمعون. كما من الصيادين بتشجيع

من بعض الجماعات المتشددة إلا أن أحتجوا بشدة ونظموا مظاهرة ضخمة فى صيدا يوم ٢٦ فبراير. وحاولت وحدة صغيرة من الجيش منع المظاهرة فلم تفلح إلا فى أثارة الشعب مما أدى إلى أصابة معووف سعد عمدة صيدا ومؤيد الصيادين بأصابة خطيرة .

كانت الحادثة محلية وكان من الممكن أن تظل هكذا، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن كل من الموارنة والتقدميين حسبوا أن بوسعهم تحقيق أهداف سياسية من وراء تحويل هذه الواقعة المحلية إلى قضية كبرى. وتحرك الراديكاليون أولا وقاموا بالمظاهرات فى بيورت يوم ٢٨ من فبراير واشعلت النيران فى السيارات وإقيمت متاريس فى الشوارع من الأطارات المشتعلة. وفى أول مارس قاموا بتنظيم مظاهرة إحتجاج أخرى فى صيدا وقطعوا الطريق الساحلى المفضى إلى صور. وعندما تحرك الجيش للسيطرة على الموقف نصب له المسلحون الكمائن وأرغموه على التقهقر، وسرعان ما وصل تعزيز أن غير أنها لم تواجه إلا بمقاومة أشد عنقاء من الراديكاليين الذين كان يساندهم أعضاء من جبهة الرفض الفلسطينية. وبدلا من المخاطرة بمزيد من الخسائر فى الأرواح أتخذ اللواء المارونى غانم، قائد الجيش، قرارا يدعو إلى الدهشة يتمثل فى قصف صيدا نفسها بالقنابل، وفى النهاية امكن التوصل إلى وقف أطلاق النار بمساعدة الفلسطينيين شريطة أن ينسحب الجيش إلى المدينة .

وفى العاصمة بدأت تنطلق التنديدات بالجيش وبمسلكه على أشدها لتعقبها المطالبة بأستقالة الحكومة. بل أن المجلس الأعلى للمسلمين وهو هيئة محافظة تمثل أهل السنة، طالب بإعادة تنظيم قيادة الجيش وفى مجلس الوزراء نفسه تردد الحديث حول تقديم الأستقالات مالم يستبعد اللواء غانم، وزادت الطين بلة وفاة معروف سعد بعد أسبوع من نقله إلى المستشفى. وكانت جنازته، حيث التف العالم الفلسطينى حول جثمانه بشكل وأضح، بمثابة فرصة جديدة أستغلها الموارنة للتنديد بالتحالف

المقدس بين الفلسطينيين والتقدميين. وعلى الرقم من أن ما قام به الصيدون والتقديون كان أستفزازيا بشكل وأضح فإن رد الحكومة والجيش جاء عنيفا بلا مبرر. لقد كانت معالجة الأزمة منذ البداية خرقاء تعوذها اللباقة، فكان من سؤ الحظ أن يختار حزب الكتائب والجماعات المارونية الأخرى هذه اللحظة لأعلان تأييدهم السديد للجيش، فنظموا المظاهرات وراحوا يؤكدون بشدة تضامنهم معه، ونظم الموارنة فى شرق بيروت مسيرات فى ربوع العاصمة وأنطلقوا يعربون عن ثقتهم الكاملة بالقوات المسلحة ويرددون شعارات معادية للفلسطينيين. لقد كانت مناورة سياسية ساذجة مآلها الهزيمة فى نهاية المطاف .

كان هدف الموارنة وأضحا فقد كانوا يحاولون بصورة جلية ربط الدولة اللبنانية بطائفتهم، متظاهرين بأنهم حماة الدولة فى الوقت الذى يسعى معه الشيوعيون «والأجانب» إلى تقويض سلطتها، وكان الموارنة، الذين هوجموا مرارا على أنهم أقلية أنانية محظوظة، يتوقون إلى أنتهاز أية فرصة للظهور فيها بمظهر حماة لبنان الحقيقيين، وعلى أية حال فإن تلك الأيماءات المبالغ فيها بالتضامن قد أضعفت بالفعل من فاعلية الجيش إذ أصبح المسلمون والوطنيون العرب يعتبرونه حليفا وثيق الصلة بحزب الكتائب، وبات الموقف للمسلمين وأضحا جليا وهو أن الموارنة والجيش يقفان فى صف واحد، وحتى السنيين المحافظيين، وهم الجيل الأكبر من الوطنيين العرب من أمثال صائب سلام والمفتى حسن خالد لم يقبلوا هذا الوضع وطالبوا بأصلاح الجيش لأنهم أدركوا، شأنهم فى شأن كل فرد آخر، شأنهم فى ذلك أن الجيش لأيصلح بعد ذلك فى التوصل إلى فى التدخل فى المنازعات بين اللبنانيين إذا أعتقد المسلمون أنه الحامى للطائفة المارونية ليس الا ولم تبد مطالب المسلمين ثورية بصفة خاصة، فكل ما طالبوا به هو التمثيل المتكافئ فى قيادة الجيش، وهو حق يخوله لهم عددهم أن لم يكن أى شئ آخر، لكن كلا من الجميل وشمعون، زعيما الحزبين المارونيين الرئيسيين، رفضا

بحث هذا المشروع .

لم تشعر غالبية اللبنانيين بقلق بالغ إزاء أحداث صيدا ونفر قليل هم الذين كانوا يتحدثون عن أحتمال أن تتكرر المواجهة التى وقعت فى عام ١٩٥٨ ومع ذلك لم تكن الروح السائدة متشائمة. لقد أصبحت المظاهرات وعدم الأستقرار السياسى مرضا مزمنا بالنسبة للبنان، ومع ذلك كانت ثروة البلاد كالعادة، وظل هذا التفاؤل قائما حتى أواخر فصل الصيف، كان هناك، بطبيعة الحال، قدراً كبيراً من الشعور بالأستياء والأتهامات الموجهة للفلسطينيين بوجه الخصوص، فسبب الدور الذى قامت به المقاومة فى تحقيق وقف أطلاق النار شكا الموارنة من أنها أضحت أقوى من الدولة ذاتها، ومن ثم بلغ الشعور المعادى للفلسطينيين ذروته فى ربيع ذلك العام وأصبح رجال المقاومة كبش الفداء لكل خطر يقع فى لبنان. وأخذ الموارنة ينسبون كل حادث وكل مشكلة وكل مشكلة وكل ماهو شر إلى المقاومة فى نهاية الأمر، ولم يكن من الصعب تصور مايرونه حلا مثاليا للمشكلة، فطالما تردد أسم الملك حسين بإعجاب وتأييد فى الدوائر المارونية .

وفى يوم الأحد، ١٣ إبريل من عام ١٩٧٥ تجدد القتل عندما نصب مسلحوا الكتائب كمينا لسيارة تقل فلسطينيين فى ضاحية عين الرمانة المسيحية وقتلوا منهم ٢٧ شخصا، وفى صبيحة اليوم التالى نشبت المعارك فى بيروت فهاجمت ميليشيا الكتائب فدائى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وجماعاتها المنشقة وقصفت من مواقعها فى الأشرفية مخيم اللاجئين فى تل الزعتر. رد الفدائيون من برج البراجنة بالهجوم على حى الشياح المسيحى، كذلك جرى أطلاق النار فى بعض الأحياء الأخرى وفى طرابلس وصيفا، وأستمر القتال معظم أيام الأسبوع التالى، وعلى الرغم من أنه أعلن رسميا من أن عدد القتلى وصل إلى ١٥٠ قتيلا، كان الجميع على بينة من أن الرقم

الحقيقى أضعاف هذا العدد .

كان طبيعيا أن تصبح واقعة عين الرمانة القضية الرئيسية فى السياسات اللبنانية، فقد زعم التقدميون أنها جوء من مؤامرة دولية لتصفية المقاومة الفلسطينية بينما انحى البعض باللائمة على المخابرات المركزية الأمريكية، والبعض الآخر على الصهانية، وأعلن نفر قليل أن المذبحة جرى التخطيط لها بالتوطؤ مع الرئيس فرنجية. أما الكتائييون فقد رأوا من جانبهم أن الفلسطينيين أثاروا المعركة عن عمد، بإرسال فدائييهم إلى معقل الموارنة– وأن كانت هذه الحجة غير مقنعة بالمرة لان السيارة كانت تقل أيضاً عددا كبيرا من النساء والأطفال. وقد صرح الجميل بأنه لو قام بإستعراض قواته بملابس الميدان عبر حى صبرا الفلسطينى لتوقع أن يثير ذلك القلاقل، كما أعلن أن المذبحة لم تكن حادثة قائمة بذاتها بينما جاءت نتيجة لهجومين فلسطينيين على رجاله فى عين الرمانة أيضاً فى صباح ذلك اليوم. أما الواقعة الثانية فكانت عندما هرعت سيارة «بيجو» لوحة أرقامها مغطاة بأقصى سرعة نحو مدخل الكميسة التى كان الجميل وشخصيا وغيره من زعماء الكتائب يخضرون فيها حفلا دينيا، وقام المسلحون داخل السيارة بأطلاق رخات من الرصاص على مدخل الكنيسة ولاذوا بالفرار، وأسفر الحادث عن مقتل أربع أشخاص من بينهم مسئولان من حزب الكتائب. وأشار الجميل بأنه فى هذا الأطار لايمكن أعتبار وصول سيارة نقل محملة بالفدائيين فى نفس المنطقة سوى عمل أستفزازى، ومع ذلك فإن الدرجة العالية من الكفاءة التى تم بها تنفيذ العملية وحقيقة أن كثيرين من الفدائيين قد لقوا مصرعهم أقنعتا الكثيرين بإنها كانت مدبرة من قبل .

وفى عشية السادس عشر من إبريل أعلن وقف أطلاق النار، لكن على الرغم من العاصفة الرعدية التى أباحت البلاد لم يكاد بوسع أى فرد أن يسمع أستمرار طلقات

المدافع. وفى اليوم التالى ظل التوتر قائما بواسطة مسلحون مجهولون يطلقون الرصاص من فوق أسطح المنازل فى المركز التجارى لبيروت، وفى حين كانت الحكومة تلقى بتبعة أطلاق النار على طرف ثالث سرعان ما بات وأضحا أن القناصة باتوا يحظون على الأقل بتأييد ضمنى من جانب الرئيس والأحزاب المارونية، فكانت الأحياء المسيحية هى مصدر معظم النيران، هذا فضلا عن أن الحكومة كانت ترفض الكشف عن هوية القناصة حتى وأن كانت قوات الأمن قد قتلت رميا بالورصاص أو أسرت العديد منها، الأمر الذى أكد الأحساس السائد بين المسلمين والتقدميين بأن الموارنة لايرغبون فى وقف أطلاق النار وكانوا يعتقدون أنه إذا ما أستمرت الأزمة فإن الموارنة سيتمكنون من أرغام الجيش على القتال إلى جانيب ميليشيا الكتائب وسحق الفلسطينيين .

لقد وضعت عين الرمانة حزب الكتائب فى موقف الدفاع من الناحية السياسية، ففى عشية المذبح أجتمع زعماء الحركة الوطنية فى منزل كمال جنبلاط وطالبوا باقصاء وزيرى من حزب الكتائب بالحكومة، وبعد أسبوعين أعلن جنبلاط أن الكتلة البرلمانية ستصوت ضد أى حكومة تضم أعضاء من حزب الكتائب، وقد اسئ توقيت هذا التصلب، وحتى الفلسطينيين الذين كانوا ضحايا عين الرمانة كانوا متخوفين من عواقبه. وثقة منه فى تأييد الأحزاب المسيحية الأخرى بأستثناء للكتلة الوطنية المعتدلة وإدراكا منه بأن الكثيرين من السياسيين السنيين قد أفزعهم جنبلاط قرر الجميل تحويل أتجاه الضغط وتصعيده، فما كان من رجاله إلا أن قدموا أستقالاتهم فى السابع من مايو من بينهم ثلاثة من وزراء حزب الأحرار الذى يتزعمه كميل شمعون، كما أستقال أيضاً أمير مجيد أرسلان وهو شيخ درزى مسن ركزت حياته السياسية حول المعارضة التامة لأى أقتراح يطرحه جنبلاط. ولم يمض سوى أسبوع حتى قدم رشيد الصلح رئيس الوزراء أستقالته، وفى المفاوضات التى أعقبت ذلك حول تشكيل حكومة جديدة أوضح الكتائيبيون وحزب الأحرار انهم لن يقبلوا تحت أى ظروف أعتراض

جنبلاط على أن تضم الحكومة كتائبيين .

فى هذه الأثناء تعرض القانون والأمن فى أنحاء البلاد كافة للأنهيار فلم يكد يمر يوما دون أنفجارات القنابل وحوادث قتل وخطف ترتكب معظمها عصابات محترفة أستغلت الوضع القائم، لكن فى ١٨ مايو تجدد القتال العنيف ولاسيما فى الأحياء الشمالية من العاصمة، ولم يتضح على الأطلاق سبب وقوع الأشتباكات أو من بالضبط مقاتل من. أما فى حى الدكوانة فكان الموقف وأضحا نسبيا: حيث أشتبك رجال الميليشا الكتائب مع فدائى جبهة الرفض فى مخيمات وعلى الجبهات الأخرى كان الكتائبيون وحلفاؤهم بما فيهم ميليشيا كميل شمعون المسماه «بميليشيا النمور» تقاتل مجموعات من النصارين وسكان الأحياء الفقيرة من الأكراد والشيعة يساندهم الشيوعيون والأحزاب التقدمية الأخرى .

تدهور الموقف بتشكيل وزارة جديدة، فأصرار جنبلاط على أستبعاد حزب الكتائب من الحكومة ورفض الجميل قبول ذلك وضع الرئيس فرنجية فى موقف صعب ولكن يتخلص من الأزمة تخلى عما كان متبعا وشكل حكومة يرأسها عميد متقاعد وتضم ضابط عسكريين، بأستثناء لوسيان دحداح، قريبه الذى أصبح وزيرا للمالية والشئون الخارجية. وفى ضؤ الأرتباط المارونى الوثيق للجيش وتولى اللواء غانم منصب وزير الدفاع لم يكن غريبا أن لايوجد مسلم لبنانى او فلسطينى تقريبا على أستعداد لتأييد المشروع، كما أن مالاقيه المشروع من أستقبال حماسى فى الأحياء المسيحية من بيروت حيث حيوه بوابل من نيران المدافع فضلا عن موافقة الجميل وشمعون عليه، جعل مصيره، بالرغم من كل هذا، محتوما .

أما مؤسسة السنيين والشيعة والفلسطينيون والتقدميون والوطنيون العرب فقد كانوا على أتفاق تام حول هذه المسألة وهو لاسبيل إلى التعاون مع الحكومة العسكرية،

وبمساندة المسيحين الأحرار والكتلة الوطنية كانوا بحبون بتأييد مالا يقل عن ثلثى البلاد وكان بوسعهم أتخاذ موقف متشدد. فما كان من الحكومة الجديدة إلا أن أستقالت بعد ثلاثة أيام وطلب فرنجية من رشيد كرامى تشكيل الحكومة، وأستغرقت المفاوضات حول تشكيل الوزارة الجديدة شهرا، خلالها اخذت الفوضى تعم البلاد. لكن فى ٣٠ يونيو شكلت الحكومة ليتوقف أطلاق النار بعد ثلاثة أيام بفضل ما كان يتحلى به رئيس الوزرء الجديد من حنكة سياسية فقد تغلب رئيد كرامى على الأزمة السياسى بأستبعاد أعضاء حزب الكتائب وحزب جنبلاط الأشتراكى التقدمى من الوزارة الجديدة .

لم يستطيع زعيم الدروز نظرا لأستبعاد رجال الجميل، وشعر الكتائبيون بالرضا لتعيين حليفه الجديد شمعون وزيرا للداخلية. وهكذا أستطاع كرامى حل المشكلة الأساسية وأصبح للبلاد حكومة من جديد، ومع ذلك كان أعضاء الوزارة الستة أساسا متقدمين فى السن ومحافظين- فقد شغل ثلاثة منهم مناصب وزارية فى عام ١٩٤٣- ولم يكن من المحتمل ان يقوموا باية من الأصلاحات التى كانت البلاد آنذاك بحاجة اليها، بالأضافة إلى أن عضوين فقط «شمعون وكرامى، هما اللذانكانا يتمتعان بسلطة حقيقية فى البلاد .

كان نجاح كرامى، بالرغم من روعته فى ظل الظروف التى كانت قائمة سريع الزوال، فحتى فى خلال شهرى يوليو وأغسطس، عندما كانت الحكومة لأتزال تسيطر من الناحية الفنية على البلاد كانت الترتيبات تجرى على قدم وساق لما أشار اليه كمال جنبلاط «بالجولة الرابعة» فاخذت شحنات الأسلحة تصل من ست دول وبدأ تدريب وتجنيد أفراد ينتمون لكل الأجيال. وفى التلال تشكلت مجموعات أرهابية شبه سرية تدعو إلى العجب أطلقت عليها أسماء من العصور الوسطى مثل فرسان على

«شيعة» وحماة الأرز «موارنة» .

وفى أوائل شهخر سبتمبر بدأت الجولة الرابعة عندما نشب قتال حول مدينة زحلة المارونية على أطراف وأدى البقاع. ولم تمض أيام قليلة حتى إمتد القتال إلى طرابلس فى شمال البلاد حيث وقعت مناوشات بين الموارنة فى مدينة زغورتة حيث يقيم فرنجية وبين الجماعات الأسلامية التقدمية فى طرابلس نفسها، وفى محاولة يائسة لفرض وقف أطلاق النار بين الطرفين أرسل كرامى الجيش مع أوامر مشددة بإلتزام الحياد لكنه إنحاز، فى وأقع الأمر، وفى أكثر من مرة إلى جانب ميليشيا الموارنة ضد المسلمين، مما أسفر عن مقتل ١٣ فدائيا من القوات التقدمية على أيدى القوات النظامية على ساحل الشقا، ولكن لم تتخذ أية خطوة مماثلة لصد إنتهاكات الموارنة لوقف أطلاق النار، فما كان من كمال جنبلاط الذى إصثاره بشدة تدخل الجيش، إلا أن دعا إلى القيام بإضراب عام فى بيروت لكنه عاد وإلغاه فى اللحظة الأخيرة، وعلى الرغم من ذلك أمتد القتال فى غضون أيام إلى العاصمة. وفى ١٧ سبتمبر نقل الكتائبيون الحرب إلى قلب المدينة ونصبوا مدفعيتهم على الطرف الشرقى من ساحة الشهداء وشرعوا فى توجيه قصف عنيف للسوق على الجانب الآخر من الميدان. استمر وأبل نيران المدفعية أربعة أيام حتى أنه لم يبق شيئ على الأطلاق من لحى القديم الوحيد الباقى من المدينة. وصلت فرقة دمشق للمطافى للمساعدة غير أنه لم يكن ثمة شيئ يمكن القيام به: فلم يكن أحد يقترب من المنطقة إلا ويتعرض لرصاصا الكتائبيين .

لقد كان التدمير الكامل للمنطقة متعمدا تماما، وجاء بمثابة رد الموارنة على مطالب ائتلاف التقدميينن والفلسطينيين والوطنيين العرب. وكان رد الفعل مماثلا لطائفة أستجابتها الغريزية لأى تهديدات خارجية وأحدة دائما وهى: الأستجابة الدموية

المتصلة وغير المنطقية، هكذا كان الموارنة يقولون لأعدائهم أنهم على أستعداد لتدمير لبنان بأسرها ولايتوصلون إلى حل وسط مع الفلسطينيين أو غيرهم، كما كانوا يقومون بمحاولة متعمدة لتصعيد أزمة إلى حد يضطر معه الجيش إلى التدخل لصالحهم .

وللعادة أخطأ الموارنة التقدير، فقد اعقب تدمير السوق هجوم شامل على مواقع الكتائبيين فى غرب بيروت سته فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة التى يتزعمها أحمد جبريل يساندهم جماعية الناصريين اللبنانيين التى تسمى بالمرابطين. ففى جولتين فى أواخر أكتوبر وفى شهر ديسمبر، هاجمت قوات جبريل الكتائب رالحقت بهم الهزيمة، وعندما أرغموا على التراجع إلى شرق بيروت كل مأستطاع ميليشيا الموارنة الرئيسية أنقاذه من الأستيلاء هو مقر قيادتهم. كذلك لم تسفر محاولات الموارنة الدائبة لجر الجيش للأشتراك فى القتال إلا عن نتائج عكسية، ففى مرات محدودة للغاية تدخل الجيش إلى جانب الموارنة ولكن بدون فاعلية. وفى نهاية الأمر فدفع التحيز الواضح من جانب القادة العسكريين قطاعات كبيرة من الجيش إلى التمرد السافر .

انصرم عام ١٩٧٥ والموارنة أبعد مايكون عن تحقيق أهدافهم فقد منيوا بنكسات فى بيروت ولم يحققوا سوى القليل من أهدافهم العسكرية على الجبهات الأخرى، هذا فضلا عن أنهم عجزوا عن تحقيق النصر حتى وأن كانت القوة الرئيسية للمقاومة لم تشترك فى القتال. فلم يشترك مع التقدميين اللبنانيين غير فدائى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وجماعاتها المنشقة. أما فتح والصاعقة فقد تعمدتا الأبتعاد عن الحرب وظلتا بمنأى عنها. والواقع أن عرفات وغيره من الفلسطينين أمثال الأكاديمى البارز وليد الخالدى، كانوا يقومون بدون الوسطاء بين الطواوائف اللبنانية واليهم يرجع الفضل إلى حد ما للهدوء النسبى الذى ساد فى شهرى يوليو وأغسطس .

وبحلول العام الجديد كان زعماء الموارنة قد تخلوا عن هدف قمع رجال المقاومة الفلسطينية وخلفائهم. وأستعاضوا عن ذلك بالتركيز على هدف أصغر هو تقسيم لبنان. فإذا كانوا قد عجزوا عن السيطرة على لبنان باسرها كما كانوا يرغبون فإنهم عقدوا العزم على السيطرة على منطقتهم التاريخية المتمثلة فى جبل لبنان والمناطق الساحلية التى تقع بين بيروت وطرابلس. وهكذا رسموا مستطيلا بين زغورتة والأرز فى الشمال وزحلة وشرق بيروت فى الجنوب، وقرروا طرد جميع المسلمين «والأجانب» (أى الفلسطينيين) الذين يقيمون فى «قلب وطنهم» وفى جميع أنحاء المناطق القديمة من الجبل أخليت قرى المسلمين وأرغم سكانها على أخلائها وتعرضت مخيمات اللائجين الفلسطينين فى شمال بيروت وشرقها للهجوم أو المحاصرة. وفى العاصمة نفسها بدأ الكتائبيون بشن هجوم على الأحياء الفقيرة فى الكرنيينة والمسلخ .

لقد حقق الموارنة داخل هذا المستطيل شيئا ، فأستولوا على مخيم اللاجئين الفلسطينين فى دباية فى أوائل يناير، كما حاصرت «ميليشيا النمور»، التابعة لكميل شمعون المخيم الأكبر فى تل الزعتر وصدوا بنجاح طابور أغاثة من الفلسطينيين قدم من الجنوب. وفى ١٨ يناير سقطت الكرنتينة والمسلخ بينما قتل السكان رميا بالرصاص أو طردوا. كما صدرت الأوامر البولد وزرات لتسود الأرض أكواخهم ومبانيهم التى تضم العديد من الوحدات السكنية .

ومع ذلك لم يحقق الموارنة مثل هذا النجاح خارج وستطيلهم، فتعرضت مدنهم وقراهم فى وأدى البقاع للحصار كما أخذت وحداتهم فى الشمال تتقهقر أمام قوات طرابلس التقدمية. والأهم من ذلك أنهم أستفزوا القوة الرئيسية من الفلسطينيين ودفعوها إلى الأشتراك فى الحرب فى نهياية الأمر، ففى حين فرض الحصار على المخيمات الفلسطينية فى الشمال دخلت فتح الحرب فى آخر الأمر، بعد مرور عام تقريبا

من بدايتها الحرب التى زعم الكتائبيون أن المقاومة هى التى بدأتها، فلم يصدر عرفات أوامره لقواته بالهجوم إلا فى يناير عام ١٩٧٦، فبهدف تخفيف الضغط على تل الزعتر هاجمت قوة فلسطينية لبنانية مشتركة الأحياء الساحلية المارونية القائمة بين بيوت وصيدا وأستولت عليها قبل نهاية الشهر .

وفى منتصف شهر يناير كانت أية سلطة باقية للحكومة قد بدأت تتبخر بسرعة، فلم يعد للحكومة المحلية وجود وكانت دفع الأمور تديرها أية قوة مسيطرة، ومرة تلو الأخرى تنهار، وسط الأتهامات المتبادلة أتفاقيات وقف أطلاق النار التى يتم التوصل إليها بمشقة مع ممثلين لجميع الأطراف. وبدأ، فى وأقع الأمر، أنه لا أمل للسلام دون أستسلام طرف أوآخر. فى هذه المرحلة قرر الرئيس السورى حافظ الأسد التدخل، ولم يسع الأسد الذى التزم بالنضال ضد إسرائيل وعقد العزم على أستعادة الأراضى التى أحتلها الإسرائيليون عام ١٩٦٧، أن يرى لبنان يتردى فى حالة من الفوضى التامة. وعلى الرغم من تحالفه مع الفلسطينيين لم يكن يستطيع السماح لنصر كامل لجبهة جنبلاط ومنظمة التحرير الفلسطينية اذ كان ذلك سيؤدى (ولاشك) إلى غزو إسرائيلى وقد يترك تأثيرا على أستقرار نظام حكمه داخل سوريا ذاتها. كما أنه لم يسبق للموارنة باقامة دولة قد تتحالف مع إسرائيل، ومن ثم لم يكن أمامهم من خيار سوى التوصل إلى حل وسط وفرضه على اللبنانيين، ولعل هذا الحل، الذى كفل أستمرارية النظام اللبنانى وإدخال بعض الأصلاحات السياسية فى الوقت نفسه كان أفضل محاولة تبذل لمعالجة المشكلة الرئيسية. لكن لما كان الموارنة قد ادانوه على الفور بحجة أنه تقدمى أكثر مما ينبغى فإن التقدميين ادانوه أيضا على أنه محافظ أكثر مما ينبغى. ومن ثم كان السبيل الوحيد إلى نجاحه هو فرضه على البلاد .

وكان الأسلوب الذى أتبعه الأسد فى فرض تسوية حاسمة وأن كان بأرعا، فقد

بعث بلواء من جيش التحرير الفلسطينى عبر الحدود اللبنانية فى ١٩ يناير ولم تكن مهمته هى التحالف مع منظمة التحرير الفلسطينية– فكان ضباطه سوريون ويتلقى الأوامر السورية– بل أعادة النظام فى تلك المناطق من البلاد «ثلاثة أرباع البلاد بأسرها» التى لأتخضع لسيطرة ميليشيا الموارنة. ففى اليوم التالى وصل وزير الخارجية السورى ورئيس الأركان قائد السلاح الجوى إلى قصر فرنجية لأجراء المشاورات، وتم التوصل إلى وقف أطلاق النار الذى يتولى مراقبته جيش التحرير الفلسطينى بحياد تام. وقبل جميع الزعماء اللبنانيين والفلسطينيين– بأستثناء شمعون– الوساطة السورية. وفى أوائل شهر فبراير توجه فرنجية إلى دمشق ليبلغه الأسد ما أراده السوريون، ولم يمض على ذلك اسبوع حتى أعلن الرئيس اللبنانى الميثاق الوطنى اللبنانى الجديد الذى وضعه السوريون فى وأقع الأمر .

جاء الميثاق بلهجة محافظة وأكد من جديد حق الطائفة المارونية بالأحتفاظ بمنصب رئيس الجمهورية بما نص على تجريد المخيمات الفلسطينية القريبة من بيروت من السلاح وأعادة تركيز أتفاقية القاهرة. اما تعويض قوات المعارضة فكان محدودا فبغض النظر عن إلتزام غامض «بتحقيق عدالة أجتماعية عامة عن طريق إصلاح مالى وأقتصادى وأجتماعى» وأقتراح بتوفير خدمات تعليمية فإن المكسب الوحيد الذى حققه كمال جنبلاط فكان الأقتراح بتمثيل برلمانى متساوى للمسيحيين والمسلمين .

أعقب وقف أطلاق النار، مثلما يحدث فى كل مرة، موجة عامة من الشعور بالتفاؤل وأعلنت كافة الأطراف أن الحرب قد انتهت غيران أولئك الذين يحملون السلاح كان لهم رأى مغاير. فالموارنة، الذين يرفضون أن يظلوا جزءا من لبنان يضعف فيه دورهم شرعوا يعدون العدة للتقسيم واقاموا عاصمة لهم فى جنيف، وهى مدينة صغيرة فى شمال بيروت، وشكلوا قوة من الشرطة بل وبنوا مطارا خاصه بهم. وعلى

الجانب الأخر لم يكن الأئتلاف الممزق الذى كان يعتبر جنبلاط متحدثا رسميا بأسمه ولا الفلسطينيون برئاسة عرفات على أستعداد لقبول مشروع الأسد. لقد قاتلوا ببسالة ومن الواضح أن الغلبة كانت لهم عقدوا الغزم على أن تكافأ تضحياتهم ببرنامج أصلاحى وأسع نطاقا، كذلك كانوا يدركون أنه لو أطلقت يد فدائى منظمة التحرير الفلسطينية لأستطاعوا تصفية الميليشيا المارونية فى غضون أيام. ولم يخف على أحد أن جنبلاط وحلفاؤه قد هددتهم تسوية تمنح المهزومين أكثر مما تمنحه للمنتصرين، كانوا يتوقون إلى المضى فى القتال قدما .

وبنهاية شهرفبراير بات وأضحا أن التدخل السورى لم يحقق نجاحا كبيرا اذ لم يستطع جيس التحرير الفلسطينى الحفاظ على النظام كما كان الأسد يأمل، وبرهن على عجزه فى الحيلولة دون إنهيار البلاد وأنتشار الفوضى. ولعل أهم جانب فى هذه العملية هو تفكك القوات المسلحة، وهو تطور تقع مسئوليته إلى حد بعيد على كبار ضباط الموارنة، فعلى الرغم من تغيير اللواء غانم فإن خليفته حنا سعد، سرعان ما برهن على أنه لأيقل عن سلفه تحيزا وبينما كان يفترض نظريا، أن يتلقى أوامره من رئيس الوزراء (وكان يشغل منصب وزير الدفاع أيضاً) آثر اللواء حنا سعد فى الواقع تجاهل رشيد كرامى كلية، وبدلا من ذلك كانت قراراته تتم بالتشاور مع فرنجية أو شمعون. أن هذا الموقف الذى أدى إلى استخدام كل من الجيش والسلاح الجوى إلى جانب «نمور» شمعون فى الدامور– حيث لحقت بهم الهزيمة– لم يسفر إلا عن تمرد عسكرى وأسع النطاق. لقد تمردت حاميات باسرها وطردت ضباطها المسيحيين فما لبث أن شكلت الوحدات المتمردة بقيادة الملأزم أحمد الخطيب الجيش العربى اللبنانى وأتخذت مواقع إلى جانب رجال جنبلاط ومنظمة التحرير الفلسطينية .

ومع الإنهيار التام للقانون والنظام فى البلاد وتصميم القوى المعارضة على

مواصلة القتال سرعان ما لحق أتفاق وقف أطلاق النار، الذى تم بمساعدة سوريا، غيره من الأتفاقيات السابقة، وكان الهدف المباشر لجنبلاط وحلفائه هو أرغام الرئيس فرنجية على الأستقالة، وكان يعتبرونه العقبة الأولى فى سبيل التوصل إلى تسوية مرضية. ومن ثم تحركت فرق من الجيش العربى اللبنانى فى إتجاه بعبدا وقصفت قصره لكن فرنجية الذى غادر القصر على عجل رفض الأستقالة. لكن حين طلبت إليه الغالبية الساحقة من النواب أن يستقيل إذ عن للأمر بعد أن تم أنتخاب الياس سركيس خلفا له. وفى الجبال المطلة على بيروت شنت قوات جنبلاط من الدروز تساندهم فتح هجوما على المناطق المارونية وردوا المدافعين الكتائبيين. وفى العاصمة نفسها قام الفلسطنيون والمرابطون بهجوم على أمتداد الجبهة الساحلية وأستولوا على فندق هولى داى، المعقل الرئيسى لقوات الكتائب وفى إبريل بدت ميليشيا الموارنة، وكانت تحظى بمساندة وحدات الجيش التى لم تنضم للجيش العربى اللبنانى دون تحفظ، على شفا الهزيمة .

ومع ذلك لم يتغير الموقف السورى وأصر الأسد على إنهاء القتال والحيلولة دون أن يحقق جنبلاط والفلسطينيون أنتصارا كاملا. وبعد أن فشل الأسد فى تحقيق ذلك عن طريق الضغط السياسى لم أمامه من بديل سوى التدخل عسكريا. وفى أول يونيو دخلت وحدات نظامية تابعة للجيش السورى البلاد فتقدم طابور نحو بيروت وأتجه آخر صوب صيدا وكان من الواضح أن السوريين، الذين كانو يعتمدون على مؤيديهم فى جيش التحرير الفلسطينى ومنظمة الماعقة الفدائية التابعة لهم لم يكن يتوقعون نشوب معركة جد عنيفة. لكن عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية كانا قد أستعدا وفى أنتظار وصولهم. وعندما وصل الطابور الثانى إلى صيدا نصب له فدائيو فتح وجبهة الرفض كمينا وأرغموه على التقهقر، كما أن هجومه الثانى باء بالفشل .

لم تكن نكسة تشكل، على الصعيد العسكرى، نكبة على السوريين فلو كان

لديهم الأستعداد لتحمل الخسائر فى الأرواح يتسنى لهم التقدم وتحقيق النصر فى النهاية، لكن موقفهم، على الصعيد العالمى، هو الذى كان مدمرا. فمنظر سوريا وهى تعمل دون سائر الدول، على تصفية المقاومة، قد جلب عليها الهجوم من معظم الدول العربية. وأجتمع وزراء خارجية الدول الاعضاء فى جامعة الدول العربية بالقاهرة وطالبوا بابعاد القوات السورية وإحلال قوة عربية مشتركة محلها وكانت العراق على حدود سريا الشرقية تطلق صيحات التهديد وتقوم بتعبئة قواتها. وحتى فى داخل بلاده إدرك الأسد أن هناك عداء كبيرا لتحالفه المفاجئ مع الموارنة ومن الشعارات التى تتاثرت فوق جدران دمشق يتضح أن بيار الجميل كان يتمتع بشعبية لدى السوريين تكاد تماثل شعبية إسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل ووكالة المخابرات المركزى. فلو أن الأسد، على الرغم من كل شيئ، مضى فى طريقهقدما ربما حالفه النجاح. لكنه تردد فى الوقت الذى تزايد فيه الغضب العالمى وعندما تبين ان فرصة الأحتلال السريع لبيروت وصيداقا فاتته سحب قواته إلى مواقع تطل على الساحل وراح ينتظر .

لم يضع الغزو السورى حدا للحرب على النحو الذى أراده الأسد لكنه أستطاع أن ينهيها فى نهاية الأمر مع أستمرار الأسد فى سيطرته على الموقف، فالضغط السورى على الفلسطنيين ارغمهم على أبعاد قواتهم عن الجبهات التقليدية ومن ثم مكنوا قوات الكتائب من أستعادة بعض أراضيهم، كما ان الحصار الذى فرضه السوريون أعاق تدفق الوقود والأسلحة إلى المنظمات الفدائية. كذلك فأن ضغط سوريا السياسى قد لرغم زعماء طائفة الشيعى على التخلى عن حفائهم السابقين، أما أكثر نتائج التدخل السورى إثارة فكان سقوط تل الزعتر. لقد ظل مخيم اللاجئين الفلسطينين الضخم على مشارف شرق بيروت محاصرا لأكثر من سبعة أشهر، وكانت الأحوال بداخل المخيم تبعث على اليأس حيث إن رجال الميليشيا التابعين لشمعون منعوا وصول أية مواد غذائية أو أمدادات طبية لثلاثين ألف لاجئ أو يزيد .

وبحلول شهر أغسطس كان الآلاف منهم قد لقوا حتفهم، ومع ذلك حال التواجد السورى بصورة فعالة دون وصول قوات فلسطينية أخرى لأغاثتهم، وفشلت الهجمات لتشتيت الأنتباه فى أنحاء أخرى من البلاد فى تخفيف الضغط. فقد قدر لتل الزعتر الدمار وهو ما كان يدركه الجميع، وكان بوسع «نمور» شمعون بما يملكون من كميات غير محدودة من الأسلحة التى زودهم بها حلفاؤهم الإسرائيليون أن يجلسوا فى هدؤ خارج المخيم ويقصفونه يوما بعد الآخر. لكن حتى بعد سبعة أشهر ورغم الهجمات المتواصلة رفض الفدائيون الفلسطينيون الأستسلام. وفى ١٢ أغسطس تمت السيطرة الكاملة على المخيم. لقد أسفر الهجرم الأخير على مصرع ما يربو على ألف شخص، كما قتل بعد ذلك مباشرة، ألف آخرون رميا بالرصاص بعد أن أوقفوهم فى صفوف، وكان رجال شمعون يقتلون كل من يصادفهم: من أطفال ورجال دين– كل من كانوا يشتبهون فى انهم فلسطينيين بل أنهم لم يتظاهروا حتى بأخذ أسرى .

كان تل الزعتر المعركة الأخيرة وأن تواصلت الحرب حتى شهر نوفمبر. وفى النهاية حسمت المشكلة فى العربية السعودية أجتماع ضم ستة من رؤساء الدول وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية. كان الموقف السورى مقبولا بوجه عام من جانب دول لها وزنها مثل مصر والكويت والعربية السعودية.، وكان عرفات يدرك زوم وعليه أن يزعن لما يملى عليه. أما لبنان فكان لأبد من أحيائه على يد لياس سركيس الرئيس، الجديد المعتدل، ويتولى الأسد الإشراف على تنميته. وفى الخامس عشر من نوفمبر عندما دخل السوريون بيروت دون معارضة اعلن عن نهاية الحرب، ولكن القتال لم يكن قد توقف حتى ذلك الوقت. فبعد ثلاثة أعوام من إنهاء الحرب رسميا ظل الفلسطينيون وحلفاؤهم يحاربون فى جنوب البلاد ضد القوات المارونية التى يؤيدها الإسرائيليون ويسحلونها .

كانت خسائر الفلسطينيين فى لبنان أكبر منها فى الأردن فقد لقى ما يقرب من عشرين ألف فلسطينى مصرعهم معظمهم من المدنيين المقيمين فى مخيمات اللاجئين. لم تكن الهزيمة العسكرية فى لبنان ساحقة كهزيمة الأردن لكنها كانت، من ناحية، أشد خطورة. فعقب الكارثة الأردنية تمكن من ظلوا على قيد الحياة من الذهاب إلى لبنان والعمل هناك، ولكن بعد الحرب الأهلية اللبنانية تركوا بدون أية قاعدة ملائمة فى أى مكان بأستثناء شريط صغير من الأرض فى جنوب لبنان بين الجيش السورى وقوات الزعيم المارونى المتمرد، سعد حداد .

وأستطاع عرفات من الناحية السلياسية، أن يتفادى، كعادته، الدمار الكامل وسرعان ما توصل بعد ذلك إلى أتفاق مع السوريين. وظلت مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية الأدارية فى دمشق بينما بقى القيادة العسريكة فى بيورت. وفى جنوب لبنان ظل رجال المقاومة بالرغم من أستزافهم، بالقوة التى مكنتهم من التصدى للغزو الإسرائيلى فى مارس ١٩٧٨ . كما أستطاع عرفات، بالدبولوماسية الحذرة أن يغزو من مكانته الشخصية. وفى عام ١٩٧٩ كانت مكانته بين الأنظمة العربية قد تدعمت بالقدر الذى لم يجرؤ معه أحد فى مؤتمر قمة تونس أن يعارضه أثناء نزاعه مع الرئيس اللبنانى بشأن مرابطة قوات منظمة التحرير الفلسطينية فى جنوب لبنان .

الفصل الخامس

فلسطين والمجتمع الدولى

لم يطرأ تحول يذكر على أحوال الشعب الفلسطينى خلال الثلاثين السنة التى أمضاها فى المنفى، لقد أستطاع عدد منهم رفع مستوى معيشته عن طريق الهجرة إلى دول الخليج وغيرها، غير أن الغالبية لم يطرأ عليى حياتها تحسن يذكر، لكن على الرغم من أن أحوال الفلسطينيين المادية لم تتحسن كثيراً بنهاية السبعينيات كما كانت عليه فى بدايتها فإن السنوات العشر قد شهدت تقدما ملحوظا فى أحواله السياسية. فقبل عام ١٩٧٠ كانت الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة تؤيد بصفة دائمة عودة اللاجئين إلى ديارهم، ومع ذلك كان واضحا أنها لاتنوى ضمان عودتهم، وفى الوقت نفسه بينما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية فى تحقيق قدر من الشهرة فأنها حظيت بتأييد الدول العربية وإن لم يؤيدها سوى عدد قليل من الدول الأخرى، ولم تمض على ذلك عشرة أعوام حتى تغير كل شيئ. فقد تبنى العالم الثالث واليسار العالمى القضية الفلسطينية، وأصبحت منظمة التحرير الفلسطينية بالنسبة لدول آسيا وأفريقيا فيى مقدمة حركات التحرير .

وفى خارج أمريكيا وغرب أوروبا اصبح تأييد الفلسطينيين من القوة بحيث أصبحت إسرائيل تنافس جنوب أفريقيا، أنها أكثر دول العالم أفتقارا إلى الشعبية .

منذ أوائل الستينيات والفلسطينيون يعتبرون أنفسهم حركة وطنية تناضل ضد غاصب أستعمارى على غرار الجزائر وفيتام. لكن على الرغم من أن إسرائيل هى، فى الواقع، قوة أستعمارية فى جوهرها، فأنها لم تكن دولة أمبريالية بالمفهوم التقليدى مثل فرنسا أو بريطانيا واقتضى الأمر بعض الوقت حتى تدرك بقية شعوب العالم أن نضال الفلسطينيين ضد إسرائيل هو نضال ضد الأستعمار، وتعترف بالمقاومة كحركة تحرير

حقيقية. ففى مسائل كالجزائر وروديسيا كانت الأمور واضحة، مما مكن الآخرين من تحديد موقفهم ازائها. أما المشكلة الفلسطينية- الإسرائيلية فمليئة بالتناقضات. فالصهيونية حركة أستيطانية تشجعها دولة أمبريالية، وكان من الميسور تعريفها على هذا النحو. لكن فى أعقاب الأبادة الجماعية التى قام بها هتلر حظيت الصهيونية بتأييد ليس من الغرب فحسب بل ومن الأتحاد السوفيتى أيضاً إلى جانب تأييد الصين فى أوائل الخمسينيات. وفى أعقاب حرب ١٩٤٨ آثرت الزعامة السوفيتية تأييد إسرائيل ضد الشرق الأوسط العربى حين كانت بريطانيا تسيطر على معظمها. ومرت سنوات عديدة قبل أن يتفهم الروس ومؤيدوهم فى بقية أنحاء العالم وجهة النظر الفلسطينية من الصراع .

ولقد حال الطابع غير العقائدى للثورة الفلسطينية دون كسب المؤيدين من الحركات اليسارية فى أنحاء العالم الأخرى، وإدرك عرفات بزعامة فتح وهم يقوضون معركتهم فى منطقة محافظة أن مساعدة ثورين كوبين أو فيتناميين سوف تكون لها نتائج عكسية، ومن ثم ركزوا على كسب التأييد من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وفى الجزائر أقاموا أولى قواعدهم السياسية والعسكرية، وحصلوا من الجماعات الفلسطينية المتواجدة فى منطقة الخليج على الدعم الأقتصادى الذى يمكن الأعتماد عليه، ومن بقية العالم العربى حظيت فتح بالمساندة وأن كانت هذه المساندة، كما يوضح هذا الكتاب، لم تكن ثابتة. ومع ذلك فقد كان العالم العربى بالنسبة لفتح هو نصيرها أما تأييد المناطق الأخرى من العالم فكان قليل الأهمية وأن لم تكن بمنأى عنها فقد كانت هدف عرفات الدبلوماسى الرئيسى هو الحفاظ على التأييد وتعزيزه أولا من شعبه وثانييا من العربية السعودية والدول المتاخمة لإسرائيل وثالثا من بقية دول العالم العربى. وكثيرا ما كان مؤيدو الفلسطينين فى الغرب يرددون بأنه لو حلق عرفات ذقنه وارتدى رباطة عنق ونزع كوفيته لكان أكثر نجاحا فى كسب تأييد الرأى العام

الغربى. لكن عرفات، مصيبا كان أم مخطئا، كان أكثر اهتماما بالرأى العام العربى والفلسطينى، هذا فضلا عن أنه عربى ويفضل أن يرتدى الملابس العربية .

وبعد أن أصبح ياسر عرفات رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية تدعمت مكانته وشرع يجرى أتصالات دولية أكثر، ولكن ليس هناك دليل قوى على أن فتح أو منظمة التحرير الفلسطينية قاتلت لصالح آية حركات ثورية فى أجزاء أخرى من العالم. من المؤكد إنهم قدموا تدريبات عسكرية لجماعات مثل جبهة تحرى أريتريا لكنهم لم يقاتلوا قط فى أرتيريا، ومن بين اولئك الذين تلقوا تدريبات على ايدى فتح الفدائيون الإيرانيون التابعون لآية الله الخمينى الذين قاموا بدور حاسم فى الأحاطة بالشاه فى عام ١٩٧٩ . كذلك تلقى فدائيون من أريتريا وإيران تدريبات بواسطة منظمات الصاعقة التى لأتتجاوز مساعدتها، بطبيعة الحال، الحركات الثورية التى حظيت بتأييد الحكومة السورية فى أية لحظة ومن بينها جبهة البوليزاريو فى الصحراء الغربية ومنظمات المقاومة فى ظفار وجيبوتى وموزمبيق وروديسيا وجماعات المعارضة فى مصر وتركيا .

أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفروعها فتربطها بالحركات الثورية العالمية علاقات أقوى مما لفتح أو الصاعقة وأن كانت لا تزال تعانى مما يختلف موقف الأتحاد السوفيتى من غموض إزاء المسألة الفلسطينية ومن عدم موافقة روسيا على الأرهاب. ولما كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تحث على الثورة فى معظم أنحاء العالم العربى فإن ما تحظى به من تايد فى المنطقة يعتبر تأييدا محدودا، فهى لاتحظى إلا بتأييد ليبيا والعراق كما أن اليمن الجنوبية هى الحليف الثابت الوحيد للجبهة. وقد كان حكامها الحاليون ذات يوم جزء من الحركة القومية العربية بزعامة حبش. ومن بين الجماعات الثورية فى العلم العربى تتمتع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعلاقات وثيقة مع الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربى بالأضافة إلى جماعات قليلة

أخرى. ولما واجه حبش ترددا من جانب الدول العربية فى تاييد نظريته الخاصة بالحرب الشعبية اتجه إلى مناطق أخرى من العالم طلبا للتأييد. فمن كوريا الشمالية حصل على تأييد سياسى وعسكرى ومن الجيش الأحمر اليابانى لقى مساندة عسكرية فعالة. ومنذ عام ١٩٧٢، عندما قام أعضاء التنظيم بالهجوم على أعضاء اللد نيابة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على مطار اللد وقتل عدد كبير من الركاب، ويرغب الجيش الأحمر فى توسيع نطاق عملياته فى الشرق الأوسط، وخلال عامى ١٩٧٤ و ١٩٧٥ عرض مساعدة الصاعقة فى أية عمليات أختطاف تفكير الجبهة فى القيام بها- وهو رفضه زهير محسن بلباقة- وفى عام ١٩٧٩ عاود إمكانية القيام بعمليات مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. إن موقف الأتحاد السوفيتى الغامض من المشكلة الفلسطينية هو الذى عقد التأييد الشيوعى الرسمى للمقاومة. ففى عام ١٩٤٧ صوت الأتحاد السوفيتى لصالح تقسيم فلسطين، وخلال الحرب التى نشبت فى العام التالى قام بتزويد إسرائيل بكميات هائلة من الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا. وهكذا التزم الروس بوجود إسرائيل، ولم يحتجوا عندما خرج الصهاينة فى عام ١٩٤٩ بحدود أوسع بكثير مما خصصته لهم الأمم المتحدة. وخلال الخمسينيات، عندما توطدت علاقات إسرائيل بالغرب، شرع الأتحاد السوفيتى فى تأييد أنظمة الحكم العربية الوطنية ضد بريطانيا، والولايات المتحدة. كذلك بدأ فى أنتقاد إسرائيل لسؤ معاملتها للأقلية العربية. وأزدادت حدة النقد فى الستينيات. وفى أعقاب حرب ١٩٦٧ قطع الروس علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل، ومع ذلك ظلوا، رغما عن معارضة العالم العربى، يؤيدون حق إسرائيل فى البقاء كدولة صهيونية. كان هذا الخلاف الجوهرى حول أهداف النضال الفلسطينى والذى حال فى السنوات الأولى دون تأييد الأتحاد السوفيتى للمقاومة .

ظل الروس طيلة الخمسينات يعالجون المسألة الفلسطينية علي أساس أنها مشكلة لاجئين دون أن يكون لها بعد سياسى ولم يكن قبل عام ١٩٦٤ أن تحدث خروشوف

لأول مرة عن «الحقوق الثابتة والمشروعة للشعب الفلسطيني[1] فكان موقف الأتحاد السوفيتي طابعه الشك والتحفظ إزاء منظمة التحرير الفليسطينية منذ أنشائها، وعندما توجه أول وفد لها إلى موسكوفي عام ١٩٧٠ لم يكن في أستقباله مسئولون عن الحكومة، بل لجنة التضامن الأسيوى الأفريقي فقد كان الروس يشعرون بالقلق من جراء عدم وحدة منظمة التحرير الفلسطينية والصراع المتواصل بين الجماعات المختلفة. كذلك كانوا يشعرون بالضيق والحرج من جراء أستخدام الأرهاب ولم يكن يتفقون معها في هدفها النهائي. ذلك لأن الأتحاد السوفيتي الذى التزم ببقاء إسرائيل كان يبدو تافها لو أنه أيد تأييد كاملا منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تدعو وقتئذ بأعادة توحيد فلسطين. هكذا بدأ الأتحاد السوفيتي في تأييد المعتدلين في الزعامة الفلسطينية ويشجعهم على الموافقة على العودة إلى حدود ما قبل ١٩٦٧. ومع تجنب حبش وجبريل بدأ الأتحاد السوفيتي في تقديم مساعدة محدودة لعرفات وفتح والصاعقة بزعامة زخير محسن عندما كانت العلاقات الروسية- السورية طيبة، وكذلك لنايف حواتمة الذى كان يؤيد، على الرغم من تطرفه حول معظم القضايا فكرة اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة بيد أن الروس لم يشعروا بالرضا على كل هذه المجموعات لأن واحد منها لم تكن على أستعداد لأتباع الخط السوفيتي أو حتى الانصات بامعان للمشورة السوفيتية، غير أنه عندما قام السوفييت كرد فعل، بتشكيل جماعة فدائية خاصة بهم تحت أسم «الانصار» رفض كل من حبش وعرفات السماح لها بالانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية على أساس أنها مجرد آداة سوفيتية .

أن موقف الأتحاد السوفيتي الغامض منظمة التحرير الفلسطينية قد أكده موقف دول شرق أوروبا من المقامة. فمن الطبيعي أن دول الست الواقعة خلف الستار الحديدى، بأستثناء رومانيا، تحذو حذو الأتحاد السوفيتي فيما يتعلق بالشئون الخارجية. أما بالنسبة لقضية منظمة التحرير الفلسطينية كانت هنالك كتلتان واضحتان. فخلال

الفترة التى حقق فيها عرفات مكاسب دبلوماسية هائلة فى أوائل السبعينيات توجتها دعوته بالقاء خطاب فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. فى عام ١٩٧٤ ظهر اتجاهان واضحان داخل صفوف حلف وارسوء فاستمرت المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا فى تحفظاتها أزاء المقاومة، بل كانت فى بعض الأحيان، تنتقد بشدة كلا من أساليبها وأيديولوجيتها. فهذه الدول التى لم يكن لها أتصال شخصى يذكر بممثلين فلسطينيين، ربما كانت أكثر ترددا وتحفظا من الأتحاد السوفيتى ذاته. أما بلغاريا والمانيا الشرقية فكان حماسهما لمنظمة التحرير الفلسطينية لايعرف القيود وأيدت كلتا الدولتين المقاومة بشدة وارسلت لها كميات من المعونة الطيبة. كما أنهما شجعتا الازيارات المتكررة لوفود منظمة التحرير الفلسطينية، وتمت لقاءات عديدة بين عرفات واريك هونيكر زعيم المانيا الشرقية. وفى عام ١٩٧٤ ارسل هونيكر ببرقية إلى عرفات اعلن فيها أن حزب الوحدة الاشتراكى يؤكد من جديد تأييده المطلق لمنظمة التحرير الفلسطينية فى نضالها من أجل الحقوق المشروعة للشعب العربى الفلسطينى .

ولعل هذه المواقف المتناقضة أزاء منظمة التحرير الفلسطينية كانت جزء من مخطط يمكن الروس من الابقاء على باب الخيار مفتوحا ففى الوقت الذى ظلت فيه أكثرية دول حلف وارسو، بما فيها الاتحاد السوفيتى، بمنأى عن المقاومة خشية إنهيارها من ناحية، وعدم رغبتها فى الأرتباط أكثر مما ينبغى باساليب المنظمة وأهدافها من ناحية أخرى– فى نفس الوقت صدرت تعليمات لبلغاريا والمانيا الشرقية بتقديم التأييد غير المحدود لمنظمة التحرير الفلسطينية بهدف تحسين صورة الأتحاد السوفيتى فى العالم الثالث ومنع الصين من أن تنصب نفسها المؤيد الرئيسى للحركات الثورية العربية .

لقد سبقت الصين الأتحاد السوفيتى فى تأييد القضية الفلسطينية بوقت طويل،

وهى حقيقة يطيب للزعامة الصينية أن تؤكدها. ففى عام ١٩٦٤ وأفقت الصين على فكرة اقامة «وطن فلسطينى»، وفى العام الذى يليه كانت الصين أول دولة كبرى تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية. فقد كان الصينيون يدركون أن القضية الفلسطينية مسألة سياسية ومشكلة لاجئين على حد سواء وكان يحلو لهم مقارنة الدولة الصهيونية بنظام شيانغ كاى شيك فى تايوان. وفى عام ١٩٦٥ ذكر ماوتسى تونغ لوفد فلسطينى: «أن الأمبريالية تخشى الصين وتخشى العرب. وأن إسرائيل وفورموزا ما هما إلا قاعدتان للأمبريالية فى آسيا. فانتم البوابة الأمامية للقارة العظيمة ونحن نشكل المؤخرة. لقد خلقوا لكم إسرائيل كما خلقوا لنا فرموزا، وهدفهم واحد....فآسيا أكبر قارة فى العالم والغرب يريد مواصلة استغلالها»[٣] .

كان هذا اللون من الحديث هو الذى يستهوى جورج حبش الذى صرح فى وقت لأحق يقول: أن الصين أفضل صديق لنا، فالصين ترغب محو إسرائيل من على الخريطة لأنه طالما بقيت إسرائيل ستظل فوق الأرض العربية مركزا متقدما عدوانيا للأمبريالية»[٤]، لكن على الرغم من أن أيديولوجية حبش الخاصة أقرب إلى الماوتسية من أيديولوجية عرفات فقد صرح الصينيون بأن الجانب الأكبر فن تأييدهم من نصيب فتح، فقد كانت لهم نظرة واقعية إلى امكانيات منظمة التحرير الفلسطينية وحثوا المنظمات الفدائية بشدة على أن تتحد، ونتيجة لشكوكهم فى أن حواتمة موال للسوفييت بشدة وعدم موافقتهم على أستخدام حبش للأرهاب ركز الصينيون أهتمامه على تزويد فتح بالأسلحة والتوجيهات، وكانت هذه الأمدادات مجانية وقبل وصول أمدادات الأتحاد السوفيتى أو حلفائه بوقت طويل علاوة على ذلك، فإن الصينيين، بخلاف الروس، لم يضعوا أية شروط تتعلق بالسياسة والمبادئ التى يريدون الفلسطينيين أن يتبعوها. ومن ثم لم يكن مدعاة للدهشة أن يعلن عرفان بعد ذلك أن الصين كانت أكبر مؤثر فى تأييد ثورتنا ودعم أستمرارها»[٥] .

لم يحدث أن حقق الفلسطينيون نجاحا دبلوماسيا فى أى منطقة فى العالم مثل النجاح الذى أحرزوه فى أفريقيا السوداء خلال العقد الماضى فلم تكن القارة إلى الجنوب من الصحراء حتى عام ١٩٦٧ تبدى أهتماما يذكر بالشرق الأوسط. وكانت معظم الدول الأفريقية قد تخلصت لتوها من الحكم الأستعمارى، وكانت مشغولة بمشكلاتها الخاصة بصورة تعذر معها أتخاذ موقف من النزاع العربى- الإسرائيلى، كذلك لم تكن الدول العربية تهتم كثيرا بالشئون الافريقية، والوواقع أن إسرائيل كانت، ولاجدال، أكثر دول الشرق الأوسط نشاطا فى أفريقيا السوداء منذ فترة أستقلال غانا فى عام ١٩٥٧ حتى حرب يونيو، أى خلال عشرة أعوام. فبعد أن صدتهم آسيا كان الإسرائيليون بحاجة إلى تأييد دبلومالسى فى العالم النامى، فإذا بهم يركزون جهودهم على أفريقيا وأمريكا اللأتينية، وأرتبطوا فى القارتين بحلفاء عن طريق برامج المساعدات العسكرية والفنية الباهظة، غير أنه كان لهم فى أفريقيا اعداء لدودون نتيجة لانحيازهم لدول يمينية أو لحركات تساندها القوى الأستعمارية، فايدوا فرنسا فى حرب الأستقلال الجزائرية وتشومبى فى ثورة كاتانجا. كذلك ساندوا بيافرا ضد نيجيريا، وكان من بين حلفائهم الأخرين فى أفريقيا هوفويه بوانيه فى ساحل العاج، وهيلاسيلاسى فى أثيربيا وهاستنجرباندا فى ملاوى[٦] .

كان زعماء أفريقيا اليساريون، أمثال جوليوس نيريرى فى تانزانيا، وسيكوتورى فى غينيا وكوامى نكروما فى غانا، يعتقدون الصهيونية بشدة، لكنهم لم يعتبروا إسرائيل دولة استطانية توسعية إلا بعد عام ١٩٦٧ . وفى أوائل السبعينيات، عندما لم تبد إسرائيل أية بوادر للانسحاب من أراضى دولة أفريقية (مصر) واثبتت، وهو الأسوأ، أنها صديقة لجنوب أفريقيا، شرعت دول أفريقيا السوداء فى أعادة النظر فى مواقعها حول الشرق الأوسط. وصاحب ذلك حملة دبلوماسية عربية بقيادة ليبيا والجزائر، وفى أجتماع لرؤساء دول منظمة الوحدة الأفريقية فى مايو ١٩٧٣ ، أعلن الرئيس الجزائرى

بومدين: أن أفريقيا لايمكنها أن تتخذ موقفا تجاه الأستعمار فى أفريقيا الجنوبية، وموفقا مغايرا تماما أزاء الأستعمار الصهيونى فى شمال أفريقيا»[٧] ومع ذلك فإنه حتى قبل هذا التاريخ، كانت الدل الأفريقية قد بدأت فى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. وفى عامى ١٩٧٢و ١٩٧٣– قبل أن يشرع الغرب فى أعادة النظر فى موقفة الـ أزاء الشرق الأوسط على ضؤ حرب أكتوبر وحظر النفط– قطعت اوغدا وتشاد والكونغو والنيجر ومالى وبورندى والتوجووزائر علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. وفى أجتماع مايو ١٩٧٣ ، أتخذت منظمة الوحدة الأفريقية قرارا أعلنت فيه أن أحترام الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى امر جوهرى بالنسبة لأى حل عادل لمشكلة الشرق الأوسط .

ومع نهاية السبعينيات كان باستطاعة الفلسطينيون أن يحققوا أنتصارات على الصهيونية فى أى محفل دولى تقريبا، فكان يقف من خلفهم العالم الأسلامى الممتد من موريتانيا حتى الباكستان ومعظم بقية دول آسيا، وأفريقيا السوداء والدول الشيوعية، كما كانوا يحظون بتأييد متزايد فى لمغرب، من الدول الأوروبية مثل فرنسا والنمسا وأسبانيا والبرتغال، ومن عدد متزايد من دول أمريكا اللأتينية، كالا رجنتين والبرازيل وكوبا وجرينادا وجويانا والمكسيك وترنيداد وتوباجو، وبحلول شهر ديسمبر عام ١٩٧٩ كان عرفات قد أستقبل رسميا من قبل رؤساء وراء أو رؤساء دول أسبانيا والبرتغال والنمسا، بينما أجتمع فاروق قدومى المتحدث بأسم منظمة التحرير الفلسطينية للشئون الخارجية، بوزراء خارجية ايطاليا وبلجيكا. وعلى النقيض من هذا النجاح الدبلوماسى فإن إسرائيل لم تكن تستطيع الاعتماد إلا على حفنة من المؤيدين مثل شيلى وجنوب أفريقيا وهايتى وهوند راوس وكوستاريكا والولايات المتحدة. وحتى نيكرجوا غيرت موقفها بعد سقوط الدكتوتور الجنرال سوموزا .

هكذا اكتملت الدائرة، ففى وقت مبكر لعام ١٩١٩ وأفقت عصبة الأمم، من حيث المبدأ، على حق الفلسطينيين فى اقامة وطن لهم، وفى عام ١٩٤٧ التزمت الأمم المتحدة باقامة دولة عربية فى فلسطين. لكن خلال ربع القرن الذى أعقب قيام إسرائيل، اغفل المجتمع الدولى الحقوق السياسية للفلسطينيين ولم يكن قبل عام ١٩٧٤ حتى أفاقت الأمم المتحدة من غفلتها واقرت بأن الفلسطينيين لاتزال لهم هذه الحقوق. وفى سبتمبر من ذلك العام وصفت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذه الحقوق كما يلى: «حق تقرير المصير دون تدخل خارجى: وحق الأستقلال الوطنى والسيادة.... (حقوق الفلسطينيين الثابتة فى العودة إلى ديارهم.» كذلك أعترفت الجمعية» بأن الشعب الفلسطينى طرف رئيس فى أقرار سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط «و» حق الشعب الفلسطينى فى أستعادة حقوقه بكل الوسائل وفقا لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة»[٨] .

هكذا بحلول عام ١٩٧٤ كانت الأمم المتحدة قد أعترفت بعدالة نضال الفلسطينيين من أجل حقوقهم فى السيادة القومية وتقرير المصير. فحتى الدول التى كانت قد عارضت القرار أو امتنعت عن التصويت وأفقت بعد ذلك على حق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم، وفى مؤتمر صحفى عقد بالقاهرة فى ٢٨ ديسمبر من عام ١٩٧٧ أعلن مستشار المانيا الغربية، هيلموث شيميث قائلا: «نحن الالمان نشعر بان للشعب الفلسطينى حقا فى تقرير مصيره بقدر ما لأى شعب آخر فى العالم من حق، بقدر مالنا، نحن الالمان من حق، بل أن الولايات المتحدة، التى أسهم تأييدها المطلق لإسرائيل فى عرقلة التوصل إلى تسوية لفترة طويلة، اتجهت إلى الرأى القائل بضرورة أن يكون الفلسطينيين وطن من نوع ما، وغالبا ما اتسمت تصريحات الرئيس كارتر حول الشرق الأوسط بالتناقض والتضارب، لكنه وافق، من حيث المبدأ، على الفكرة، فقد صرح فى أجتماع عقده بما شاسوست فى ١٧ مارس عام ١٩٧٧ قائلا:

ألابد من توفير وطن للاجئيين الفلسطينيين الذين عانوا سنين وسنين عديدة» وفى يوم ٤ يناير عام ١٩٧٨ اعلن فى اسوان: «لابد من حل للمشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها، والمشكلة تتمثل فى ضرورة الأعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وتمكين الفلسطينيين من الأشتراك فى تقرير مستقبلهم» وكانت واقعة اندروينغ فى صيف عام ١٩٧٩ مؤشرا على مدى التغيير الذى اخذ يطرأ على الرأى العام الأمريكى حول القضية الفلسطينية. فاستقالة يونغ من منصبة كرئيس للوفد الأمريكى لدى الأمم المتحدة التى طالب بها مؤيدو إسرائيل. لا لسبب إلا لأنه إحدى مباحثات مع ممثل منظمة التحرير الفلسطينية قد اثارت ضجة فى جميع أنحاء الولايات المتحدة .

أخيرا وبعد ما يزيد على ثلاثين عاما من التشتت وافق العالم على تصحيح الظلم الذى وقع بعرب فلسطين، كما اقر فى نهاية الامر، بان الفلسطينيين يشكلون شعبا مستقلا وانه لابد لهم من وطن- ليس قطعة لارض يحاصرها الجيش الإسرائيلى بل وطن مناسب..... لابد لهم من دولة لاتحل محل إسرائيل، بل دولة تعيش جنبا إلى جنب معها، ومثل هذا الحل سوف يتطلب بالضرورة تضحيات، لامن جانب ايسرائيل والصهيونية، بل من جانب الفلسطينيين انفسهم. فإسرائيل تملك ٧٧٪ من فلسطين التاريخية، أما الـ ٢٣٪ الباقية التى تشمل مدينة القدس العتيقة فتخضع للاحتلال الإسرائيلى، لكن الفلسطينيين يقرون الآن بما حققته إسرائيل من استيلاء وضم فى عام ١٩٤٨- على الرغم مما ينطوى عليه ذلك من ظلم- وأوضحوا انهم على استعداد للموافقة على اقامة دولة مستقلة فى هذا الجزء الضئيل من اراضيهم المحتلة فى عام ١٩٦٧ .

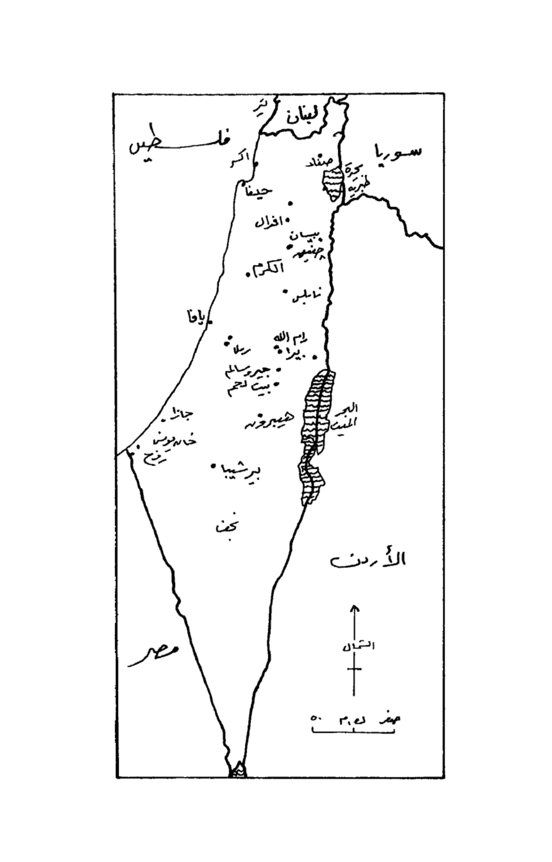
وحتى أن كان بعض الفلسطينيين لايزالون يحملون باعادة توحيد بلادهم على نحو سلمى فى نهاية الأمر، حيث يمكن للعرب واليهود أن يعيشوا معا فى سلام،

أليس هذا حلما جميلا وأنه أمر جدير بالأمل فى أن يتحقق فى القرن القادم؟ أنهم يدركون أن تحقيقه الآن ضرب من المستحيل ذلك لأن الأيديولوجية الصهيونية على درجة من التعصب لاتسمح بالتعايش معهم، ولكنهم يعتقدون أن حلقاء بيجين وديان لابد من أن يعترفوا فى يوم من الأيام بأنه حق سكان الدولة الشرعيين الاقامة فيها، أما الآن، وفى المستقبل القريب فإن الفلسطينيون- أو الغالبية العظمى منهم على أية حال- على استعداد لنسيان حلمهم والموافقة على تسوية وعلى تقسيم بلدهم .

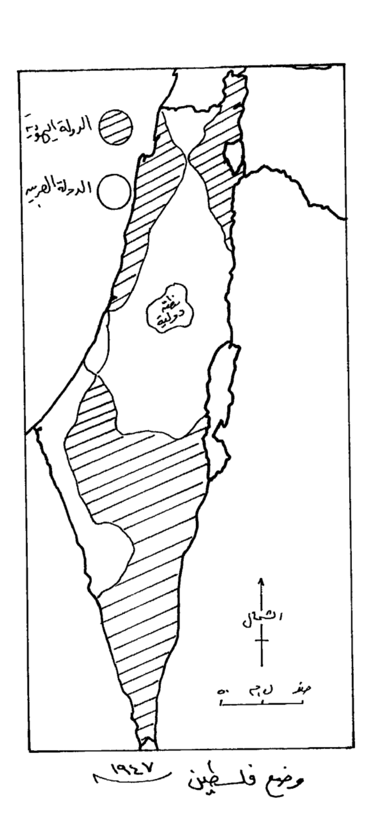
أن اقامة دولة فى الضفة الغربية وغزة هو أقل ما يمكن ان يفعله العالم للفلسطينيين فى الوقت الراهن. وهذا فى حد ذاته لايمكن أن يمثل العدالة الكاملة، ولابد أن يعوضهم عن الضرر الذى لحق بهم على أمتداد اعوام عديدة. غير أنها ستعيد لهم شعورهم بالوطن- الشعور بانهم ينتمون بالوطن يعملون على بنائه كيفما شاؤا بأيديهم شأنهم فى ذلك شأن سائر الشعوب .

منذ ستين عاما كان ثمة اعتراف بحقهم فى فلسطين بأسرها. ومنذ ثلاثين عاما عرض عليهم نصفها. واليوم وقد أصبحوا على استعداد لقبول أقل من ربع بلادهم، فإن قضيتهم، ولاغرو، مفحمة .

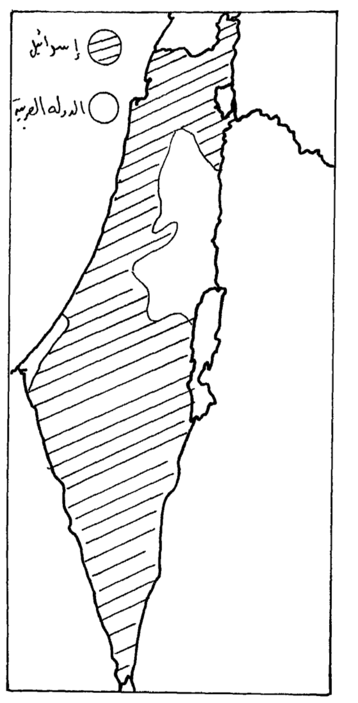




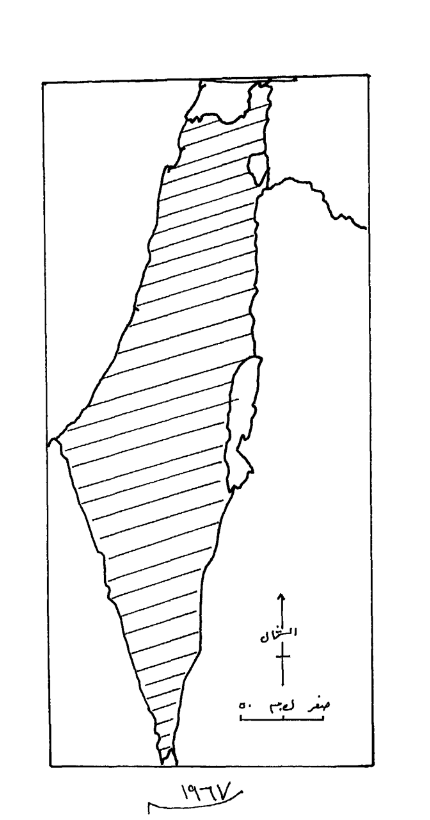
فلسطين
لبنان
سوريا
حيفا
بيسان
نابلس
يافا
رام الله
جيروسالم
بيت لحم
هيبرون
البحر الميت
خان يونس
رفح
بيرشيبا
الأردن
مصر
الشمال



وضع فلسطين ١٩٤٧م



وضع فلسطين عام ١٩٤٩



١٩٦٧

MADBOULI BOOKSHOP مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Tel:756421 ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١